سياحة روحية عبر طريق الحرير

السائح الروحاني ديفيد

المحتويات

تمهيد	٣.
مقدمة	٥
الفصل ١ شينجيانغ: الصدقة	١٤
الفصل ٢ شينجيانغ: الصوم	٢٤
الفصل ٣ كازاخستان: عندما يتكلم الله	٣٤
الفصل ٤ قرغيزستان: الضيافة	٤٠
الفصل ٥ قرغيزستان: الختان	٤٦
الفصل ٦ طاجيكستان: الخوف أم الحب؟	٥٢
الفصل ٧ طاجيكستان: التعامل مع الفقدان	٦١
الفصل ٨ أوزبكستان: تربية الأطفال	٧٢
الفصل ٩ تركمانستان: السجاد	٧٩
الفصل ١٠ تركمانستان: المهر	٨٦
الفصل ١١ قرقل باغستان: تكريم أسلافنا	٩٤
الفصل ١٢ كالميكيا: الأمثال	١٠٤
الفصل ١٣ كراشاي-شركيسيا: إقامة الموتى	١١١
الفصل ١٤ الرياضة في القوقاز	١١٩
الفصل ١٥ الملائكة	١٢٥
الفصل ١٦ أذربيجان: النبي ذو الثياب البيضاء	١٣١
الفصل ١٧ جبل الله	١٣٧
ملاحظات	١٤٥

تمهيد

منذ زيارتي الأولى إلى أوزبكستان في عام ١٩٨٢، وقعتُ في الحب مع شعوب آسيا الوسطى. مضى أكثر من ربع قرنٍ منذ ذلك الحين وكانت هناك العديد من التغييرات الخارجية في المنطقة. ومع ذلك، ظلت قلوب الناس دافئةً متمتعة بكرم الضيافة. ففي مواجهة الصعوبات الاقتصادية أو غيرها، يحاول كثيرٌ من الناس بإخلاص أن يعيشوا الحياة بأفضل طريقةٍ ممكنة حسب الصدق والحق. إني أحترم كثيراً صدق قلوبهم ورغبتهم في معرفة ما هو حقيقي وما هو صحيح وما يجب اتباعه.

يستعرض هذا الكتاب بعض محادثاتي مع الناس في آسيا الوسطى. لقد كان لي شرف المشاركة في حياتهم والتمتع بدفء ضيافتهم وثراء ثقافتهم. تعلمتُ منهم الكثير، وخصوصاً بعض عاداتهم المتصلة بالضيافة والكرم واللطف. هذا الكتاب انعكاس لتقديري لقيم وثقافات شعوب آسيا الوسطى.

أثناء الجلوس حول طاولة المطبخ أو السفر معاً في الحافلة، كان الناس يسألونني أحياناً حول مختلف القضايا المهمة في الحياة. كانت بعض الأسئلة ترتبط بالأمور الأسرية مثل كيفية تنشئة الأطفال. (رغم أن لديَّ خمسة أطفال واثنين من الأحفاد، ما زلتُ أتعلم كيفية القيام بذلك!) وكانت أسئلة أخرى تتعلق بقضايا أعمق في الحياة مثل: «ما معنى الحياة؟» أو «لماذا نحن هنا؟». يمكنك كتابة العديد من الكتب بخصوص مثل هذه الموضوعات دون أن تناقشها بالتفصيل. ومع ذلك، أتمنى أن تكون مجموعة الأحاديث والأفكار والخبرات التي أشاركها في هذا الكتاب مفيدةً لبعض أصدقائي في آسيا الوسطى والقوقاز في سياحتهم الروحية أي رحلة حياتهم.

رغم ثقتي من أن الكثير من أصدقائي لا يمانعون من نشر أسمائهم الحقيقية، إلا أنني في بعض الحالات غيّرتُ أسماء بعض الناس من خلال تقديمهم بأسماءٍ مختلفة من آسيا الوسطى، وذلك احتراماً للخصوصية. في حالاتٍ قليلة، امتنعتُ عن ذكر أسمائهم تماماً. ومن أجل عدم الكشف عن هوية البعض، كان من الضروري في بعض الأحيان تغيير بعض تفاصيل الأحداث، مثل موقع إحدى المحادثات، ولكن المناقشات والخبرات المنشورة هنا حدثت بالفعل مع السكان المحليين في المنطقة. كما ارتأيتُ أنه من الأفضل سردها هنا معاً في رحلةٍ واحدة مستمرة بدلاً من الاحتفاظ بها كأحداثٍ في رحلاتٍ منفصلة. في بعض الحالات، كنتُ أدمجُ حوارين منفصلين أو أتوسعُ في مضمون حوارٍ خاص حتى يكون المعنى العام أكثر وضوحاً، مثل إضافة بعض المعلومات الأساسية أو العناصر الإضافية إلى الموضوع. أتمنى أن تكون هذه الأفكار التحريرية البسيطة عوناً وليست عائقاً أمام القارئ الذي قد يرغب في مرافقتي في سياحتي الروحية عبر آسيا الوسطى والقوقاز.

مقدمة

ما هو «طريق الحرير العظيم»؟ هل كان مجرد طريقٍ تجاري لنقل الحرير عبر آسيا الوسطى من الصين إلى الشرق الأوسط ونقل مختلف الأواني الأخرى والحيوانات شرقاً إلى الصين؟ لا! كان التفاعل بين مختلف الشعوب أهم بكثيرٍ من نقل السلع المادية. على طول طريق الحرير العظيم كانت الشعوب تتحدث مع بعضها البعض وتتبادل الأفكار وتتشارك جوانب ثقافاتها وتقاليدها الخاصة.

كانوا ينقلون الأفكار والممارسات الدينية. في آسيا الوسطى تعايشت العديد من الأديان جنباً إلى جنبٍ لعدة قرونٍ. كانت هذه الأديان تشمل ليس فقط الإسلام والمسيحية والبوذية ولكن أيضاً الديانات الأقل شهرة مثل الزرادشتية والمانوية واليهودية. ومع ذلك، كان كثيرٌ من الناس في الحياة اليومية يمارسون الطقوس الدينية «الشعبية» المستمدة من «الشامانية» أو عبادة الطبيعة أو عبادات الأسلاف. على سبيل المثال، في بعض مناطق آسيا الوسطى يربط الناس قطعةً من القماش أو شريطاً من الورق على شجرةٍ في بعض الأماكن الخاصة كشكلٍ من أشكال الصلاة. من أين جاءت هذه العادة؟ لم يرد ذكرها في القرآن ولا حتى في أي حديث. في بورياتيا، رأيتُ نفس الممارسة في سياقٍ بوذي، وفي أرمينيا رأيتُ ذلك بالقرب من إحدى الكنائس التي أُغلقت خلال الحقبة الشيوعية وكان الناس يُمنعون من العبادة بالداخل.

كما رأيتُ نفس الممارسة في سيبيريا وحتى في الصين. في الأساس، تُعدّ هذه الممارسة قرباناً للآلهة الوثنية أو للأرواح في منطقةٍ معينة. على سبيل المثال، يعتقد العديد من السكان الأصليين في سيبيريا أنهم إذا مرّوا أمام مكانٍ مقدس دون أن يتركوا قرباناً للروح المحلي، فإنهم بذلك يُغضبون الروح ومن الممكن أن يجلّب الضرر. ولهذا فإن ربط الملابس بالأشجار على الأرجح من بقايا الوثنية أو الشامانية ثم استوعبتها ديانات أخرى، بما فيها الإسلام والبوذية والمسيحية. ومع ذلك، فإن الناس الذين يمارسون هذه العادة لا يزالوا يعتبرون أنفسهم مسلمين أو مسيحيين أو بوذيين! في هذا الإطار تمثل انتماءاتهم الدينية «الرسمية» مجرد طلاءٍ سطحي. ولكن الموضوع لا يمثل أي جدوى إذا كان ما تحت ستار أعمالهم أو معتقداتهم أشبه بالوثنية أو بالشامانية.

كان طريق الحرير العظيم مهماً لنقل المعتقدات والممارسات الدينية على مرّ التاريخ. كان أحد المداخل التي انتقلت من خلالها البوذية والمسيحية والإسلام إلى الصين من آسيا الوسطى. يُعدّ تأثير الإسلام في آسيا الوسطى في الوقت الحاضر من الوضوح لدرجة أن الناس الذين يعيشون في القوقاز، أو تركمانستان، أو أوزبكستان،

أو قرغيزستان، أو شمال غرب الصين يشعرون بالدهشة في بعض الأحيان عندما يعرفون أن الكثير من أسلافهم من المرجح جداً أن يكونوا قد أحبوا عيسى المسيح واتبعوا تعاليمه. في أفغانستان وفي مقاطعتي شينجيانغ وقانسو شمال غرب الصين، من المحتمل أن أسلاف السكان كانوا بوذيين. فاللوحات الجدارية البوذية في دونهوانغ في مقاطعة قانسو بالصين (التي يعود تاريخها إلى ما بين القرن ٤ إلى القرن ١٤م) والتماثيل البوذية الضخمة في باميان بأفغانستان (التي يعود تاريخها إلى القرن ٦)- التي حطمتها حركة طالبان في عام ٢٠٠١- كلها تشهد على النفوذ السابق للبوذية في المناطق التي تسكنها في الوقت الحاضر أغلبية مسلمة.٢ دخلت البوذية أفغانستان في القرن الثالث قبل الميلاد ومن هناك انتقلت إلى شينجيانغ ومنغوليا.٣

بنفس الطريقة، كان أسلاف العديد من شعوب آسيا الوسطى في وقتٍ ما من أتباع عيسى المسيح. يذكر الإنجيل أن الفرتيّين، أي شعب بارثيا، وهي منطقة تضم في الوقت الحاضر إيران وتركمانستان وطاجيكستان وأجزاء من أوزبكستان، من بين الذين سمعوا الأخبار السارة عن عيسى المسيح بعد حوالي سبعة أسابيع من موته وقيامته.٤ كان برثلماوس وتدّاوس يجولان مع عيسى المسيح وقد شهدا قيامته من بين الأموات ثم توجها فيما بعد إلى المنطقة المعروفة الآن باسم أذربيجان وأرمينيا ناقلين لشعوب المنطقة الأخبار السارة حول عيسى المسيح.٥ وبعد قرنين من ولادة عيسى المسيح انتقلت الرسالة إلى الناس الذين يعيشون الآن في جنوب داغستان.٦ ظل شعب أودين في أذربيجان يحافظون على هويتهم التاريخية كأتباعٍ لعيسى المسيح إلى أن ضمت الإمبراطورية الروسية الإقليم إليها، وبعد أن نجوا من عاصفة الشيوعية الملحدة، فإنهم يعكفون الآن على إعادة اكتشاف إيمان أسلافهم.٧

في الوقت نفسه، منذ القرن الأول فصاعداً، كان الإيمان بعيسى المسيح ينتشر أيضاً إلى شرق بحر قزوين، ليس فقط في جميع أنحاء الإمبراطورية الفارسية بل أيضاً إلى الهند والمزيد من مقاطعات الشرق.٨ كان الإيمان بعيسى المسيح له جذور عميقة جداً في المنطقة المعروفة الآن باسم تركمانستان وأوزبكستان وطاجيكستان وقرغيزستان وكازاخستان ومناطق اليوغور في الصين. بعد حوالي قرنين من ولادة عيسى المسيح، كان هناك بالفعل أتباعٌ لعيسى المسيح في منطقة ميرف (أو مريم) في تركمانستان الحديثة.٩ وفي القرون اللاحقة، أصبحت ميرف ومنطقة هيرات في أفغانستان وبخارى وسمرقند في أوزبكستان حالياً مراكز مسيحية مهمة.١٠ كانت سمرقند وبخارى، وكذلك المنطقة المعروفة الآن باسم طاجيكستان، يسكنها الشعب السوقدياني، وكان من بينهم أعداد كبيرة من أتباع عيسى المسيح.١١ وفيما كان السوقديانيون تجاراً بارزين على طول طريق الحرير العظيم ويسافرون على نطاقٍ واسع في الصين، تم العثور على وثائقٍ مسيحية سوقديانية في بولايق، بالقرب من تورفان في تركستان الشرقية.١٢

في عهد جنكيز خان، كانت بعض القبائل المنغولية وعددٌ من قادة المنغول أيضاً من أتباع عيسى المسيح.١٣ وبما أنهم كانوا من البدو، لم يكونوا مهتمين بتشييد مبانٍ دينية دائمة لكنهم أدركوا أن الله يمكن أن يعبدوه في أي مكانٍ وبطريقة تلاءم الثقافة المحلية.١٤ خلال حكم الإمبراطورية المنغولية والإمبراطوريات اللاحقة، استمر وجود العديد من المسيحيين في جميع أنحاء آسيا الوسطى وعلى طول طريق الحرير العظيم، من القوقاز إلى الصين وخارجها. تذكر السجلات التاريخية الكنائس والتجمعات المسيحية في أماكن مثل كاشغر (الآن في مقاطعة شينجيانغ في الصين) وسمرقند (أوزبكستان في العصر الحديث)، وخوارزم (إقليم أوزبكستان حول خيوة وأورجينتش) وميرف (في تركمانستان).١٥ على طول طريق الحرير العظيم، تُعدّ الأسماء الموجودة على شواهد القبور القديمة لأتباع عيسى المسيح في الأساس أسماءً تركية، مع بعض الأسماء الفارسية وغيرها من الأسماء المتناثرة بينهما.١٦

على سبيل المثال، في إيسيك كول في قرغيزستان هناك شاهد قبرٍ لأحد أتباع عيسى المسيح مات عام ١٣١٢ يحتوي على نقشٍ باللغة اليوغورية.١٧ ما زال علماء الآثار الذين يحفرون في المواقع الأثرية على طول طريق الحرير العظيم يكتشفون التحف التي تدل على تأثير المسيحية بين أسلاف اليوغور، والكازاخ، والقرغيز، والطاجيك، والأوزبك، والتركمان، والأذريين، وشعوب شمال القوقاز اليوم. من الممكن معرفة التقديس الذي كان يقدمه أسلاف هذه الشعوب لعيسى المسيح في التصاميم المنقوشة على الأواني الحجرية والميداليات وغيرها من الأعمال الفنية المعروضة الآن في متاحف مختلفة في جميع أنحاء المنطقة.١٨ كانت هذه الفترة المهمة في تاريخ شعوب آسيا الوسطى والقوقاز مُهملة في الماضي ولكن يجري الآن بحثها وتوثيقها من قِبل عدد من الباحثين المحليين ومن ضمنهم ماناربك بايكي (من كازاخستان)، وفريدة ماميدوفا (من أذربيجان)، ورشيد عزيزوف وهو باحث تاباساري من داغستان.١٩

حتى في الصين، انتشر الإيمان بعيسى المسيح أيضاً على نطاقٍ واسع جداً بين أسلاف شعب اليوغور، وربما أيضاً بين أسلاف شعب هوي (أو الدونغان كما هم معروفين في كازاخستان وقرغيزستان). هناك أدلةٌ على أن الأخبار السارة عن عيسى المسيح انتقلت إلى الصين للمرة الأولى في عام ٦٥م على يدّ توما الرسول الذي التقى شخصياً مع عيسى المسيح بعد قيامته من بين الأموات. كما أن الله أعدّ حتى إمبراطور الصين لهذه الأخبار السارة من خلال حلمٍ رأى فيه الإمبراطور رؤيا لعيسى المسيح.٢٠ يعتقد باحثٌ صيني اسمه وانغ وايفان أن هناك أيضاً أدلةً على وجود المسيحية في الصين منذ عام ٨٦م- أي أثناء حياة من عاينوا شخصياً موت عيسى المسيح وقيامته من القبر.٢١

كان هناك بالتأكيد أتباعٌ لعيسى المسيح في الصين بحلول القرنين السادس والسابع الميلاديين، وبحلول القرن الثامن انتشروا في عشر مقاطعات عبر الصين وشكّلوا تجمعات مسيحية في مائة مدينة.٢٢ المعلومات المتوافرة عن أتباع عيسى المسيح في الصين في ذلك الوقت مستمدة من عددٍ من المخطوطات القديمة، ولكن الدليل الأشهر يمكن مشاهدته على عمودٍ يعود تاريخه إلى عام ٧٨١ ولا يزال يمكن مشاهدته في شيان، وهي مدينة صينية تحدد بداية طريق الحرير العظيم.٢٣ تم الحفاظ على المخطوطات المسيحية المؤرخة ما بين القرنين السابع والعاشر

الميلاديين أيضاً في مكتبة المركز البوذي الكبير في دونهوانغ في مقاطعة قانسو الصينية.٢٤ بحلول عام ١٠٠٠م كان هناك أتباعٌ لعيسى المسيح عبر آسيا الوسطى وكذلك في منغوليا والتبت والهند وبورما وتايلاند وربما أبعد شرقاً أيضاً.٢٥

ومع ذلك، فإن الحروب والفتوحات والثورات وأعمال القمع والاضطهاد وفرض الأيديولوجيات الأخرى، بما في ذلك الإلحاد خلال فترة السبعين عاماً من تاريخ الاتحاد السوفياتي، محت الكثير من العلامات المنظورة الخارجية لهذه الأديان.٢٦ ومع ذلك، كان الناس قد حفظوا داخل قلوبهم الكثير من قيم ومعتقدات أسلافهم الذين كانوا يعرفون ويحبون كتب الله المقدسة بما فيها التوراة، والمزامير، والإنجيل. وفي كثيرٍ من الأحيان تحتفظ الأقوال والأمثال الشعبية على بعض عناصر هذه المعتقدات السابقة. على سبيل المثال، يكتب باحث تاباساري من داغستان عن شعبه ما يلي: «في كل المستوطنات التاباسارية، في حالة وجود حديث من القلب إلى القلب مع أي شخصٍ تقريباً، يمكن أن تبين بوضوح الروحانية التقليدية داخل الجماعة العرقية وفي كل شخصٍ. فإذا نظّم المرء وحلّل كل ما يُقال، فإنه من خلال عاداتهم ووجهات نظرهم وسلوكهم من الممكن كتابة الكتاب المقدس من جديدٍ لو كان قد اختفى تماماً من على وجه الأرض.»٢٧

يسجل المؤلف نفسه انطباع أحد القرويين في جبال داغستان والذي اكتشف أن المنطقة التي يعيش فيها مذكورة في الكتب المقدسة: «حتى اسم منطقتنا مذكورٌ في الكتاب المقدس، في سفر الملوك الثاني، الأصحاح السابع عشر، في الآيتين السادسة والسابعة: «فِي ٱلسَّنَةِ ٱلتَّاسِعَةِ لِهُوشَعَ أَخَذَ مَلِكُ أَشُّورَ ٱلسَّامِرَةَ، وَسَبَى إِسْرَائِيلَ إِلَى أَشُّورَ وَأَسْكَنَهُمْ فِي حَلَحَ وَخَابُورَ نَهْرِ جُوزَانَ وَفِي مُدُنِ مَادِي. وَكَانَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخْطَأُوا إِلَى ٱلرَّبِّ إِلَهِهِمِ...»» ويضيف باجوتين كوربانوف، وهو من سكان مستوطنة خالاج، قائلاً: «عندما قرأتُ الكتاب المقدس ورأيتُ هذا، شعرتُ بالذهول. في الحقيقة، نحن اليوم نخطئ أيضاً إلى ربنا ومخلصنا. ولهذا السبب نحن شعبٌ فقير».٢٨

هذه الفقرة التي اقتبسها أحد سكان داغستان تشير إلى الشعب اليهودي القديم الذين تم ترحيلهم إلى منطقة القوقاز في عام ٧٢٢ قبل الميلاد.٢٩ ربما يعود الاستيطان اليهودي في آسيا الوسطى إلى هذا الحدث: بالتأكيد كان «يهود الجبال»

من منطقة القوقاز يعيشون في المنطقة لقرونٍ عديدة.٣٠ من المرجح أن الجاليات اليهودية في سمرقند وبخارى وتركستان (في جنوب كازاخستان) يعود تاريخها إلى المستوطنين اليهود الذين هاجروا هناك في القرنين ٧-٦ قبل الميلاد جنباً إلى جنبٍ مع تراجع السكيثيين الذين غزوا الشرق الأدنى في الربع الأول من القرن السابع قبل الميلاد، ووصلوا حدود إسرائيل ومصر، ولمدة ثمانية وعشرين عاماً حكموا مادي (الواقعة في الشمال الغربي من إيران اليوم).٣١

بعد حوالي ١٥٠٠ عاماً، أي في القرن الثامن أو أوائل القرن التاسع الميلادي، اعتنق كثيرٌ من شعب الخزر الديانة اليهودية، وهم يعيشون في المنطقة الواقعة بين شبه جزيرة القرم وشمال القوقاز. في البداية، اعتنق اليهودية قادة الخزر ولكن العديد من الخزر الآخرين اتبعوا مثالهم. تنتمي اللغة الخزرية إلى المجموعة اللغوية التركية، ولذلك كانت مرتبطة بمختلف اللغات الحديثة في المنطقة مثل الكميك، والنوجاى، والتتارية، والأذرية، والأوزبكية، والكاراكالباكية (قرقل باغستان)، والكازاخية، إلخ. بين القرنين ٧ – ١٠م، كانت دولة الخزر قوةً كبيرة في المنطقة الواقعة بين شبه جزيرة القرم وبحر قزوين، بما في ذلك أجزاءً من شمال القوقاز وبعض المناطق الواقعة الآن في غرب كازاخستان وشمال غرب أوزبكستان.٣٢

كانت إحدى السمات البارزة لدولة الخزر التسامح مع الأديان الأخرى: فالمسلمون واليهود والمسيحيون والوثنيون كانوا يتمتعون بحرية ممارسة العبادة دون خوفٍ من الاضطهاد أو المضايقة.٣٣ وكان هذا غير معتادٍ بالمرة في ذلك الوقت وكان هذا التسامح للأسف نادراً في دولٍ أخرى منذ ذلك الحين. فحتى الملحدون كانوا يحملون نفس النوع من التعصب تجاه الأفكار الأخرى خلال القرن العشرين، عندما كان أتباع جميع الديانات يعانون الاضطهاد في الاتحاد السوفياتي. إلى حدٍّ ما، كان الشيوعيون يخشون قوة الدين في التأثير على الناس ويظنون أيضاً أن الدين «أفيون الشعب».

ومع ذلك، أظنُ أن هناك أيضاً قضايا أخلاقية في هذا الموضوع. فالمسؤولون الذين كذبوا بخصوص حجم الإنتاج أو البيروقراطيون الذين حاولوا إعطاء صورة كاذبة عن نجاحات الشيوعية المجيدة ربما شعروا بالتهديد من جانب أولئك الذين تصدوا لقيم الصدق والحق. تمتد جذور هذه القيم إلى شخصية الله نفسه. بنفس الطريقة، من يعتقدون أن كل إنسانٍ له قيمة لأن الله خلقه ويحبه قد يشكلّون تهديداً للمسؤولين الذين تنطوي قوتهم على الخوف واستغلال السلطة. يجب أن يكون الحق (بما في ذلك الصدق) والحب (بما فيها الرحمة والعطف تجاه الآخرين) أساس أي فئة اجتماعية عملية سواء كانت دولة أو عملاً تجارياً أو أسرة. فمن يحاولون أن يعيشوا بهذه القيم إنما يعيشون بالأكثر في الواقع حسب الطريقة التي قصدها الله

نفسه. ومع ذلك، يمكننا أن نفهم أفضل كيف نعيش بهذه الطريقة إذا عرفنا إله الحق الذي هو أيضاً إله الحب.

كلٌ من الإسلام والمسيحية لهما جذورٍ في اليهودية ويعترفان بأن أنبياء اليهود ناطقين باسم الإله الواحد الحقيقي. عندما قدّم الله نفسه إلى موسى النبي قال له إنه إله أسلاف الشعب اليهودي: «أَنَا إِلهُ أَبِيكَ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ.» ٣٤ كان إبراهيم وإسحاق ويعقوب أسلاف الشعب اليهودي وفي الوقت الحاضر ما زالوا موضع تكريمٍ ليس فقط من قِبل اليهود ولكن أيضاً من قِبل المسلمين والمسيحيين. ومع ذلك، فإن وجود علاقة مع الله الواحد الذي قدّم نفسه بصفته إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أهم بكثيرٍ من مجرد احترام هؤلاء الأنبياء.

وقد ظلّ أسلاف العديد من الشعوب التي تعيش الآن في آسيا الوسطى يعبدون الله لقرونٍ عديدة رغم أنهم ربما كانوا يعبدونه باستخدام مجموعةٍ متنوعة من أنماط الصلاة، متحدثين لغات مختلفة ومستخدمين أنماطاً مختلفة من العبادة. من عظمة الله أنه يفهم الصلاة المنطوقة بالعبرية والسريانية والعربية والشيشانية والأوزبكية والطاجيكية وغيرها من اللغات. ولكن الأهم بالنسبة لله اتجاه قلب الإنسان. فالله ينظر داخل كل واحدٍ منا ويرى الدوافع الخفية وراء صلواتنا وأعمالنا الدينية. إنه يعرف ما إذا كانت ديانتنا حقيقية أو مجرد استعراض خارجي.

الله هو الذي يعطي الحياة لكل واحدٍ منا في رحم أمهاتنا. وهو أيضاً من سيقابله كلٌ منا بعد الموت. إنه ليس فقط مصدر حياتنا ولكن أيضاً وجهة حياتنا. فحياتنا رحلة: تبدأ تلك الرحلة مع الله وتنتهي أيضاً مع الله. ومع ذلك، يتمتع كلٌ منا بحرية أن يدعو أو لا يدعو الله كي يكون معنا على طول الطريق بينما ننطلق في تلك الرحلة.

يدور هذا الكتاب عن رحلةٍ عبر آسيا الوسطى عبر طريق الحرير العظيم. ويناقش أيضاً الرحلة التي ينطلق فيها كل واحدٍ منا مع الله. كثيراً ما كنتُ أسافر عبر أجزاءٍ مختلفة من طريق الحرير العظيم، وأحبُ الناس الذين يعيشون في هذه المناطق. لديّ احترام كبير لثقافتهم وطريقة حياتهم وتعلمتُ منهم الكثير عن القيم المهمة في الحياة مثل الضيافة، واحترام كبار السن، وأهمية العلاقات الأسرية، إلخ. هذه هي القيم التي يؤكد عليها الله أيضاً في الكتب المقدسة من خلال أنبيائه. ربما تحترم شعوب آسيا الوسطى هذه القيم لأن أجدادهم أخذوا على محمل الجدّ إعلان الله من خلال جميع أنبيائه على مرّ القرون.

يعلن الكتاب المقدس في مجلدٍ واحد إعلانات الله التي قدمها لمختلف الأنبياء في أوقاتٍ مختلفة. قد نظن أن التوراة والمزامير والإنجيل ثلاثة كتب منفصلة ولكنها جميعاً من عند الله ولهذا السبب يقدمها الكتاب المقدس معاً. بشكلٍ ما، عملتُ شيئاً مماثلاً في هذا الكتاب من خلال تقديم بعضٍ من خبراتي التي حدثت في عددٍ من الزيارات المختلفة لآسيا الوسطى في مجلدٍ واحد. وضعتها معاً على هيئة قصة أسميتها سياحة روحية وذلك لأن الحياة بالنسبة لنا جميعاً سياحة روحية. نحن جميعاً في رحلة إلى الله.

على طول هذه الرحلة، كثيراً ما ساعدني أصدقاءٌ في آسيا الوسطى والقوقاز. وقد ساعدوني ليس فقط من الناحية المادية، من خلال كرم الضيافة واللطف، بل بالأحرى من خلال مثالهم في الحياة عبر سياحتي الروحية. لقد تعلمتُ الكثير عن الكرم، على سبيل المثال، من خلال رؤية كرم أصدقائي في قرغيزستان. وتعلمتُ عن الإيمان والثقة بالله من خلال صديقٍ من الكازاخ. كما أظهر لي أصدقائي في أوزبكستان وداغستان أمثلةً مشرقة على المثابرة وعدم الاستسلام في مواجهة المشكلات أو المصاعب. هذه الدروس لا نستطيع أن نتعلمها من الكتب ولكن علينا أن نراها في واقع الحياة لنقدّر معناها.

التقيتُ بعض أصدقائي في المؤتمرات الأكاديمية ولكن الكثير منهم التقيتهم «على طول الطريق» أثناء السفر في الحافلات أو الطائرات إلخ. أحياناً كنتُ ألتقيهم في روسيا أو في أماكنٍ أخرى وكانوا يدعونني لزيارتهم إذا سافرتُ إلى بلادهم. هذا النوع من القلب الدافئ والروح الطيبة شائعٌ جداً في جميع أنحاء آسيا الوسطى وهو ما يشكّل قوةً كبيرة في هذه الثقافات.

تقديري لأصدقائي من آسيا الوسطى يعني أنني أريد احترام خصوصياتهم أيضاً. ولهذا السبب امتنعتُ في بعض الأحيان عن إعطاء الكثير من التفاصيل حول كيفية أو مكان اللقاء أو تفاصيل شخصية أخرى من حياتهم. وبالمثل، في سياق الكتابة عن بعض أصدقائي، غيرتُ أسمائهم أو تفاصيل فعلية أخرى وذلك للحفاظ على هويتهم رغم أن بعضهم أعطاني الإذن باستخدام أسمائهم الحقيقية. وبنفس الطريقة، فإن المحادثات المسجلة هنا مستندة على محادثاتٍ حقيقية، ولكنني في بعض الأحيان كنتُ أدمج حوارين أو ثلاثة حوارات معاً أو أضيف بعض التعليقات الإضافية لشرح الموضوع بمزيدٍ من التفصيل. على سبيل المثال، إذا كنتُ أتحدث مع شخصٍ ما فمن الممكن أن أذكر ما قاله أحد أنبياء الله العظماء حول هذا الموضوع. ومع ذلك، من الأفضل تقديم الاقتباس الأصلي من كتابات ذلك النبي. في مثل هذه الحالات، كنتُ أدرج هنا الاقتباس الكامل من الكتاب المقدس وأقدم مصدر الاقتباس في حاشية.

قدمتُ هذه الأفكار التحريرية البسيطة كي أجعل الموضوعات الأساسية للمناقشات أسهل فهماً. ومع ذلك، فإن الرسالة الروحية الأعمق لم تتغير على الإطلاق. فالمعنى الروحي العميق هو المهم، وأصدقائي في آسيا الوسطى يدركون هذا بسهولةٍ عندما يحكون القصص عن شخصٍ مشهور يعرفونه باللغة الكازاخية باسم كوزهانشير وباللغة اليوغورية باسم نصر الدين أفنتدي وباللغة الأوزبكية باسم نصر الدين أفندي (أو «أفندي»)، وباللغة التركية باسم نصر الدين هوكا، وباللغة الطاجيكية باسم مشفقي وهكذا في لغاتٍ أخرى.٣٥

لستُ أذكر هذا الشخص لمجرد أنه معروفٌ بمجموعة متنوعة من الأسماء ولكن أيضاً لأن القصص التي تدور عنه يمكن فهمها في كثيرٍ من الأحيان على مستوياتٍ مختلفة: «هناك المزحة التي تليها الدرس الأخلاقي، وفي المعتاد بعض التفاصيل الأخرى التي تدفع وعي الصوفي شيئاً فشيئاً نحو الإدراك.»٣٦ يمكن قول الشيء نفسه عن خرافات إيسوب أو حتى عن أمثال عيسى المسيح، أي أنها قصص بسيطة لها معانٍ روحية عميقة.

أتمنى أن تجد هنا، أيها القارئ، بعض الأفكار الجديدة حول القضايا الأعمق في الحياة. فأنت وأنا منطلقين في رحلةٍ وبحاجة إلى أن نتعلم من بعضنا البعض حول كيفية السير في رحلة الحياة، ولكن أفضل المعلمين هو الله نفسه.

أود أن أهدي هذا الكتاب إلى أصدقائي في آسيا الوسطى والقوقاز. فهم أيضاً منطلقين في رحلةٍ إلى الله مثلك ومثلي. أملي أن يساعدنا هذا الكتاب في أن يجعل تلك الرحلة ليست فقط إلى الله ولكن أيضاً مع الله.

الفصل 1

شينجيانغ: الصدقة

كانت شمس آسيا الوسطى الحارة تخترق الأجواء من سماءٍ زرقاء صافية بينما كنتُ أخرج من الحافلة في بلدةٍ صغيرة في شمال غرب الصين. كنتُ متجهاً ناحية الغرب على طول الطريق الذي كان يُسمّى طريق الحرير العظيم عبر آسيا الوسطى، والذي كان يربط الصين مع أوروبا. بدأت رحلتي في مدينة شيان الصينية وكان خط سيرها كازاخستان وقرغيزستان وطاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان وأذربيجان وجمهوريات القوقاز المدرجة في الاتحاد الروسي.

أبلغنا سائق الحافلة أننا سنتوقف لمدة نصف ساعة ولهذا فكرتُ في الحصول على بعض الطعام. لاحظتُ بائعاً يصنع ويبيع الخبز المسطح المستدير الذي يسميه اليوغور «نان»، والمعروف بنفس الاسم في العديد من اللغات الأخرى في آسيا الوسطى. وفيما بدأتُ تناول الخبز، لاحظتُ رجلاً عجوزاً من اليوغور جالساً من أجل التسول وبجانبه صبيٌ صغير.

ربما كان هذا مجرد فضول أو دافع من مصدرٍ آخر، ولكني شعرتُ بأنني أرغب في معرفة المزيد عن هذا الرجل. اشتريتُ رغيفاً آخر من خبز نان وقدمته للمتسول. فتطلّع في وجهي فيما كانت الدهشة تغمره، ربما لأنني لم أكن من السكان المحليين، وقال لي: «ريكميت» أي «شكراً.»

فأجبته: ياكشي موسيز، وهي تحية يوغورية معناها الحرفي «هل أنت بخير؟» كانت هذه التحية واحدة من عشرات التعابير التي كنتُ أعرفها باللغة اليوغورية، ولذلك لم أتمكن من الاستمرار في المحادثة. حاولتُ أن أسأله عن نفسه باللغة الصينية ولكني لم أستطع سوى معرفة أنه من اليوغور وعاطل عن العمل وأن الطفل المرافق له كان حفيده الذي يبلغ من العمر أربع سنوات.

قطع سائق الحافلة حديثنا القصير عندما ناداني للعودة إلى الحافلة. وفيما كنتُ ألقي نظرةً خاطفة من النافذة، رأيتُ المتسول يلّوح يداه موّدعاً إياي. فلّوحت يدي له فيما كنتُ أتساءل عن المستقبل الذي ينتظر ذلك العجوز أو بالأحرى الذي ينتظر

حفيده. هل سيكبر معتقداً أن كل ما عليه في الحياة هو أن يجلس على جانب الطريق من أجل الحصول على المال؟ ما نوع التعليم الذي سيتلقاه؟ هل سيستغله الآخرون وربما سيضطر للتسول أيضاً لإعطاء بعض النقود التي يحصل عليها لأولئك الذين يتلاعبون به؟ ربما لن أعرف الإجابة أبداً.

فجأةً قطع الرجل الجالس بجواري في الحافلة حبل أفكاري. كانت قبعته السوداء التي يزينها تطريزٌ أبيض تشير إلى أنه ينتمي إلى إحدى المجموعات العرقية المحلية وكان قد أكد لي بالفعل أنه من اليوغور. كان رجلاً ذكياً درس اللغة الإنجليزية في إحدى الجامعات في أورومتشي وانتهز فرصة جلوسي بجانبه في الحافلة لممارسة لغته الانجليزية.

سألني قائلاً: «لماذا ساعدتَ ذلك المتسول؟»

فأجبته قائلاً: «لماذا لا؟» عالماً أن جوابي هذا ضعيف نوعاً ما. في الأساس، لم أكن متأكداً لماذا سأل علي هذا السؤال أو كيف يمكن الإجابة عليه.

«في الصين، قد نعطي بعض العملات المعدنية للمتسول ولكننا عادةً لا نتوقف للحديث معه.»

كنتُ على وشك القول إن كل إنسانٍ له قيمة ولكني غيرتُ رأيي. فقلتُ له:

«أعتقدُ أن المتسولين في الصين لا يعيدون المال الذي يأخذونه من الآخرين أبداً.»

فأجاب علي: «لا، بالطبع لا! ليس فقط في الصين، فالمتسولون في البلدان الأخرى لن يعملوا هذا أيضاً.»

فقلتُ بهدوء: «حدث في إحدى المرات عندما كنتُ أمرّ بأحد شوارع لندن أن ركض نحوي متسولٌ وأعاد لي نقودي!»

فاتسعت عينا علي البنيتين من تحت حاجبيه الكثيفين.

«لماذا؟ هل أعطيته نقوداً مزورة أو شيئاً من هذا القبيل؟»

«لا، أبداً. كانت نقودٌ صحيحة وكان هو متسولٌ بالفعل.»

فتساءل علي: «ماذا فعلتَ؟» كنتُ أرى أنه يريد حقاً أن يعرف ولهذا بدأتُ أحكي له القصة.

«كان هذا المتسول جالساً في أحد الممرات المؤدية إلى محطة مترو الأنفاق. ومع اقترابي لم يكن هناك غيري في الممر. كنتُ أعرف أن المتسول سيطلب مني مالاً وكان ينبغي عليَّ اتخاذ قرار. هل أتجاهل الرجل وأكمل مسيري أم أتوقف وأعطيه شيئاً؟

رفعتُ قلبي إلى الله وطلبتُ منه الحكمة بدون كلماتٍ منطوقة. وفيما اقتربتُ من المتسول، نظر في وجهي وقال: «هل يمكنك مساعدتي؟»

فسألته: «ماذا تريد؟»

فقال مكرراً: «هل يمكنك مساعدتي؟»

فسألته مكرراً: «ماذا تريد؟»

فتساءل: «هل يمكنك أن تعطيني بعض العملات المعدنية؟»

فأجبته: «كم تريد بالضبط؟»

فقال: «هل لديك ما يكفي لشراء كوبٍ من الشاي؟»

فسألته: «كم تريد؟» فتردد المتسول ثم أجاب: «خمسون بنساً.»

وضعتُ يدي في جيبي فوجدت خمسين بنساً، أي ما يعادل خمسة يوان بسعر الصرف الحالي. فأعطيتها للرجل ومضيتُ في طريقي ناحية المترو.

وفجأة أدركتُ أن المتسول يركض ورائي. ثم لحق بي وأعاد نقودي. قال لي: «إليك نقودك. خذها. لا أريد نقودك. ما أريده حقاً إنساناً أتكلم معه.»

فتوقفتُ وأخذتُ نقودي وجلستُ مع المتسول على أرضية الممر الحجرية الباردة. تحدثنا معاً وعرفتُ المزيد عن حياة الرجل ولماذا كان يجلس هناك للتسول. كان هذا المتسول يعتبر أن وقتي واهتمامي أكثر قيمة بكثيرٍ من المال.

ظلّ علي هادئاً لفترةٍ قصيرة فيما كان يصغي بعنايةٍ لقصتي ويفكر فيما كنتُ أقوله. وأخيراً تساءل:

«لماذا واصلتَ سؤاله عما يحتاجه مراراً وتكراراً؟»

«قلتُ لك إنني في البداية طلبتُ من الله الحكمة. لم أكن أعرف ما يجب أن أعمله، ولكن عندما صليتُ تذكرتُ قصة المتسول الأعمى الذي دعا عيسى المسيح قائلاً: «ارحمني.»٣٧ كان يبدو لبعض المارة أن هذا المتسول يطلب من عيسى المسيح بعض المال. ولم يكن من الممكن أن يفهموا ردّ فعل عيسى المسيح عندما سأل المتسول عما يريده. فكان أن أجاب هذا الرجل الأعمى: «يَا سَيِّدُ، أَنْ أُبْصِرَ!»٣٨ وبعد ذلك أبرأ عيسى المسيح عينيه. كان هذا الشفاء هديةً ذات قيمة أكبر بكثيرٍ من المال.»

فأجاب علي: «نعم، أنت على حقٍ. هناك الكثير من الأشياء التي لا يشتريها المال. فالمال لا يشتري الصداقة الحقيقية أو حتى الاحترام الصادق. وفرقة البيتلز تغني قائلةً: «المال لا يشتري لي الحب» وقد كانوا محقين. إذا كنا نعتقد أن المال يجلب لنا السعادة فنحن إذاً واهمين.»

كان هذا المتسول الذي التقيته في لندن يعرف أنه بحاجة لشيءٍ أثمن من المال. ولكن معظمنا يفضل إعطاء بعض العملات المعدنية للمتسول ثم يكملون مسيرهم على عجلٍ بدلاً من التوقف والحديث.»

«نحن اليوغور نعطي المال للمتسولين. في بعض الأحيان يأتونك عند مغادرة المسجد لأن المسلمين من المفترض أن يقدموا الصدقات أي ما نسميه الزكاة.»

«وهل تساعدهم؟»

«في بعض الأحيان. فأنا أشعر بالحرج عند المرور من أمامهم حال خروجي من المسجد والانتهاء من صلاتي! لذلك من الأسهل أن تعطيهم شيئاً حتى تتجنب إلحاحهم.»

«هل لي أن أسأل كم تعطي؟»

«مجرد عملات نقدية قليلة لمجرد أن أمنعهم من مضايقتي.»

«وهل تقدمون زكاة أخرى للآخرين؟»

«لا. ربما إذا كانت هناك كارثة مثل زلزال وهناك أناسٌ في حاجةٍ، فمن الممكن أن أقدم بعض المال لجمعية خيرية. ولكني أقول إنه لا يعادل مقدار ما يطلبه الإمام. فهو يقول إن الزكاة يجب أن تكون على الأقل خمسة في المئة من دخلك الخاص، أو شيئاً من هذا القبيل. ولكني لستُ أعرف أي شخصٍ من شأنه أن يعطي بهذا القدر.»

فقلتُ له إن موسى النبي في التوراة يقول إن اليهود يجب أن يدفعوا عشرة في المئة من دخلهم كحدٍ أدنى، بالإضافة إلى نوافلٍ أخرى تتجاوز ذلك. العديد من أتباع عيسى المسيح يتبعون هذا المبدأ نفسه ويخصصون عشرة في المئة من دخلهم باعتباره الحدّ الأدنى الذي ينبغي أن يعطونه. يشجع الإنجيل على الكرم ولكنه لا يحدد نسبة مئوية ثابتة. ومع ذلك، يبدو لي أن بعض الناس، سواء من اليهود أو المسيحيين أو المسلمين، يعتبرون تقديم الصدقات مثل الضريبة التي ينبغي أن يدفعوها، ولكنهم لا يعرفون المبادئ الجوهرية التي ينطوي عليها عطاؤهم.

قلتُ لعلي: «دعني أخبركَ عن عائلةٍ أعرفها في قرغيزستان. كانت الزوجة بيرميت امرأة متعلمة تعمل محررةً في إحدى الصحف. والآن تعيش في إحدى القرى حيث ترعى أبقار العائلة بينما يعمل زوجها في بيشكيك. لا تملك بيرميت دخلاً كبيراً، ولكنها قررت بمحض إرادتها أن تخصص نصف دخلها لعمل الله أو لمساعدة الأكثر احتياجاً. فكلما تتلقى أي أموالٍ تضع نصفها في مظاريفٍ مخصصة لمساعدة الآخرين. وبعد ذلك يمكنها أن تستفيد من المال لمساعدة المحتاجين.

«اختارت بيرميت مساعدة الآخرين بهذه الطريقة لأنها تشعر أن هذا هو المبلغ الذي يراه الله مناسباً. إنها لا تقول إن تخصيص نصف الدخل للآخرين يمكن أن ينطبق على الجميع. فالمبدأ هو الكرم مع الآخرين حسب ظروف المرء.»

فكرّ علي في هذه المسألة قليلاً ثم قال: «لم أسمع من قبل عن أي إنسانٍ يصل كرمه في التعامل مع أمواله إلى هذا الحدّ. بالطبع، هناك أغنياء يقدمون الكثير من أموالهم للمنظمات الخيرية، ولكن لا يزال لديهم الكثير لأنفسهم. في الواقع، إنهم لا يقدمون نسبةً عالية جداً من ثرواتهم. أعتقدُ أن الكرم الحقيقي يكمن في أن تعطي ما تحتاجه، مثل صديقتك بيرميت.»

«إني أتفقُ معك، والله يتفق معك أيضاً! فالله ينظر إلى قلوب الناس الذين يعطون المال ويدرك ما يحفزهم.»

فتساءل علي: «ولكن إذا كان الله ينظر إلى القلب، فلماذا يهتم بالمال ومقدار ما يجب أن نعطيه؟»

«إن عطية الوقت والصداقة لهي بالتأكيد شكلٌ من أشكال الصدقة. فذلك المتسول في لندن الذي كان يريد أن يتكلم مع شخصٍ ما كان لديه احتياجٌ للحديث أكثر من المال. نفس الشيء يحدث في علاقتنا مع الله: فموسى النبي قال: «لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ مَا يَخْرُجُ مِنْ فَمِ الرَّبِّ يَحْيَا الإِنْسَانُ».٣٩ وأكد عيسى المسيح على الحقيقة نفسها.٤٠ يعاني كثيرٌ من الناس من الجوع الروحي ويحتاجون كلمة الله أكثر من الغذاء أو المال.»

«هل تقصد أنهم بحاجةٍ لقراءة كتاب؟ أعتقدُ أنه من المثير للاهتمام أن عيسى المسيح نقل قول موسى النبي في التوراة كما أخبرتني. وهذا يذكرني بما قاله الله في القرآن عندما قال للنبي: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ. لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ.»٤١ القرآن يعلمنا أيضاً ضرورة قراءة التوراة والمزامير والإنجيل.»

«أنت رجلٌ حكيم لأنك تعرف هذه الحقيقة العظيمة. ولكن عندما كنتُ أتحدث مع ذلك المتسول، رغم أنني ذكرتُ له ما هو مكتوبٌ في كتب الله، كان هناك كتابٌ آخر يقرأه وقد كان كتابٌ بدون كلمات.»

«ماذا تقصد؟»

«الكتب مهمة جداً. ومع ذلك، فإن الناس يقرأوننا أيضاً مثل الكتب: إنهم يرون من سلوكنا ما هو في داخلنا. يقول الإنجيل: «أَنْتُمْ رِسَالَتُنَا، مَكْتُوبَةً فِي قُلُوبِنَا، مَعْرُوفَةً وَمَقْرُوءَةً مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ.»٤٢ سواء أحببنا أو لم نحب أن نفكر في أنفسنا بهذه الطريقة، فأنت وأنا «كتب» أيضاً وأعمالنا تُظهِر مضمون ما بداخلنا. ولذلك

من المهم أن نُظهِر أن محتوى قلوبنا خيّر ويمجد الله، أي ما يريد الله أن نكون عليه.»

صمتَ عليٌ لبرهةٍ ثم قال: «ما علاقة هذا بالزكاة؟»

فأجبته قائلاً: «كل شيءٍ! فمن يعتقدون أنهم يؤدون واجبهم الديني المتمثل في تقديم الصدقة، أو الزكاة، عندما يعطون مبلغاً رمزياً لأحد المتسولين خارج مسجدٍ أو كنيسة إنما يتجنبون في الواقع المسؤوليات الحقيقية التي تكمن وراء مبدأ الزكاة. فالزكاة الحقيقية تنطوي على مسؤولية رعاية الفقراء والمحتاجين في جميع مجالات حياتهم، وليس الجانب المالي فقط. إنها مسألة مرتبطة بالقلب وبمواقفنا من الداخل، ولا تتعلق فقط بطريقة تصرفنا مع أموالنا.»

«هذا صعبٌ للغاية! فالناس لا يمكنهم قضاء اليوم كله في الحديث مع كل متسولٍ يلتقون به! من الأسهل بمراحل إعطائهم بعض المال ثم المضي قدماً في حياتك.»

«لستُ أقول إن علينا التوقف لمساعدة كل متسولٍ. فما فعلته مع ذلك المتسول في لندن ليس ما أفعله في المعتاد ولكنه ما شعرتُ أنه صوت الله في تلك المناسبة. المسألة ليست «وصفة سحرية»، وليس هناك قانوناً حول ما يجب القيام به في كل مرةٍ. إنها مسألة استماع إلى الله. اطلب منه أن يُظهِر لك خطته وما يجب أن تفعله في موقفٍ معين.»

«وكيف يمكنك أن تفعل ذلك؟ كيف يتكلم الله لك؟»

«في المعتاد لا تكون هناك كلمات مسموعة. ورغم ذلك، سمعتُ في إحدى المرات كلمات مسموعة كان يبدو أنها من الخارج. وعادةً ما تكون لديَّ قناعةٌ عميقة، أي صوتٌ داخلي، يحثني على أن أفعل شيئاً ما أو يستحضر فكرةً ما إلى ذهني.»

«هل تقصد ضميرك؟»

«لا، هذا مختلفٌ عن صوت الضمير، رغم أنني أعتقد أن ضميرنا في كثيرٍ من الأحيان هو أيضاً صوت الله الذي يتكلم لنا. ما أتحدث عنه أشبه بالحدس. ومع ذلك، ليست هذه الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يكلمنا بها الله. فالله يمكن أن يكلمنا عن طريق الأحلام مثلاً، ولكن الأهم من ذلك كله هو الطريقة التي يكلمنا بها من خلال الكتب المقدسة.»

«مثل ماذا؟»

«مثال ذلك، شعرتُ أنا وزوجتي أن الله يكلمنا عن تبني أطفال من دور الأيتام. كان لدينا بالفعل ثلاثة أطفال: ولدين وفتاة. وبعد ولادة الطفل الثالث شعرت زوجتي أن ثلاثة أطفال عددٌ كاف. ولذلك كلمها الله، بعد حوالي عشر سنوات، بخصوص

الحصول على طفلٍ آخر! كانت زوجتي تعرف العديد من الأطفال المهجورين في الصين الذين كانوا يُتركون في الشوارع أو في الحدائق العامة معظمهم من الإناث لأن والديهم كانوا يريدون أطفالاً من الذكور. وحدث أنه أثناء قراءة التوراة والإنجيل شعرتْ أن الله يكلمها عن اهتمامه وحبه للأيتام وغيرهم من المهمشين في المجتمع. فكان أن تأثرتْ بتلك الآيات أثناء قراءتها. وفي النهاية كان الموضوع يرتبط بالطاعة: هل كنا على استعداد لعمل ما يريد الله أن يقوله لنا؟»

«وهل فعلتما هذا؟»

«استغرق الأمر نحو عامين من البيروقراطية والانتظار لكل طفلٍ من الطفلتين اللتين تبنيناهما، ولكن في كل خطوة على الطريق شعرنا أن الله يفتح الأبواب ويساندنا.»

«هذا ممكن بالنسبة للأوروبيين، ولكن هنا في الصين لا نستطيع تدبّر مثل هذه الأشياء.»

«هذا ما يعتقده كثيرٌ من الناس، ولكنه ليس صحيحاً في الواقع. على سبيل المثال، عندما تبنينا طفلتنا الصينية الأولى، واسمها باللغة الصينية معناه «الرائحة الجميلة»، زرنا قرية التقينا فيها سيدة مع ثلاثة أطفالٍ. قالت لنا إن أحد الأطفال تم تبنيه من دار الأيتام الذي كانت تعيش فيه «الرائحة الجميلة». وبعد عامين، عندما تبنينا «سنونو الفجر»، لم يكن مسموحاً لنا أن ننظر داخل غرف دار الأيتام التي كانوا يرعون فيها الأطفال، ولكننا رأينا على الأقل واجهة المبنى من الشارع. وفيما كنا نقف هناك، خرج رجلٌ من بوابة دار الأيتام وتساءل عما كنا نفعله هناك. كنا مجموعةٌ كبيرة من الأشخاص: أنا وزوجتي وابنانا المراهقين وابنتنا المراهقة بالإضافة إلى أول بنت صينية متبناة (التي كان عمرها آنذاك ما يقرب من ثلاث سنوات) وكذلك مترجمتنا ومرشدتنا الصينية وسائق السيارة. وبعد أن شرحت له المترجمة طبيعة الموقف، قال الرجل بعض الكلمات التي جعلت المترجمة تلفها الدهشة والذهول.»

«ماذا قال؟»

«قال إنه أنجب من زوجته أربعة أطفال وُلِدوا قبل فرض قانون طفل واحد لكل أسرة وبعد ذلك تبنوا سبعة عشر طفلاً آخرين.»

فتعجب علي قائلاً: «سبعة عشر! هذا أمرٌ لا يصدق... ولكن لماذا؟ لماذا يجب عليهم أن يفعلوا ذلك؟»

«هذا بالضبط ما سألناه أيضاً. وقد أوضح أنه من أتباع عيسى المسيح ولهذا السبب يريد هو وزوجته أن يكشفا محبة الله للآخرين.»

«ولهذا السبب تبنيتما هاتين الطفلتين الصينيتين أيضاً؟»

«نعم. فعندما قلنا لهذا الرجل: دكتور تشو، هذا أيضاً دافعنا في تبنيهما، أشرقَ وجهه وقال لنا باللغة الصينية: ممتاز، ممتاز.»٤٣

فتساءل علي: «هل تعتقد إذاً أن علينا تبني الأطفال من دور الأيتام؟»

فأجبته: «كل واحدٍ منا لديه شيء يمكنه القيام به. وكما قلتُ من قبل، فإن هذه مسألة إيجاد خطة الله لكل واحدٍ منا والاستماع إلى إرشاده. إنها ليست مسألة قواعد، وهذه مشكلة من يعتقدون أن الزكاة مثل الضريبة وأنهم إذا دفعوا نسبةً معينة من دخلهم فهم بالتالي دفعوا ضرائبهم إلى الله وأوفوا بواجبهم. ومع ذلك، فإن الله أكثر اهتماماً باتجاه قلوبنا من مبلغ المال الذي نقدمه أو أي أفعالٍ أخرى نقوم بها. لا نستطيع شراء الطريق إلى السماء. ولهذا السبب يجب أن يكون العطاء للآخرين طواعيةً، أي من القلب. ينبغي أن يكون تعبيراً عن الحب وليس كواجبٍ أو كنوعٍ من «الضريبة». ومع ذلك، عندما نعطي من القلب ينبغي أن نفعل ذلك بسخاء. يقول الكتاب المقدس:

«كُلُّ وَاحِدٍ (يعطي) كَمَا يَنْوِي بِقَلْبِهِ، لَيْسَ عَنْ حُزْنٍ أَوِ اضْطِرَارٍ. لأَنَّ الْمُعْطِيَ الْمَسْرُورَ يُحِبُّهُ اللهُ.»٤٤

«المعطي المسرور؟ لستُ أعرف الكثير من الناس الذين يكونوا مسرورين أثناء تقديم المال!»

«هذه مسألة مرتبطة بالقلب، أي بموقفنا: فهل نحن نعطي عن اضطرارٍ أم بسخاءٍ؟ أعتقدُ أن هناك مثالاً على ذلك يستعرضه أحد المواقف في حياة عيسى المسيح.» توقفتُ وعثرتُ على الشاهد الكتابي في الإنجيل الذي يقول: «وجَلَسَ يَسُوعُ تُجَاهَ الْخِزَانَةِ، وَنَظَرَ كَيْفَ يُلْقِي الْجَمْعُ نُحَاسًا فِي الْخِزَانَةِ. وَكَانَ أَغْنِيَاءُ كَثِيرُونَ يُلْقُونَ كَثِيرًا. فَجَاءَتْ أَرْمَلَةٌ فَقِيرَةٌ وَأَلْقَتْ فَلْسَيْنِ، قِيمَتُهُمَا رُبْعٌ. فَدَعَا تَلاَمِيذَهُ وَقَالَ لَهُمُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هذِهِ الأَرْمَلَةَ الْفَقِيرَةَ قَدْ أَلْقَتْ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ أَلْقَوْا فِي الْخِزَانَةِ، لأَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ فَضْلَتِهِمْ أَلْقَوْا. وَأَمَّا هذِهِ فَمِنْ إِعْوَازِهَا أَلْقَتْ كُلَّ مَا عِنْدَهَا، كُلَّ مَعِيشَتِهَا».٤٥ ثم أضفتُ قائلاً: «هذا المبدأ لنا نحن أيضاً.»

فقاطعني علي متسائلاً: «ماذا؟ هل تقصد أن علينا أيضاً التخلي عن كل شيءٍ نعيش عليه مثلما فعلت تلك الأرملة؟»

فأجبته قائلاً: «الله يريدنا أن نكون مستعدين للعطاء بسخاءٍ بغضّ النظر عن دخلنا. فهو يستحق أفضل ما يمكن أن نعطيه ليس فقط فيما يتعلق بالمال ولكن أيضاً من خلال تقديم الحب والرعاية والوقت للآخرين. إعطاء المال مجرد «طريقة سهلة» لإعطاء الصدقات، ولكن الدكتور تشو وزوجته يظهران نوعاً من التضحية يمثل الزكاة الحقيقية. فكل يوم لديهما مطالب كبيرة ليس فقط على أموالهما ولكن

أيضاً على وقتهما وطاقتهما فيما يظهران الحب للأطفال الذين يعانون من آلام رفض آبائهم وأمهاتهم وأحياناً آلام الإهمال في الشارع حتى الموت.»

«ولكن لا يمكننا جميعاً أن نكون مثل ذلك، أو مثل الأم تريزا في الهند التي حصلت على جائزة نوبل للسلام لأعمال الرحمة بين الفقراء.»

«ذات مرةٍ نقل لي شخصٌ ما أحد أقوالها بأن المحيط ما هو إلا قطراتٍ عديدة. وقد كانت تقصد أن كل إنسانٍ يمكنه أن يعمل شيئاً بسيطاً على الرغم من أنه قد يبدو مثل قطرةٍ في المحيط، أو كما يقولون باللغة الصينية مثل حبة الذرة في مخزن الحبوب.٤٦ قد لا نستطيع تبني سبعة عشر طفلاً مثل الدكتور تشو، ولكن كلاً منا يمكنه القيام بمهمةٍ بسيطة. يقول الإنجيل: «اَلدِّيَانَةُ الطَّاهِرَةُ النَّقِيَّةُ عِنْدَ اللهِ الآبِ هِيَ هذِهِ: افْتِقَادُ الْيَتَامَى وَالأَرَامِلِ فِي ضِيقَتِهِمْ، وَحِفْظُ الإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِلاَ دَنَسٍ مِنَ الْعَالَمِ.»٤٧

فاعترف علي قائلاً: «نعم، فهنا في الصين هناك الكثير من المحتاجين، وليس فقط في الصين ولكن أيضاً في بلدانٍ أخرى. على سبيل المثال، في لاوس رأيتُ الأطفال يعانون من سوء التغذية والملبس لأن والديهم كانوا مدمنين على الأفيون وينفقون معظم أموالهم على المخدرات.»

«كيف كان شعورك عندما رأيتهم؟»

«شعرتُ تجاههم بالأسف. كانوا يرتدون ملابس قذرة سيئة، وكان بعضهم بدون أحذية. شعرتُ بأنني أرغب في مساعدتهم ولكني لم أكن أعرف كيف.»

«أنت رجلٌ رحيم يا علي. هل تعرف أن شعور التعاطف هذا يحمل بعض سمات مشاعر قلب الله؟»

«حقاً؟ لقد سمعتُ أن الله رحيم، ولكن هل يهتم فعلاً لأولئك الأطفال؟ لطالما اعتقدتُ أنه بعيد وناءٍ.»

«إذا كنتَ تشعر بالحب والرحمة تجاه من يعانون، فمن أين تأتي تلك المشاعر في اعتقادك؟ أنت بهذا تعكس طبيعة الله نفسه، الذي هو رحيم ومحب تجاه من خلقهم.»

«لم أفكر في الأمر على هذا النحو من قبل.»

«في الواقع، الزكاة تعكس طبيعة الله بدرجةٍ أعمق حتى من هذه. فالله يعطي بسخاءٍ أكثر من أي واحدٍ منا. الله أكثر كرماً بمراحل من الدكتور تشو في الصين أو الأم تريزا في الهند. كما أن الله يلتزم بمبادئه. وبما أن الله قائدٌ جيد، فإنه لا يتوقع من الآخرين ما لم يكن هو نفسه مستعداً للقيام به. إنه لن يطالبنا بعمل ما هو غير مستعد للقيام به.»

«بالتأكيد أنت لا تقصد أن الله نفسه يدفع الزكاة؟»

«بلى، إني أقصد ذلك بطريقةٍ ما.»

«ولكن كيف يمكن أن يدفع الله نفسه الزكاة؟»

«لقد قلتُ من قبل إن الله يلتزم بمبادئه أيضاً. فكر في أي نوعٍ من أنواع التضحية التي يطلبها الله منا، وسوف تجد أن الله نفسه مستعدٌ لفعل الشيء نفسه، أو حتى أكثر.»

فكر علي للحظات ثم قال:

ماذا تقول عن اللحظة التي طلب فيها الله نفسه من إبراهيم أن يقدم ابنه كذبيحة؟ فنحن نتذكر هذا الحدث في كل عامٍ عندما نضحي بكبشٍ ونتشارك لحمه مع الآخرين. هذا العيد يذكرنا باستعداد إبراهيم لتقديم الابن الذي أعطاه الله إياه وفاءً لوعده. كان إبراهيم قد ربط ابنه بالفعل وأنامه على شكل ذبيحة. ثم أخذ السكين وكان على وشك أن يغمدها في قلب ابنه عندما تكلم إليه الله من خلال ملاك قائلاً: «إِبْرَاهِيمُ! إِبْرَاهِيمُ!»... «لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لأَنِّي الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي».٤٨ ثم رفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كَبش ممسكاً في الغابة بقرنيه فأصعده مُحرقة عوضاً عن ابنه. وبالتالي، إذا كان الله قد طالب إبراهيم بتقديم ابنه كذبيحة، رغم أنه في النهاية منعه من القيام بذلك، فهل تقصد أن الله نفسه سيكون على استعدادٍ لفعل الشيء نفسه الذي طلبه من إبراهيم؟ بالتأكيد لا!»

«هذه بالضبط وجهة نظري: فالله أعظم من أن يطالب الإنسان بأي شيءٍ لا يستطيع هو نفسه أن يفعله. كيف نعرف ذلك؟ فكر في النبي يحيى (يوحنا المعمدان) الذي عاش بعد قرونٍ من زمان إبراهيم. في أحد الأيام رأى النبي يحيى شخصاً ما مقبلاً إليه فقال: «هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ!»٤٩ فمن ذاك الذي رآه النبي يحيى؟»

«لا أعرف. من كان ذاك الذي رآه النبي يحيى؟ من عساه أن يرفع خطية العالم؟»

«لقد كان عيسى المسيح.»

فاعترضني علي قائلاً: «يا له من تعليقٍ غريب! لماذا وصف النبي يحيى عيسى المسيح بأنه «حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ»؟»

«كان النبي يحيى يعرف قصة الكبش الذي أصعده إبراهيم مُحرقة عوضاً عن ابنه. ومع ذلك، كان الله يتهيأ لعمل شيءٍ أعظم من مجرد إصعاد كبش للموت عوضاً عن شخصٍ واحد فقط. كان يتهيأ لتقديم ذبيحة أعظم بكثيرٍ على استعداد للموت عوضاً عن كل واحدٍ منا. الإنسان وحده يمكن أن يحلّ محلّ إنسانٍ آخر. أما

الإنسان بلا خطية فيمكن أن يموت كذبيحة عوضاً عن أولئك الأشرار الخطاة. كان هذا عيسى المسيح.»

«كيف يمكن أن يكون عيسى المسيح بلا خطية؟ أليس كلنا خطاة؟»

«لقد كان الإنسان الوحيد بلا خطية. فالذين عاشوا معه عن قربٍ لمدة ثلاث سنوات كتبوا بعدها أن عيسى المسيح «لَمْ يَفْعَلْ خَطِيَّةً» و»لَيْسَ فِيهِ خَطِيَّةٌ».٥٠ لا يمكن أن تعيش معي حتى لمدة ثلاثة أيام وتقول عني هذا! أما عيسى المسيح فتحدى أعدائه قائلاً: «مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خَطِيَّةٍ؟»٥١ ولكن لم يتمكنوا من الردّ عليه. ومع ذلك، هناك سببٌ عميق جداً يفسر لماذا كان عيسى المسيح بلا خطية. هل يمكنك أن تعرفه؟»

فكر علي للحظات ثم قال: «قل لي.»

"هل تعرف مدى قرب عيسى المسيح إلى الله؟"

"لا. كم كان قربه؟»

«يوصف عيسى المسيح في كلٍ من الإنجيل والقرآن بأنه «كلمة الله».٥٢ فهل تعرف معنى هذا؟»

"لا، أخبرني.»

فأجبته قائلاً: «إليك ما يقوله الإنجيل عن كلمة الله»، ثم قرأت هذه الفقرة:

«فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ. كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ. فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ...»٥٣

«ولكن عيسى المسيح كان إنساناً وليس كلمة!»

«في سياقٍ لاحق يقول الإنجيل: «وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا»٥٤ يشير هذا إلى الزمان الذي ترك فيه عيسى المسيح السماء وعاش في هذا العالم. ومع ذلك، تصف الآية نفسها كيف رفض الناس كلمة الله، أي عيسى المسيح، عندما جاء ليعيش بيننا. مكتوبٌ: «كَانَ فِي الْعَالَمِ، وَكُوِّنَ الْعَالَمُ بِهِ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ. إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ، وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ. وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللهِ، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ. اَلَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُل، بَلْ مِنَ اللهِ.»»٥٥

«ولكن من المؤكد أن الله أعظم بمراحل من أن يكون له ولد! هل تقصد أنه مارس العلاقة مع امرأة؟»

«لا. تقول الفقرة الكتابية إن هؤلاء الأطفال لا يولدون بالطريقة العادية. هذا الموضوع مشابه لموضوع الطفلتين الصينيتين اللتين تبنيناهما. فهما ليستا من صلبي

من الناحية الوراثية ولكنهما في الحقيقة طفلتينا من جميع الزوايا الأخرى. تتمتعان بنفس العلاقة معنا مثل أطفالنا الطبيعيين. وهذا هو المقصود بأن تكون لك علاقة جديدة مع الله تكون قريبة مثل علاقة الآباء والأبناء.»

«لم أفكر من قبل على الإطلاق أن الله يمكن أن يتبناني كطفل.»

«نعم، من الممكن أن تتمتع بهذا النوع من العلاقة مع الله. في البداية، لم تكن طفلتانا المتبنيتين على درايةٍ بالوقت والجهد والتكلفة التي تطلّبتها عملية التبني. يمكننا القول إننا مثل الأيتام الصينيين اللذين تبناهم الدكتور تشو. ومع ذلك، فالله نفسه يعطي بسخاءٍ حتى يتبنانا في عائلته. لقد تكبدّت محبة الله الباذلة أن يرسل ابنه الأقرب إلى قلبه إلى العالم، عالماً أن البعض سيرفضه. ومع ذلك، كان قصد الله أن كل من يقبلون عيسى المسيح يمكن تبنيهم في عائلة الله. مكتوبٌ في الإنجيل: «فَمَاذَا نَقُولُ لِهذَا؟ إِنْ كَانَ اللهُ مَعَنَا، فَمَنْ عَلَيْنَا؟ اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ، بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ، كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟»٥٦ هذه هي زكاة الله.»

الفصل 2

شينجيانغ: الصوم

كان الطريق يبدو مثل خطٍ رفيع عبر المناظر الطبيعية يفصل الجبال على الجانب الأيمن عن الصحراء على الجانب الأيسر. لقرونٍ عديدة كان الناس يأخذون هذا الطريق في سفرهم إلى الصين ومنها. تأملتُ في أهمية الطريق بصفته المدخل الغربي الرئيسي للصين. كانت الصحاري والجبال عائقاً أمام كثيرين، ولكنها كانت تمثل أيضاً تحدياً للراغبين في تحمل المخاطر. كانت لديهم دوافع مختلفة: فالبعض كان يريد المعرفة حتى لو كان هذا مجرد فضولٍ، بينما كان البعض الآخر يبحث عن الثروة أو على الأقل السلع التجارية. ربما كان البعض يبحثون عن الحرية في أرضٍ جديدة وغير معروفة. أياً كانت دوافعهم، فقد كانوا قد انطلقوا في رحلةٍ على طريقٍ رفيع بين الخطر والفرصة.

بعض الطرق عبر المنظر الطبيعي من صنع الله والبعض الآخر من صنع الإنسان. كان الطريق الرفيع الذي نسلكه يربط الواحات معاً ويربط الصين مع آسيا الوسطى ثم مع أوروبا. لفترةٍ طويلة، ساعدت الحواجز الطبيعية المتمثلة في الصحاري والجبال والسهوب على عزل الصين عن بقية أوراسيا، ومع ذلك كانت قابلة للاختراق. ولتعزيز هذه الحواجز، رسمت الصين خطاً آخر عبر المنظر الطبيعي بين صحاري شمال غرب الصين والمحيط الهادئ. وعلى الرغم من أن سور الصين العظيم كان يربط الجدران الدفاعية في وقتٍ سابق، كان الغرض منه تحديد خطٍ للتقسيم: السهوب مقابل الأراضي المزروعة، والبدو مقابل المزارعين، والمنغوليين مقابل الصينيين.

كنتُ أنظر إلى علي الذي كان يشاهد الفيلم المعروض على شاشة تلفزيون في مقدمة الحافلة. على الرغم من أنه كان من شعب اليوغور، إلا أنه ربما كان، مثلنا جميعاً، يحمل جينات من أنواعٍ مختلفة من الشعوب. في متحف أورومتشي كنتُ أنظر إلى بقايا إنسانة ربما كانتً من أسلاف علي. فقبل ثلاثة آلاف سنة دُفِنت في صحراء شينجيانغ. والآن جسدها معروض في متحف التاريخ في أورومتشي مع

بعض الأجساد الأخرى. فمن كانت؟ وماذا كانت فكرتها عن الحياة في آسيا الوسطى؟ لا نعرف شيئاً عن آمالها أو مخاوفها أو ما تحبه وتكرهه. ولكن يمكننا التكهن فقط من خلال النظر فيما عثر عليه علماء الآثار بخصوصها.

نحن نعرفها لمجرد أن جسدها محفوظ في حالةٍ جافة جداً في شينجيانغ. ومع ذلك، فإن ملامح هذا الشعب القديم في آسيا الوسطى تشبه الملامح الأوروبية بشكلٍ ما، وهذه شهادةٌ على درجة الاتصال العالية بين الثقافات والعرقيات على مدى آلاف السنين في هذا الجزء من العالم.

تذكرتُ ما قاله أصدقائي الروس: «في أعماق الروسي تجد أحد التتار.» فما الأصول الوراثية لطفلتيّ الصينيتين اللتين تبنيناهما؟ لا نعرف. ومع ذلك، فإن معظم الناس في جميع أنحاء العالم، وليس فقط في آسيا الوسطى، بل أيضاً في روسيا والصين وقاراتٍ أخرى، لهم أسلاف من مجموعات عرقية مختلفة. على سبيل المثال، يقال إن فلاديمير لينين كانت له جدة آسيوية من شعب الكالميك.٥٧

وفي أفغانستان، يُعتقد أن أصحاب العيون الزرقاء لهم أسلاف من بين الجنود اليونانيين الذين دخلوا المنطقة في زمن الإسكندر الأكبر. وبالمثل، يمكن العثور على أسلاف القوات المنغولية في جميع أنحاء الإمبراطورية المنغولية السابقة، بما في ذلك شعب الهزارة في أفغانستان وسكان منغوليا في بلدة شين منغ بإقليم تونغ هاي بمقاطعة يونان جنوب غرب الصين.٥٨ أما في آسيا الوسطى اليوم، فإن معظم الناس لديهم جينات من الأسلاف الذين ينتمون إلى العديد من المجموعات العرقية المختلفة مثل السوقديانيين، والباكتيريين، والفرس، والأتراك، والصينين، والمغول، وغيرهم. في الواقع، اختلط جميع السكان في العالم تقريباً على مرّ القرون مع الشعوب الأخرى: وهذه الحقيقة في حدّ ذاتها، أي حقيقة إمكانية خلط جيناتنا، تكشف أننا جميعاً ننتمي إلى نوعٍ واحد وأن الانقسامات التي نحاول وضعها بين بعضنا البعض مصطنعة إلى حدٍ ما. ففي نهاية المطاف، نحن جميعاً أحفاد أول البشر، وكلنا أسرة واحدة.

كان علي الجالس بجواري يضبط جلسته على المقعد. كانت أسماء المشاركين في الفيلم تتحرك عبر الشاشة، ولكن لم يكن أحدٌ مهتماً بمعرفة أصحاب الأدوار الثانوية. معظمنا نلعب أدواراً ثانوية في دراما الحياة الكبيرة ثم تُنسى أسمائنا في وقتٍ لاحق. وهذا ما قاله سليمان الحكيم: «لَيْسَ ذِكْرٌ لِلأَوَّلِينَ. وَالآخِرُونَ أَيْضًا الَّذِينَ سَيَكُونُونَ، لاَ يَكُونُ لَهُمْ ذِكْرٌ عِنْدَ الَّذِينَ يَكُونُونَ بَعْدَهُمْ.»٥٩ حاول سليمان الملك البحث عن معنى الحياة من خلال الثروة والمعرفة والمتعة وغيرها من الطرق، ولكنه أدرك في النهاية أن كل هذه الوسائل لا تغني. فمعنى الحياة الحقيقية لا يتعلق بأيٍ منها.

أشار سليمان إلى المخلوقات بصفتها «تحت الشمس»، ولكن لا شيء منها يحمل معنى في حدّ ذاته دون الإشارة إلى ذاك الواحد الذي يكمن وراء الشمس، أي الله. وفي النهاية، أدرك سليمان أن الحياة بدون الله لا معنى لها. فالله خلق كل واحدٍ منا لسببٍ ما وحياتنا تجد المعنى الحقيقي فقط عندما نكتشف ذلك الغرض.

مدّ علي يديه إلى حقيبته وأخرج تفاحتين وقدّم لي واحدة.

فأخذتها منه شاكراً.

فسألني علي مازحاً: «هل مسموحٌ لك أن تأكل الثمرة المحرمة؟»

«هل تقصد التفاح؟ في الواقع، لا تذكر لنا التوراة، أي أسفار موسى، أي نوع من الثمار كانت تطرحه شجرة معرفة الخير والشر. أعرفُ أن الصور عادةً ما تظهر أنها كانت شجرة تفاح، ولكن السبب في ذلك يعود إلى أن كلمة تفاح في اللاتينية malum تشبه كلمة شرّ أي malus. أما أنا فلن أندهش إذا كانت الثمرة المحرمة في الواقع عنقوداً من العنب الحلو!»

«لماذا تقول ذلك؟ هل لأن لدينا هذا العنب الرائع هنا في شينجيانغ؟»

لا، بل لأن التقاط حبة عنب من عنقودٍ كبير لا يمكن ملاحظته مثل تناول قضمة من تفاحة! كثيرون منا يبدأون الخطية هكذا، لأننا نعتقد أنها شيء صغير لن يُحدِث أي فرق.»

«مثل أول سيجارة دخنتها!»

«ربما، والآن ما نتيجة ذلك؟»

«عشرون سيجارة في اليوم ولا يمكنني أن أتوقف!»

«على الأقل أنت صادقٌ بخصوص ذلك!» قلتها مبتسماً.

بعد قليلٍ، عندما أشعل علي سيجارةً أخرى قررتُ أن أعود إلى هذا الموضوع وسألته: «هل ترغب في الإقلاع عن التدخين إذا كنت تستطيع؟»

فأخذ يفكر فى الأمر قليلاً ثم أجاب: «لستُ متأكداً. إنها عادة سيئة وأعلمُ أنها مضرة بصحتي، ولكني لا أتخيل حقاً الحياة بدون سجائر. يبدو أنني أحتاجها.»

فقلتُ له: «نعم، بنفس الطريقة كانت لديّ مشكلة مع الشوكولاتة!»

شعر علي بالارتياح. وابتسم قائلاً: «كنتُ أخشى أن تناقشني مثلما ناقشتَ ذلك المتسول طالباً مني ما أريده حقاً!»

«لقد فكرتُ في هذه المسألة بالفعل، تماماً مثلما سأل عيسى المسيح المقعد منذ ثمانٍ وثلاثين سنة: «أَتُرِيدُ أَنْ تَبْرَأَ؟»٦٠ أما في حالتك فمن الواضح أنك تعرف الإجابة مسبقاً!»

«على أي حالٍ، لا يذكر القرآن أو حتى الكتاب المقدس أي شيءٍ حول التدخين! وهذا ما أقوله للناس الذين يقولون لي إن التدخين حرام في رمضان!»

«هل تصوم؟»

«بقدر ما أستطيع، ولكنه صعبٌ. إنه صعبٌ جداً هنا في الصين. وعندما كنتُ طالباً كان أكثر صعوبة.»

«كيف؟»

«ذات مرةٍ جاءني أحد زملائي في المدرسة متسائلاً: «هل ترغب في مشاركتي تناول طعام الغداء؟» كان سؤالاً بسيطاً ولكنني كنتُ في مأزقٍ. فقلتُ له: أنا آسف، لستُ على ما يرام اليوم ولا أشعر بالرغبة في الأكل.» ولكن بعدها شعرتُ بالذنب حيال ذلك لأنني كذبتُ. ثم سألتُ نفسي «ما هو الذنب الأكبر: أن تكذب أم ألا تصوم؟» على الرغم من أنني تناولتُ طعامي في وقتٍ مبكر جداً من صباح ذلك اليوم، كنتُ جائعاً حقاً ولكن كنتُ أخشى الاعتراف بأنني صائم.»

فسألته: «لماذا لم ترد الاعتراف بالصوم إذاً؟» متلهفاً لسماع الإجابة.

«كنتُ أعرفُ أن بعض الطلاب طُرِدوا من المدرسة هنا في الصين لممارسة شعائرهم الدينية. المسألة صعبة لأنه من المفترض أن تتصرف مثل الشيوعي الصالح ولكن كل أقاربنا يقولون إن عليك أن تكون مسلماً صالحاً أيضاً.»

«إني أستوعبُ تلك المعضلة بشكلٍ ما ولكن لسببٍ مختلف. بالنسبة لي، يكون من الصعب أن أزور الناس ويدعونني لتناول الطعام أثناء صومي. لا أريدُ أن أقول لهم إني صائم لأن عيسى المسيح قال عندما نصوم ينبغي ألا نكشف هذا للآخرين.»

«لم أكن أعرف هذا! لماذا قال ذلك؟»

"لأن الناس في عصره كانوا يحبون أن يُظهِروا للآخرين مدى تقواهم! ولهذا قال عيسى المسيح: «وَمَتَى صُمْتُمْ فَلاَ تَكُونُوا عَابِسِينَ كَالْمُرَائِينَ، فَإِنَّهُمْ يُغَيِّرُونَ وُجُوهَهُمْ لِكَيْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ صَائِمِينَ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدِ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ. وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صُمْتَ فَادْهُنْ رَأْسَكَ وَاغْسِلْ وَجْهَكَ، لِكَيْ لاَ تَظْهَرَ لِلنَّاسِ صَائِمًا، بَلْ لأَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً.»٦١

"هل تصوم إذاً؟"

"في بعض الأحيان، وخصوصاً عندما يكون هناك شيءٌ خاص أريد الصلاة من أجله.»

"مثل ماذا؟"

«عندما يكون قلبي مثقلٌ بشيءٍ ماً وأكون مهتماً به. أعتقدُ أن أفضل الأمثلة على ذلك هي صومي وصلاتي من أجل طفليَّ أثناء فترة المراهقة عندما كانا يمران بفتراتٍ عصيبة.»

«كم من الوقت صمتَ؟»

«صمتُ لمدة عشرة أيام مرتين، ولكن عادةً ما تكون المدة أقصر من ذلك، ربما بضعة أيام أو نحو ذلك.»

«هل كنتَ تتناول الطعام في الليل كما نفعل نحن؟»

«لا، كنتُ أشرب الماء فقط.»

«عشرة أيام! ولكني أعتقدُ أن أتباع عيسى المسيح عندما يصومون فإنهم لا يصومون حقاً بل يمتنعون عن تناول اللحوم أو بعض الأطعمة.»

«هناك بعض الناس يفعلون ذلك، ولكن البعض الآخر يصومون أكثر بكثيرٍ مني، ربما لبضعة أسابيع فقط على الماء أو العصير.»

«لماذا تمتنع عن الطعام تماماً؟ فالله خلق الطعام بالتأكيد ويمنحه لنا. كما خلقنا بهذه الطريقة حتى نأكل ونشرب. فلماذا يطلب منا الامتناع عن ذلك؟»

«هذا سؤالٌ جيد جداً. أحد الأسباب هو مثال عيسى المسيح نفسه، فقد صام أربعين يوماً في البرية.»

«هذا يعني نحو ستة أسابيع! فهل تقصد أنه قضى هذه المدة دون أي طعامٍ على الإطلاق؟»

يقول الإنجيل: «وَلَمْ يَأْكُلْ شَيْئًا فِي تِلْكَ الأَيَّامِ. وَلَمَّا تَمَّتْ جَاعَ أَخِيرًا.» ٦٢ لا أعرفُ ماذا فعل بخصوص الشرب.»

«لا بدّ أنه كان يتضور جوعاً! أعتقدُ أنه أقام وليمةً كبيرة فيما بعد احتفالاً بذلك كما نفعل نحن في أمسيات رمضان.»

«في الواقع، كان إبليس يجربه لاستخدام سلطانه الروحي لإشباع جوعه من خلال معجزة تحويل الحجارة إلى خبز. ومع ذلك، قاوم هذه التجربة مع تجاربٍ أخرى باقتباسه من التوراة. في هذه الحالة، ردّ عيسى المسيح على إبليس قائلاً: «مَكْتُوبٌ: أَنْ لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ اللهِ».٦٣ هذا مثالٌ جيد بالنسبة لنا أيضاً عندما نواجه التجارب: من المفيد أن نعرف ما قاله الله بالفعل في الكتب المقدسة.»

«لقد ذكرتَ تلك الآية التي تقول إن الإنسان ينبغي أن يحيا بكل كلمةٍ تخرج من فم الله. ومع ذلك، كلما كنتُ أواجه التجارب والضيقات من الشيطان لم أفكر من قبل في اقتباس كلمات التوراة للشيطان! ربما يجب عليَّ المحاولة. ولكني لا أعتقد أن هذا

من شأنه أن يزيل شعوري بالجوع والعطش أثناء الصوم أو اشتياقي لتدخين سيجارة!»

«ربما عليك أن تحاول ذلك وترى ما يحدث! ولكن لماذا تصوم على أي حالٍ؟ ما الدافع الخاص وراء فعل ذلك؟»

«إلى حدٍ ما، أعتقدُ لأن الكثير من الآخرين يفعلون ذلك ولا أريد أن أكون مختلفاً. ولكني أفعل ذلك أيضاً لأن الله أوصانا بذلك.»

«هل تريد بصدقٍ أن تعمل مشيئة الله؟»

«بقدر استطاعتي، نعم.»

«هل تعرف ما يقوله إشعياء النبي عن معنى الصوم الحقيقي؟»

«لا. من هو إشعياء النبي؟»

«كان إشعياء من أنبياء الله وقد عاش قبل عيسى المسيح بحوالي ٧٠٠ سنة. في ذلك الوقت، مثل اليوم، كان كثيرٌ من الناس يصومون لأسبابٍ ودوافع خاطئة. كانوا يعتبرون الصوم واجباً دينياً يجب القيام به في أوقاتٍ معينة. ومع ذلك، لم يكونوا يحفظون وصايا الله الأخرى بخصوص رعاية الآخرين أو معاملتهم بالعدل. تكلم الله من خلال إشعياء النبي لشرح المعنى الحقيقي للصوم.» فتحتُ كتابي المقدس وقرأتُ الكلمات التالية:

«يَقُولُونَ: لِمَاذَا صُمْنَا وَلَمْ تَنْظُرْ،
ذَلَّلْنَا أَنْفُسَنَا وَلَمْ تُلاَحِظْ؟
هَا إِنَّكُمْ فِي يَوْمِ صَوْمِكُمْ تُوجِدُونَ مَسَرَّةً،
وَبِكُلِّ أَشْغَالِكُمْ تُسَخِّرُونَ.
هَا إِنَّكُمْ لِلْخُصُومَةِ وَالنِّزَاعِ تَصُومُونَ،
وَلِتَضْرِبُوا بِلَكْمَةِ الشَّرِّ.
لَسْتُمْ تَصُومُونَ كَمَا الْيَوْمَ لِتَسْمِيعِ صَوْتِكُمْ فِي الْعَلاَءِ.
أَمِثْلُ هذَا يَكُونُ صَوْمٌ أَخْتَارُهُ؟
يَوْمًا يُذَلِّلُ الإِنْسَانُ فِيهِ نَفْسَهُ، يُحْنِي كَالأَسَلَةِ رَأْسَهُ،
وَيَفْرُشُ تَحْتَهُ مِسْحًا وَرَمَادًا.
هَلْ تُسَمِّي هذَا صَوْمًا وَيَوْمًا مَقْبُولاً لِلرَّبِّ؟
أَلَيْسَ هذَا صَوْمًا أَخْتَارُهُ: حَلَّ قُيُودِ الشَّرِّ.
فَكَّ عُقَدِ النِّيرِ، وَإِطْلاَقَ الْمَسْحُوقِينَ أَحْرَارًا، وَقَطْعَ كُلِّ نِيرٍ.

أَلَيْسَ أَنْ تَكْسِرَ لِلْجَائِعِ خُبْزَكَ، وَأَنْ تُدْخِلَ الْمَسَاكِينَ التَّائِهِينَ إِلَى بَيْتِكَ؟
إِذَا رَأَيْتَ عُرْيَانًا أَنْ تَكْسُوهُ، وَأَنْ لاَ تَتَغَاضَى عَنْ لَحْمِكَ؟» ٦٤

«كان إشعياء النبي يعتبر أن الصوم الحقيقي ليس مجرد ممارسة خارجية للطقوس بل بالأحرى تعبير عن علاقة الإنسان مع الله. هذه العلاقة يتم التعبير عنها أيضاً في طريقة تعاملنا مع الآخرين. فالامتناع عن الأكل لممارسة واجب ديني لا معنى له إذا كنا في الوقت نفسه نتشاجر ونتقاتل فيما بيننا ولا نساعد الفقراء والمظلومين. ماذا كان سيقول إشعياء اليوم عن أولئك الذين يبدو أنهم متدينين ويحفظون أوقات الصوم ولكنهم يأخذون الرشوة ويعرقلون سير العدالة الحقيقية؟»

فأجاب علي: «صحيحٌ جداً! بعض الناس هنا بحاجة للتعرف إلى إشعياء النبي!»

«قال إشعياء النبي إن الصوم لا معنى له إذا كنا لا نهتم بالناس. وهذا يشبه تعليم عيسى المسيح عندما سُئل عن الوصية الأعظم. فأجاب: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ. هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى وَالْعُظْمَى. وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. بِهَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ يَتَعَلَّقُ النَّامُوسُ كُلُّهُ وَالأَنْبِيَاءُ».٦٥ إذاً الصوم ليس غايةً في حدّ ذاته بل وسيلة لتحقيق غاية: مساعدتنا على معرفة الله بصورة أفضل.»

«ولكني ما زلتُ لا أفهم لماذا يجب علينا الامتناع عن الطعام الذي خلقه الله كي نأكله.»

«ربما يمكننا التأمل في طبيعة الصوم عندما نفكر في الأوقات التي لا نريد فيها أن نأكل بطبيعة الحال. في كثيرٍ من الأحيان، يصوم الثكالى والمنتحبون بصورة طبيعية لأنهم يفقدون شهيتهم للطعام. في مثل هذه الظروف، يعبّر الصوم عن مشاعر الحزن. وبنفس الطريقة، يمكن أن يكون الصوم تعبيراً عن حزننا على خطايانا ورغبتنا في التوبة. إذا كنا نعتبر الصوم شكلاً من أشكال الحزن، يمكننا أن نفهم لماذا يمكن أن يكون عوناً للصلاة الصادقة من أجل التوبة.»

«ولكن ماذا لو لم تكن لديّ مثل هذه الخطايا التي يجب أن أحزن عليها؟ إذا كان عيسى المسيح بلا خطية، فبالتأكيد لم يكن يحزن على خطاياه أو يتوب عندما صام.»

«أنت محقٌ في قولك بأن عيسى المسيح كان بلا خطية. في الواقع، كان هو الوحيد الذي بلا خطية. ولكني أعتقد أنه عندما صام ربما كان يتهيأ للدخول إلى نوعٍ آخر من الحزن أكبر من الحزن على خطايانا. إنه حزن الأب الذي يبكي ويشجن على الابن الخاطئ. فالأب يحب الابن لدرجة أنه يحزن عندما يرى الابن يختار الخيارات الخاطئة في الحياة باستمرار. من الممكن أن يأخذ الصوم هذا الشكل من الحزن أيضاً.»

«هل تعني أن الله أيضاً يشعر تجاهنا مثلما يشعر الأب تجاه الابن؟»

«الله أعظم بكثيرٍ مما نعتقد. فإذا كنا نشعر بهذا النوع من العاطفة لأن الله خلقنا هكذا، فإن الله يمكنه أيضاً أن يتشارك مثل هذه المشاعر. على سبيل المثال، تخيل الحزن الذي شعر به والدا صبي عمره ستة عشر عاماً في داغستان، أي في منطقة القوقاز في الاتحاد الروسي. هرب هذا الصبي من البيت واندمج مع مجموعةٍ من الأصدقاء في سان بطرسبرج كانوا يتعاطون المخدرات. وسرعان ما أدمن المخدرات ثم بدأ السرقة لتغطية نفقات المخدرات. وُضِعَ في السجن مرتين لكنه عاد مرةً أخرى لطريقته القديمة في الحياة، أي تعاطي المخدرات والسرقة. ثم تدهورت حالته الصحية حيث أصيب في الكبد والكلى. ثم أصيبت قدماه فلم يستطع المشي. وكان ينام لمدة أسبوعين دون طعامٍ على بعض المواسير فوق سطح أحد المباني. وهناك بدأ الصلاة: «يا الله، لو كنتَ موجوداً، فساعدني.»

«في ذلك الوقت، حرك الله قلوب بعض الأتقياء الذين شعروا بأن الله كان يخبرهم بالصعود ناحية ذلك السقف، وهناك وجدوا ذلك الرجل. فأخذوه إلى مركز إعادة تأهيل مدمني المخدرات وفي الوقت المناسب تحرّر من الإدمان، ليس عن طريق الأدوية أو مساعدة الأطباء ولكن من خلال صلوات ومحبة شعب الله. استرد صحته وحصل على وظيفة وبدأ يعيش حياةً طبيعية. طوال تلك الفترة لم يعد قط إلى والديه في ماخاتشكالا بداغستان. ولكن بعد كل هذه التغييرات في حياته كان يشعر أن الله يريده أن يرجع ويتصالح مع والديه. فهل تتصور كيف شعروا عندما رأوا ابنهم المفقود هذا؟»

«كيف عرفتَ هذا؟ هل قابلتَ هؤلاء الناس؟»

«لقد روى لي الابن نفسه هذه القصة عندما كنتُ في داغستان. ومع ذلك، فإن الله يحمل نفس الشعور تجاهنا. فنحن مثل الأطفال الضالين منذ فترةٍ طويلة ولكن الله ينتظر عودتنا إليه واكتشاف فرحة العلاقة المستعادة.»

«كيف نفعل ذلك؟ كيف يمكن استعادة علاقتنا مع الله؟»

«اسمح لي أن أحكي لك عن ابنٍ آخر. هذه القصة رواها عيسى المسيح لتوضيح المشاعر التي يحملها الله لنا عندما نعود إليه في توبةٍ حقيقية بعد فترةٍ طويلة من الضلال:

«إِنْسَانٌ كَانَ لَهُ ابْنَانِ. فَقَالَ أَصْغَرُهُمَا لأَبِيهِ: يَا أَبِي أَعْطِنِي الْقِسْمَ الَّذِي يُصِيبُنِي مِنَ الْمَالِ. فَقَسَمَ لَهُمَا مَعِيشَتَهُ.

وَبَعْدَ أَيَّامٍ لَيْسَتْ بِكَثِيرَةٍ جَمَعَ الابْنُ الأَصْغَرُ كُلَّ شَيْءٍ وَسَافَرَ إِلَى كُورَةٍ بَعِيدَةٍ، وَهُنَاكَ بَذَّرَ مَالَهُ بِعَيْشٍ مُسْرِفٍ. فَلَمَّا أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ، حَدَثَ جُوعٌ شَدِيدٌ فِي تِلْكَ الْكُورَةِ، فَابْتَدَأَ يَحْتَاجُ. فَمَضَى وَالْتَصَقَ بِوَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْكُورَةِ، فَأَرْسَلَهُ

إِلَى حُقُولِهِ لِيَرْعَى خَنَازِيرَ. وَكَانَ يَشْتَهِي أَنْ يَمْلأَ بَطْنَهُ مِنَ الْخُرْنُوبِ الَّذِي كَانَتِ الْخَنَازِيرُ تَأْكُلُهُ، فَلَمْ يُعْطِهِ أَحَدٌ.

فَرَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَقَالَ: كَمْ مِنْ أَجِيرٍ لأَبِي يَفْضُلُ عَنْهُ الْخُبْزُ وَأَنَا أَهْلِكُ جُوعًا! أَقُومُ وَأَذْهَبُ إِلَى أَبِي وَأَقُولُ لَهُ: يَا أَبِي، أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ، وَلَسْتُ مُسْتَحِقًّا بَعْدُ أَنْ أُدْعَى لَكَ ابْنًا. اِجْعَلْنِي كَأَحَدِ أَجْرَاكَ. فَقَامَ وَجَاءَ إِلَى أَبِيهِ.

وَإِذْ كَانَ لَمْ يَزَلْ بَعِيدًا رَآهُ أَبُوهُ، فَتَحَنَّنَ وَرَكَضَ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ.

فَقَالَ لَهُ الابْنُ: يَا أَبِي، أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ، وَلَسْتُ مُسْتَحِقًّا بَعْدُ أَنْ أُدْعَى لَكَ ابْنًا.

فَقَالَ الأَبُ لِعَبِيدِهِ: أَخْرِجُوا الْحُلَّةَ الأُولَى وَأَلْبِسُوهُ، وَاجْعَلُوا خَاتَمًا فِي يَدِهِ، وَحِذَاءً فِي رِجْلَيْهِ، وَقَدِّمُوا الْعِجْلَ الْمُسَمَّنَ وَاذْبَحُوهُ فَنَأْكُلَ وَنَفْرَحَ، لأَنَّ ابْنِي هذَا كَانَ مَيِّتًا فَعَاشَ، وَكَانَ ضَالاًّ فَوُجِدَ. فَابْتَدَأُوا يَفْرَحُونَ.

وَكَانَ ابْنُهُ الأَكْبَرُ فِي الْحَقْلِ. فَلَمَّا جَاءَ وَقَرُبَ مِنَ الْبَيْتِ، سَمِعَ صَوْتَ آلاَتِ طَرَبٍ وَرَقْصًا. فَدَعَا وَاحِدًا مِنَ الْغِلْمَانِ وَسَأَلَهُ: مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ هذَا؟ فَقَالَ لَهُ: أَخُوكَ جَاءَ فَذَبَحَ أَبُوكَ الْعِجْلَ الْمُسَمَّنَ، لأَنَّهُ قَبِلَهُ سَالِمًا.

فَغَضِبَ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَدْخُلَ. فَخَرَجَ أَبُوهُ يَطْلُبُ إِلَيْهِ. فَأَجَابَ وَقَالَ لأَبِيهِ: هَا أَنَا أَخْدِمُكَ سِنِينَ هذَا عَدَدُهَا، وَقَطُّ لَمْ أَتَجَاوَزْ وَصِيَّتَكَ، وَجَدْيًا لَمْ تُعْطِنِي قَطُّ لأَفْرَحَ مَعَ أَصْدِقَائِي. وَلكِنْ لَمَّا جَاءَ ابْنُكَ هذَا الَّذِي أَكَلَ مَعِيشَتَكَ مَعَ الزَّوَانِي، ذَبَحْتَ لَهُ الْعِجْلَ الْمُسَمَّنَ!

فَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ أَنْتَ مَعِي فِي كُلِّ حِينٍ، وَكُلُّ مَا لِي فَهُوَ لَكَ. وَلكِنْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ نَفْرَحَ وَنُسَرَّ، لأَنَّ أَخَاكَ هذَا كَانَ مَيِّتًا فَعَاشَ، وَكَانَ ضَالاًّ فَوُجِدَ».٦٦

توقفتُ عن القراءة من الإنجيل. فتطلّع علي في وجهي قائلاً: «استمر في القراءة.»

فأجبته: «هذه نهاية القصة.»

«ولكن لماذا انتهت هكذا؟ ماذا حدث بعد ذلك؟»

«ما رأيك؟ روى عيسى المسيح هذه القصة لأنه كان مثار انتقاد الزعماء الدينيين الذين كانوا يعتقدون أنه يخالط «الخطاة».

«مثل جلوسك مع متسولٍ في الشارع؟»

«ربما شيءٌ من هذا القبيل، ولكن عيسى المسيح كان يخالط أولئك المنحدرين في الخطية بكافة أشكالها. وقد حكى هذه القصة لأن موقف الأخ الأكبر في القصة هو نفس موقف الكثير من المتدينين الذين يعملون كل شيءٍ يعتقدون أن الله يريده،

بما في ذلك الصوم في أوقاتٍ مقررة. ومع ذلك، فهم لا يفهمون مدى حزن الله على الضالين.»

«لم يخطر على بالي من قبل أن الله يمكن أن يحزن.»

«نعم، الله يمكن أن يحزن. تقول التوراة:

«وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شِرِّيرٌ كُلَّ يَوْمٍ. فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الإِنْسَانَ فِي الأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ.»٦٧

فاعترضني علي: «الله: يتأسف؟ هل يمكن أن يتأسف الله؟ من الصعب قبول هذا.»

«هذا ما تقوله التوراة! هذه هي الأسفار المقدسة التي دونها موسى النبي. الله يحزن ويشعر بالأسف بسبب خطايانا وشرنا.»

فقال علي: «في هذه الحالة، فكر في مدى حزن الله على خطايا العالم كله.»

"بالتأكيد. فكما يريد الآباء أن تكون لهم علاقة حب وثيقة مع أطفالهم، هكذا خلق الله البشر حتى نتمكن من معرفته بطريقةٍ خاصة.»

«عندما نصوم نشعر أيضاً بالمشقة وآلام الجوع. وبالتالي من خلال الصوم يمكننا أيضاً مشاركة الله في آلامه. وإذا كنا نصوم نيابةً عن شخصٍ آخر ونحزن على خطيته بالصلاة من أجله، فنحن إنما نختبر بشكلٍ ما ذلك النوع من الألم الذي يشعر به الله في قلبه بينما يحزن على خطية الجنس البشري وتمرده.»

كان علي يفكر في هذا الأمر ثم تساءل: «هل هذا هو المعنى الوحيد للصوم؟»

"لا، هناك معانٍ أبعد من ذلك. فأثناء الصوم ندرك أن القيم الروحية أهم بكثيرٍ من الأشياء الأرضية المادية أي الطعام والشراب. فالطعام والشراب أمورٌ مهمة وهبها الله من أجل حياتنا. ومع ذلك، عندما نصوم فإننا نمتنع طوعاً عن شيءٍ جيد من أجل ما هو أفضل. وفي سياق ذلك نختبر الألم طواعيةً كي نجلب المنفعة للآخرين.»

فتساءل علي: «كيف يمكن أن يستفيد الآخرون من آلامنا؟ هذا لا يمثل أي معنى بالنسبة لي.»

«كل شيءٍ ينطوي على ضريبةٍ. فإذا كنا نريد شيئاً فعلينا أن نعمل لذلك. أو يمكن القول إننا نعاني حتى نتمكن من الحصول على شيءٍ أفضل. على سبيل المثال، الأم في عملية الولادة تعاني لا من أجل نفسها ولكن من أجل الطفل. وهذا يوضح مبدأً روحياً مهماً حول التضحية بشيءٍ جيد من أجل ما هو أفضل. وبهذه الطريقة، يعبّر الصوم عن شيءٍ قريب من قلب الله. مكتوبٌ في الإنجيل:

«لاَ شَيْئًا بِتَحَزُّبٍ أَوْ بِعُجْبٍ، بَلْ بِتَوَاضُعٍ، حَاسِبِينَ بَعْضُكُمُ الْبَعْضَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

لاَ تَنْظُرُوا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لِنَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لآخَرِينَ أَيْضًا.

فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضًا:

الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ،

لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً لِلهِ.

لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ،

صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ.

وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ،

وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ.»٦٨

«هكذا فعل عيسى المسيح شيئاً ما جسَّد روح الصوم. فقد ترك السماء طوعاً وجاء الأرض وصار إنساناً. واجتاز المعاناة حتى قُدِّم إلى الموت على الصليب. ومع ذلك فعل هذا لأجلنا حتى ننال الحياة الأبدية في السماء. تخلّى عيسى المسيح عما هو جيد، أي حياته مع الله في السماء، كي يشاركنا فرصة الحياة في السماء.»

«هل تقصد أن الصوم هو التخلّي طوعاً عن شيءٍ ما وهبه الله إيانا من أجل شيءٍ أفضل؟»

"نعم، وقد عانى عيسى المسيح أكثر منا بكثيرٍ عندما نصوم. يبدو أنه عاش حياته كلها بروح التواضع وإنكار الذات التي هي جوهر الصوم. ففي موت عيسى المسيح نيابةً عنا، كان يعاني طواعيةً من أجل الآخرين. تخلّى عما هو جيد من أجل ما هو أفضل أي خلاص نفوسنا. وبهذا يوضح عيسى المسيح المعنى الحقيقي للصوم.

ومع ذلك، لم ينتهِ الأمر بالموت على الصليب! فالله أقام عيسى المسيح ورفعه إلى أعلى مكانةٍ عن يمين الله في السماء. وهو الآن يدعونا للانضمام إليه في احتفالٍ في السماء. وهو مثل الاحتفال في قصة الابن الضال. فقد احتفلوا بالعلاقة المستعادة. إذا فهمنا المعنى الحقيقي للصوم بصفته تحوّلاً من خطايانا وإنكار أنفسنا، يمكننا أيضاً أن نشارك عيسى المسيح في احتفال الله في السماء.»

الفصل 3

كازاخستان: عندما يتكلم الله

رغم أن جبال تيان شان تُعدّ من الحدود الجغرافية والسياسية، كان يبدو لي أن الحدود الثقافية لا تحظى بأهميةٍ كبيرة. بالتأكيد هناك تغيير من الكتابة العربية والصينية إلى أبجدية القديس كيرلس، كما أن النفوذ الروسي السابق في ألماتي يضفي على المنطقة الطابع ‹الأوروبي›. ومع ذلك، أشعر أنه بين شعوب اليوغور، والكازاخ، والقرغيز، وغيرها من شعوب آسيا الوسطى تشكّل جبال تيان شان اختلافاً بين الأحمر والوردي أكبر من ذلك الاختلاف بين الأحمر والأزرق.

لم يسافر علي معي حتى الحدود لأنه كان يريد الوصول إلى ينينغ في وادي إيلي. فسافرتُ بمفردي في حافلةٍ أخرى ذاهبةً إلى كازاخستان. وفيما وصلتُ ألماتي، أبهرتني من جديدٍ المساحات الخضراء الشاسعة في المدينة، حيث كانت الطرق تصطف على جانبيها الأشجار وتوفر الكثير من الظلّ من أشعة الشمس الحارة. يبدو أن المدينة تتغير في كل مرةٍ أزورها، وهي الآن مثل فراشة مقارنةً بما كانت عليه في مرحلة «الشرنقة» عندما رأيتها لأول مرة في عام ١٩٩٠.

عدتُ إلى ألماتي عدة مراتٍ منذ ذلك الحين وكوّنتُ صداقات مع عددٍ غير قليل من الكازاخ واليوغور وغيرهم ممن يعيشون في المدينة. في بعض الأحيان كنتُ أحضر المؤتمرات الأكاديمية والفعاليات الأخرى التي تُناقش فيها موضوعات دينية وثقافية. كانت هذه الاجتماعات تتيح الفرص للقاء ممثلي مختلف الديانات المختلفة بما في ذلك المسلمين والمسيحيين وحتى الهندوس. كان أحد الناس الذين التقيتهم من قادة المسلمين وكان عميد معهد إسلامي. واحتراماً لخصوصيته، فسوف أدعوه باسمٍ مستعار وهو «شامل» بدلاً من اسمه الحقيقي.

بعد عودتي إلى ألماتي، كنتُ مهتماً باللقاء مرةً أخرى مع شامل. وكان الدافع وراء ذلك مجرد الحفاظ على التواصل والتعرف إليه بشكلٍ أفضل بصفته أحد أصدقائي. وقد وجدتُ رقم هاتفه فاتصلتُ به.

«مرحباً، هل يمكنني الحديث إلى شامل؟» تساءلتُ باللغة الروسية.

«أنا شامل. من يتكلم؟»

«أنا ديفيد. هل تذكر لقائنا في مؤتمر عام ٢٠٠١؟»

«ديفيد؟ نعم، ديفيد! أنت الذي لا تصلي للأيقونات أو لمريم العذراء! يسرني سماع صوتك من جديدٍ.»

لم أكن أتوقع أن يصفني أحدٌ بهذا الشكل! وفي لحظاتٍ تذكرتُ تعليقه في المؤتمر عندما قال في حواره مع اثنين من قسوس الكازاخ إن لديهما من الأمور المشتركة أكثر مما كان يعتقد. وفي وقتٍ سابق كنتُ قد سمعتُ شامل يقول لرجلٍ آخر إن الناس يجب أن لا يصلّوا للأيقونات أو لمريم العذراء لأن هذا يشبه عبادة الأصنام. وقد اندهش عندما وجد أن أتباع عيسى المسيح يتفقون معه ولا يفعلون مثل هذه الأشياء. وهكذا فهم شامل واحترم إيمان هؤلاء الناس الذين يريدون علاقةً مباشرة وبسيطة مع الله كما يحبون عيسى المسيح.

"لقد عدتُ إلى ألماتي مرةً أخرى. هل هناك أي فرصةٍ في لقائك؟»

"نعم، بالطبع! سيكون هذا من دواعي سروري! أين تقيم؟»

أعطيته التفاصيل ورتبنا للقاء. جاء شقيق شامل للقائي أيضاً ثم ذهبنا معاً إلى بيتهما وقاما بضيافتي حسب أصول كرمهما. أخبرتني زوجته أنها من شعب الإنغوش، من شمال القوقاز. فاستنتجتُ أنها كانت من سلالة أولئك الذين تم ترحيلهم من شمال القوقاز إلى آسيا الوسطى بأوامر ستالين.

بعد حديثنا عن أشياءٍ كثيرة، أثار شقيق شامل فجأة سؤالاً دينياً. فاتفقتُ معه على أن هناك إلهاً واحداً، وأنه ينبغي علينا أن نعبده وحده. ومع ذلك، بدأ الأخ يصرّ على أن أشهد أنه «لا إله إلا الله» وأقولها باللغة العربية.

فقلتُ له: «ولكني لا أتحدث العربية.»

فقال: «هذا لا يهم. كرّر الكلمات بعدي...»

«ولكن إذا كنتُ لا أفهم اللغة ولم تكن هذه الكلمات تشكّل أي معنىٍ بالنسبة لي، فلا أستطيع أن أقولها بصدقٍ من القلب. الله يفهم كل اللغات، وليس فقط العربية، وكي نتكلم مع الله علينا أن نتكلم بصدقٍ. إنها ليست وصفة سحرية!»

وهنا تدخل شامل قائلاً: «أنا آسف. لقد كنا نعاملك مثل فلاحٍ من القرية! بالطبع أنت على حقٍ: يجب أن تكون الكلمات صادقةً ومن القلب. يؤسفني أن أخي كان متحمساً أكثر من اللزوم!»

في وقتٍ لاحق من ذلك المساء رافقني شامل وشقيقه إلى مكان إقامتي ثم افترقنا. كنتُ مسروراً للقائنا من جديد. ومع ذلك، شعرتُ أننا تحدثنا كثيراً عن الأفكار والعقائد ولم تكن هناك فرصة كي أسأله حول تجربته الشخصية عن قوة الله. بطبيعة الحال، من المهم أن نؤمن بالحقائق الصحيحة عن الله ولكن الأهم أن تكون لدينا تجربة شخصية عن وجود الله وقوته العاملة في حياتنا.

بعض الناس يحبون مناقشة الكثير من الأفكار حول الله بالتفصيل الممل حتى يبدو أن المناقشات تتشكل على هيئة دوائر! إلى حدٍ ما، قد يبدو أن المسألة متعلقة بالعثور على الكلمات المناسبة. تعكس لغاتنا البشرية التجربة الإنسانية. ولكن كيف يمكن أن نتحدث عن الأمور السماوية أو الروحية بكلمات بناءً على خبرتنا في هذا العالم؟ الله أعظم بمراحل من مستوى فهمنا أو التعبير بالكلمات. فعندما تعجز الكلمات، قد نحاول التعبير عن مشاعرنا عن الله من خلال الموسيقى أو الفن، ولكن هذه أيضاً انعكاسات ضعيفة للحقيقة التي لا يمكن أن ننقلها بتعبيراتٍ بشرية.

بدلاً من المناقشة المطولة حول طبيعة الله، أحياناً ما نحتاج ببساطة أن نطلب من الله نفسه أن يرينا حقه أو سلطانه. على سبيل المثال، عندما كنتُ في قازان جاءني رجلٌ تتاري اسمه قربانغالي وسألني سؤالاً. كان يريد أن يعرف الطريقة الصحيحة لمعرفة الله. كان قربانغالي يقرأ الإنجيل ولكنه لم يكن متأكداً ما إذا كان ينبغي عليه أن يتبع عيسى المسيح.

في هذه الحالة، شعرتُ أن قربانغالي لم يكن بحاجة لسماع المزيد من الكلمات من أي إنسانٍ. ولذلك عرضتُ عليه أن أصلي معه كي نطلب من الله أن يريه الحق بخصوص حالته الروحية. كان قربانغالي صامتاً فيما كنتُ أصلي إلى الله وأدعو الروح القدس كي يحلّ على قربانغالي ويكشف له الحق.

وفجأة نظر لي قربانغالي قائلاً: «هل كنتَ تسحرني؟!»

«لا. لماذا تقول ذلك؟»

«أثناء صلاتك، شعرتُ بكيانٍ أسود رهيب على كتفي رفعني فجأة وذهب بعيداً.»

«لم أكن أسحرك. لأنني لم أُلمّح لك بحدوث أي شيءٍ مثل هذا. ومع ذلك، كان هناك روحٌ شرير عليك أصبحتَ على درايةٍ به، وقد رحل عنك عندما دعوتُ روح الله القدوس.»

فقال قربانغالي متفكراً: «نعم!»

«كما أن هذه علامة عن قوة الله. لم تكن المسألة متعلقة بخيالك لأنني أعرف بعض الناس الذين مرّوا بنفس التجربة عندما كنتُ أصلي من أجل يخرج منهم أحد الشياطين.»

بعد ذلك أخبرتُ قربانغالي عن امرأةٍ روسية قالت لي إنها كثيراً ما ترى كوابيس. وعندما سألتها عن المرة الأولى التي حدث فيها ذلك، قالت إنه كان بعد أن شاهدت على شاشة التلفزيون ساحراً اسمه فلاديمير كاشبيروفسكي. في هذه الظروف، كان من الواضح أن روحاً شريراً يُسبّب لها الكوابيس، وباسم وسلطان عيسى المسيح أمرتُ الروح الشرير أن يتركها. وقد شعرتْ هي أيضاً بشيءٍ ثقيل يتركها. وفي وقتٍ لاحق قالت لي إن الكوابيس توقفت منذ ذلك الحين.

ليست كل الأحلام المزعجة تأتي بالضرورة من الشياطين. في بعض الأحيان قد تكون بسبب الضمير المضطرب. وربما يكون هذا ما حدث مع رجلٍ من التتار اسمه إلجيز طلب مني ذات مرةٍ الصلاة لمواجهة أحلامه الشريرة. صلينا معاً وطلب من الله أن يغفر ذنوبه. كما دعا إلجيز عيسى المسيح رباً مخلصاً. ومنذ ذلك الوقت، أصبح نومه أهدأ وأعمق.

ومع ذلك، تأتي بعض الأحلام بوضوحٍ من الله. وغالباً ما تكون على هيئة قصةٍ، وعلينا أن نفكر في معانيها الخفية. بنفس الطريقة، كان عيسى المسيح يروي بعض القصص عن أحداثٍ عادية لكنها كانت تحمل رسالةً روحية عميقة. في المعتاد، كان مستمعوه عليهم أن يفكروا في القصص ويفهموا بأنفسهم الرسالة الداخلية.

كثيراً ما يتحدث إلينا الله في أحلامنا عن حالتنا الروحية. قد يرينا على شكل صورةٍ شيئاً ما عن حالة نفوسنا أو عن علاقتنا مع الله. على سبيل المثال، حكى لي رجلٌ منغولي عن حلمٍ كان يراه في فتراتٍ منتظمة، حيث كان يبحث في السهوب عن ينبوع ماءٍ ولكن بلا جدوى. في هذه الحالة، أعتقدُ أن الله كان يقول له إن حياته الروحية جافة وإنه كان يبحث عن الماء الروحي. كان عيسى المسيح يتحدث عن هذا الماء الروحي عندما قال: «وَلكِنْ مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الأَبَدِ، بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ.»٦٩ وقال أيضاً: «إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ. مَنْ آمَنَ بِي، كَمَا قَالَ الْكِتَابُ، تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ». قَالَ هذَا عَنِ الرُّوحِ الَّذِي كَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مُزْمِعِينَ أَنْ يَقْبَلُوهُ.»٧٠

قد يحذرنا الله أحياناً بخصوص ما سيحدث في المستقبل هنا في هذا العالم. في هذه الحالة نحتاج أن نصلي إلى الله من أجل حمايتنا، وإلا سنضطر للقيام بالتحضير العملي استعداداً لما سيحدث. في التوراة نقرأ كيف حذر الله فرعون مصر في حلمٍ عن مجاعةٍ في المستقبل.٧١ ومن خلال يوسف شرح الله معنى الحلم، ولكن يوسف أيضاً قدم المشورة الحكيمة حول كيفية الاستعداد لمواجهة المجاعة عن طريق تخزين الحبوب مقدماً. وقد منحهم الله الوقت الكافي للتصرف بخصوص ما سيحدث في المستقبل. الأمر نفسه يحدث معنا: إذا حذرنا الله، يقع على عاتقنا عبء المسؤولية.

الأمر نفسه عندما يتكلم الله لنا من خلال أحلامنا: علينا مسؤولية القيام بشيءٍ ما حيال ذلك. ربما نكون بحاجة إلى الابتعاد عن خطيةٍ ما في حياتنا أو عمل شيء إيجابي. كان أحد الذين لم يهتموا بالأحلام الحاكم الروماني بيلاطس البنطي الذي جلب إليه اليهود عيسى المسيح طالبين إعدامه. «وَإِذْ كَانَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ الْوِلاَيَةِ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ امْرَأَتُهُ قَائِلَةً: «إِيَّاكَ وَذلِكَ الْبَارَّ، لأَنِّي تَأَلَّمْتُ الْيَوْمَ كَثِيرًا فِي حُلْمٍ مِنْ أَجْلِهِ».٧٢

إلى حدٍ ما، حدث شيءٌ من هذا القبيل لامرأة أوزبكية كانت قد وبخت ابنتها كثيراً لحضورها اجتماع لأتباع عيسى المسيح. ثم رأت الأم في المنام ملاكاً طائراً إليها قائلاً: «لماذا كنتِ توبخين ابنتك لذهابها الكنيسة؟» وعند استيقاظها من النوم، طلبت الأم من ابنتها أن تسامحها.

وفي مناسبةٍ أخرى رأت هذه المرأة الأوزبكية نفسها في حلمٍ شيئاً ما مثل السماء. وقد روى لي ابنها هذا الحلم، قائلاً إن أمه «رأت نوراً ساطعاً وأرادت أن تسير في هذا الطريق. كان المشهد جميلاً جداً وكانت تريد أن تذهب إلى هناك ولكن بعد ذلك سمعت صوتاً يقول: «لم يحن الوقت بعد»، ثم استيقظت. وبعد ذلك، أدركتْ المرأة مدى روعة السماء.»

أحياناً ما يتضح مغزى الحلم في وقتٍ لاحق. على سبيل المثال، رأت امرأة من اليوغور في كازاخستان وجه رجل في المنام ولكنها لم تكن تعرف من هو الرجل. وبعد شهرٍ أو شهرين التقت ذلك الرجل نفسه في الواقع. وقد اتضح أنه كان من رجال الله الأتقياء الذين يحبون عيسى المسيح ويتبعونه، وكان أيضاً يتحدث اللغة اليوغورية. ونتيجة ذلك، أصبحت هذه المرأة اليوغورية على علاقةٍ أعمق وأكثر صدقاً مع الله.

من الممكن أن يتحدث إلينا الله أيضاً من خلال الأحلام كي يكشف لنا المزيد عن نفسه. سمعتُ إحدى القصص التي تدل على ذلك من صديقةٍ من الكازاخ اسمها كارليغاش عندما زرتها هي وزوجها في منزلهما. كان اسمها في الكازاخية يعني السنونو. وفيما رأيتُ شعرها الطويل منساباً على ظهرها على هيئة ضفيرتين، تذكرتُ ضفيرة طائر السنونو المتفرعة. ومثل الطيور، كانت عادة الشعب الكازاخي الهجرة من مراعي الصيف إلى مراعي الشتاء. وكنتُ أشعر أيضاً أنني مثل البدو في رحلاتي.

روت لي كارليغاش القصة التالية حول بعض الأحلام التي رأتها:

«ذات ليلةٍ رأيتُ حلماً وإذ بحشدٍ من الناس منشغلين بأمور حياتهم: الأكل، والشرب، والزواج، وهكذا. ومع ذلك، كنتُ أرى من موقع المراقبة بداية عاصفة عاتية على وشك اكتساح هؤلاء الناس الذين لم يكونوا يعرفون تماماً خطورة الموقف. فحاولتُ تحذيرهم لكنهم تجاهلوني واستمروا في أعمالهم.

ثم تغير المشهد. وجدتُ نفسي واقفةً على شاطئ [بحيرة أو بحر] وأنظر إلى القمر في سماء المنطقة. ومع ذلك، كان لون القمر يبدو كما لو كان مغطى بالدماء. ثم بدأ وجه القمر يصفو بالتدريج ويكشف بعض الكلمات المكتوبة على سطح القمر. كانت الكلمات تقول:

«أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ.

لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ.

لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ.

خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ.

وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضًا لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا.

وَلاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ، لكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ.»

استيقظت كارليغاش متعجبةً من هذا الحلم ومعناه. وفي الليلة التالية رأت الحلم نفسه بالضبط. ثم تكرر مرةً أخرى في الليلة الثالثة. وبحلول ذلك الوقت كانت كارليغاش قد عرفت كلمات الصلاة التي رأتها في الحلم مكتوبةً على وجه القمر.

فبدأت تصلي هذه الصلاة ولكنها تساءلت عن مصدرها. بحثت في الكتب في إحدى المكتبات للعثور على هذه الصلاة ولكن لم تجدها. وفي نهاية المطاف صادفت كتاب الإنجيل وعلمت أن هذه هي الصلاة التي كان عيسى المسيح يعلمها لأتباعه.٧٣

عندما قرأتْ الإنجيل لاحظتْ أيضاً أنه كشف تفاصيل أخرى من حلمها. على سبيل المثال، قال عيسى المسيح في حديثه عن مجيئه مرة أخرى لدينونة هذا العالم:

«كَمَا كَانَ فِي أَيَّامِ نُوحٍ كَذلِكَ يَكُونُ أَيْضًا فِي أَيَّامِ ابْنِ الإِنْسَانِ: كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيُزَوِّجُونَ وَيَتَزَوَّجُونَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ دَخَلَ نُوحٌ الْفُلْكَ، وَجَاءَ الطُّوفَانُ وَأَهْلَكَ الْجَمِيعَ.

كَذلِكَ أَيْضًا كَمَا كَانَ فِي أَيَّامِ لُوطٍ: كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيَشْتَرُونَ وَيَبِيعُونَ، وَيَغْرِسُونَ وَيَبْنُونَ. وَلكِنَّ الْيَوْمَ الَّذِي فِيهِ خَرَجَ لُوطٌ مِنْ سَدُومَ، أَمْطَرَ نَارًا وَكِبْرِيتًا مِنَ السَّمَاءِ فَأَهْلَكَ الْجَمِيعَ. هكَذَا يَكُونُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ يُظْهَرُ ابْنُ الإِنْسَانِ.»٧٤

أما القمر الذي كان يغطيه الدم فيتضح معناه عندما نقرأ النبوة التي قدمها الله إلى يوئيل النبي:

«وَأُعْطِي عَجَائِبَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ،
دَمًا وَنَارًا وَأَعْمِدَةَ دُخَانٍ.
تَتَحَوَّلُ الشَّمْسُ إِلَى ظُلْمَةٍ،
وَالْقَمَرُ إِلَى دَمٍ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ يَوْمُ الرَّبِّ الْعَظِيمُ الْمَخُوفُ.
وَيَكُونُ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ يَنْجُو...»٧٥

قبل هذه الكلمات مباشرةً، تحدث الله من خلال يوئيل النبي عن أهمية الأحلام والرؤى المقدمة من روح الله القدوس. قال:

«وَيَكُونُ بَعْدَ ذلِكَ أَنِّي أَسْكُبُ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ،
فَيَتَنَبَّأُ بَنُوكُمْ وَبَنَاتُكُمْ،
وَيَحْلَمُ شُيُوخُكُمْ أَحْلاَمًا،
وَيَرَى شَبَابُكُمْ رُؤًى.
وَعَلَى الْعَبِيدِ أَيْضًا وَعَلَى الإِمَاءِ
أَسْكُبُ رُوحِي فِي تِلْكَ الأَيَّامِ.»٧٦

هذه النبوة التي أوحى بها الله من خلال يوئيل النبي بدأت تتحقق بعد عدة قرونٍ، وذلك عندما أرسل الله روحه القدوس على أتباع عيسى المسيح.٧٧ في البداية، كان

الآخرون لا يفهمون ما يحدث إلى أن اتضح أن هذا تحقيقاً لنبوة الله على لسان يوئيل النبي. وبنفس الطريقة، غالباً ما يبدو أن أحلامنا لا معنى لها إلى أن نطلب من الله أن نتبصر معانيها. فعندما قرأت كارليغاش الإنجيل بدأت تفهم ما كان الله يقوله لها.

هل الله يقول لك شيئاً من خلال أحلامك؟ إذا كان الأمر كذلك، فيجب أن تصلي وتطلب من الله أن يُظهِر لك معناه. يجب أن تعرف أيضاً طريقة استجابتك. إذا كان الله يتحدث إليك، فما التغييرات التي يجب أن تحدث في سلوكك وحياتك؟

الفصل 4

قرغيزستان: الضيافة

لم تمرّ المارشروتكا [الحافلة الصغيرة] من ألماتي إلى بيشكيك عبر القرية التي كنتُ أريد زيارتها، ولذلك كان يجب الاتفاق مع سائقٍ للذهاب في سيارةٍ خاصة من بيشكيك إلى قريةٍ في منطقة توكماك. عند وصولنا إلى تلك القرية، وجدنا المنزل ورحب أهل البيت بنا ترحيباً حاراً. في الحال أحضر أفراد الأسرة الشاي ومختلف الأطعمة، وكان كل ذلك مجرد مقبّلات. وفي وقتٍ لاحق، أحضروا الوجبة الرئيسية وحرصوا على توافر الكثير من الطعام لدينا.

رغم كرم الناس في آسيا الوسطى في ضيافتهم، كنتُ أشعر بالراحة إزاء ترحيبهم الحار. في المرة السابقة التي ذهبتُ فيها إلى قرغيزستان وجدتهم في السوق حيث كانوا يعملون، وأعطيتهم رسالةً من أخت الزوجة التي التقيتها في مكانٍ آخر. قبل بضع سنوات، كانت الأخت قد اعترفت بعيسى المسيح كمخلصٍ شخصي وأرادت أن تتبعه وتطيعه. ومع ذلك، لم تفهم عائلتها سبب حبها لعيسى المسيح. فكانوا يقولون لها: «هذه ليست تقاليد الدونغان. أنتِ تخونين شعبك ولا تتبعين طرق أسلافك.» وذات يومٍ، عندما كانت تساعد أبيها في جمع التبن، ضربها فجأةً بالقوة على الظهر بالمذراة. ثم ضربها مرةً ثانية وثالثة قائلاً إنها خانت شعبها. وبعد ذلك، بينما كانت واقعةً على الأرض تتأوه وتشعر بألم الضربات، يبدو أنه أشفق عليها. فأمرها قائلاً: «اذهبي! اخرجي من هنا بسرعة!» فأطلقت ساقيها للرياح ولم تتوقف حتى لأخذ متعلقاتها الشخصية من المنزل.

الآن كنتُ في زيارةٍ أخرى لأقاربها في انتظار أن أرى كيف سيردون على رسالتها. كانت أخت الزوجة تريد التواصل معهم ولكنها كانت خائفة من ذلك. كنتُ قد أخبرتها عن خططي لزيارة قرغيزستان وعرضتُ عليها أن أفعل ما بوسعي للمساعدة في نقل الرسائل من عائلتها وإليها. أما الآن فكنتُ في انتظار أي ردٍ منهم يمكن أن أنقله لأخت الزوجة.

لم يسألوا سؤالاً مباشراً عن مكان معيشة الأخت لأنهم كانوا يدركون أنها ما زالت تخشى أذيتهم. ومع ذلك، أوضحوا لي أنهم يرغبون في عودة التواصل. وبدون التصريح بأن أبيها شعر بالأسف تجاه ما فعله، أوضحوا أنه هاجم ابنته أساساً بسبب ما كان يقوله الآخرون. فشعر أن هذا ما كان يتحتم عمله وليس ما يريد حقاً أن يعمله. قدموا لي خطاباً أنقله إلى الأخت يخبرها أنها موضع ترحيبٍ دون أن تشعر بالخوف.

بعضنا يشعر بالغربة عن الله، تماماً مثلما كانت هذه السيدة الدونغانية تشعر بانفصالها عن عائلتها. وبالمثل نريد وسيطاً لتحقيق المصالحة بين الجانبين. لقد تمكنتُ من مساعدتها بصفتي وسيطاً، ولكن من يمكنه أن يكون الوسيط إذا صرنا غرباء عن الله نفسه؟ يخبرنا الإنجيل عن هذا الوسيط قائلاً: «لأَنَّهُ يُوجَدُ إِلهٌ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ: الإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً لأَجْلِ الْجَمِيعِ...»٧٨

بعد عودتي من شينجيانغ، صدمني شيءٌ ما بخصوص موقف هذه العائلة الدونغانية. فقبل بضعة أجيالٍ، جاء أسلاف هؤلاء الدونغان إلى قرغيزستان من مقاطعات شينجيانغ وقانسو وشنشي في شمال غرب الصين. والآن يتهمون أختهم بعدم اتباع تقاليد أسلافهم. ومع ذلك، ماذا كان الإيمان الأصلي لدى شعوب شمال غرب الصين؟ كانت شينجيانغ دائماً مفترق طرق للتقاليد والأفكار المختلفة. ورغم أنه في الوقت الحالي معظم اليوغور والدونغان (الذين يسمون هوي في الصين) من المسلمين، كان كثيرٌ منهم لهم أسلاف من البوذيين. على سبيل المثال، في متحف التاريخ في أورومتشي يمكن للمرء أن يشاهد تمثالاً كهرماني اللون لبوذا بين مختلف المصنوعات اليدوية المحلية من شينجيانغ. التأثير البوذي السابق أكثر وضوحاً في دونهوانغ في مقاطعة قانسو، حيث العديد من السكان المحليين في هذه الأيام هم من المسلمين. يمكن لزوار كهوف موجاو في دونهوانغ رؤية اللوحات الجدارية البوذية القديمة والتماثيل الضخمة لبوذا التي يعود تاريخها إلى القرن ٤ إلى القرن ١٤. وبالتوغل شرقاً في الصين، كانت بداية «طريق الحرير» في العاصمة القديمة تشانغآن التي تقع على مقربةٍ من مدينة شيان الحديثة. يُسمى أحد المتاحف في مدينة شيآن الصينية باللغة الصينية 碑林博物馆 أي متحف «غابة المسلات». هناك العديد من الألواح الحجرية الضخمة التي يرجع تاريخها إلى قرونٍ عديدة وأحدها (في القاعة الثانية، إلى يسار المدخل) حُفِرَ في عام ٧٨١ م بمناسبة افتتاح كنيسة مسيحية.٧٩

يسجل هذا اللوح الحجري كيف قدَّم المسيحيون السوريون في عام ٦٣٥ نسخاً من الكتب المقدسة المسيحية إلى إمبراطور الصين، الذي أمر بترجمتها إلى اللغة الصينية وسمح بنشر المعتقدات المسيحية بين الشعب الصيني. ووقت كتابة هذه المسلة في عام ٧٨١ كان أتباع عيسى المسيح ينتشرون في جميع المقاطعات، وتقول

المسلة إنهم كانوا ينتشرون في «مائة مدينة». وعلى الرغم من أننا لا نعرف العدد الإجمالي لأتباع عيسى المسيح في الصين في ذلك الوقت، فلا بدّ أنه كان كبيراً جداً إذا كانوا موجودين في مائة مدينة. في ذلك الوقت لم يكن دين أسلاف شعب الدونغان هو الإسلام بل من المحتمل جداً أن يكون الإيمان المسيحي.٨٠

في سياق ما هو أقدم، ماذا كان إيمان الشعب الصيني الأول بقدر ما يمكننا التأكد؟ منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنةٍ، كان الصينيون القدماء يركزون عبادتهم على الله الخالق الأسمى الذي كانوا يسمونه «شانغ دي» (上帝)، أي «السلطان الأعلى»، والذي كان يشار إليه أيضاً بلقب تيان (天) بمعنى ‹السماء›.٨١ في الصين، كما هو الحال في بعض أجزاءٍ أخرى من العالم، كان هناك تذبذب بمرور الوقت بين عبادة الله الخالق الأصلي وعبادة الآلهة الأخرى. إن اسم «تشانغ دي» هو في الحقيقة لقب، تماماً مثل معنى الكثير من أسماء الله في مختلف اللغات الأخرى. المهم هو أن من يعبدون الله الخالق ويخدمونه لا يحيدون عنه لخدمة أرواحٍ أخرى. كان يبدو لي أن صديقتي الدونغانية تتبع حقاً تقليد أسلافها وكان لديها حبٌ صادق حقيقي لله الذي هو خالق كل الناس.

أثناء عودتنا إلى بيشكيك بواسطة سيارة أجرة، مررنا بنقطة في الطريق بالقرب من معبر حدودي في كازاخستان. لاحظتُ حشداً من الناس لا يزال قائماً بجانب الطريق، رغم أنه كان أقل عدداً عما كان عليه منذ بضع ساعاتٍ. أخبرني السائق أنهم كانوا في انتظار شخصٍ يأخذهم للعمل في ذلك اليوم. وقد ذكرني هذا بقصة رواها عيسى المسيح عن بعض الفعلة الذين انتظروا اليوم طوله قبل أن يستأجرهم أحدٌ، ومع ذلك أخذوا نفس الأجر الذي أخذه أولئك الذين عملوا طوال اليوم. فتذمر الذين عملوا طوال اليوم من كرم صاحب العمل تجاه الآخرين.٨٢ روى عيسى المسيح هذه القصة لإظهار أن الله يعاملنا بسخاءٍ أكثر مما نستحق. فالله لا يرحب بنا إلى السماء بمقدار ما نعمله من أجله بل بمقدار كرمه لمن لا يستحقونه.

أحياناً ينتابني نفس الشعور عن كرم ضيافة شعوب آسيا الوسطى، وهو أنني لا أستحق كل هذا الكرم. وهذا ما يمكن أن يتعلمه أهل بلدي في أوروبا من شعوب آسيا الوسطى. فالناس في آسيا الوسطى والقوقاز أقرب إلى ثقافة الكتاب المقدس من العديد من الأوروبيين والأمريكان. الله نفسه يثمن هذه الصفة في شعوب القوقاز وآسيا الوسطى. مكتوبٌ في الكتاب المقدس:

«مُشْتَرِكِينَ فِي احْتِيَاجَاتِ الْقِدِّيسِينَ، عَاكِفِينَ عَلَى إِضَافَةِ الْغُرَبَاءِ.»٨٣

«كُونُوا مُضِيفِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِلاَ دَمْدَمَةٍ.»٨٤

وتقول آيةٌ أخرى رائعة:

«لاَ تَنْسَوْا إِضَافَةَ الْغُرَبَاءِ، لأَنْ بِهَا أَضَافَ أُنَاسٌ مَلاَئِكَةً وَهُمْ لاَ يَدْرُونَ.»٨٥

ربما يكون هناك بين شعوب آسيا الوسطى أو القوقاز التي تشتهر بالضيافة من أضاف ملائكة وهم لا يدرون! ومن أمثلة ذلك العظيم إبراهيم. فقد رحب بضيوفٍ وفيما بعد أدرك أنهم كانوا ملائكة مرسلين من الله! تحكي لنا التوراة كيف حدث ذلك:

وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَقْتَ حَرِّ النَّهَارِ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا ثَلاَثَةُ رِجَالٍ وَاقِفُونَ لَدَيْهِ. فَلَمَّا نَظَرَ رَكَضَ لاسْتِقْبَالِهِمْ مِنْ بَابِ الْخَيْمَةِ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ، وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَلاَ تَتَجَاوَزْ عَبْدَكَ. لِيُؤْخَذْ قَلِيلُ مَاءٍ وَاغْسِلُوا أَرْجُلَكُمْ وَاتَّكِئُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَآخُذَ كِسْرَةَ خُبْزٍ، فَتُسْنِدُونَ قُلُوبَكُمْ ثُمَّ تَجْتَازُونَ، لأَنَّكُمْ قَدْ مَرَرْتُمْ عَلَى عَبْدِكُمْ». فَقَالُوا: «هكَذَا تَفْعَلُ كَمَا تَكَلَّمْتَ». فَأَسْرَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْخَيْمَةِ إِلَى سَارَةَ، وَقَالَ: «أَسْرِعِي بِثَلاَثِ كَيْلاَتٍ دَقِيقًا سَمِيذًا. اعْجِنِي وَاصْنَعِي خُبْزَ مَلَّةٍ». ثُمَّ رَكَضَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْبَقَرِ وَأَخَذَ عِجْلاً رَخْصًا وَجَيِّدًا وَأَعْطَاهُ لِلْغُلاَمِ فَأَسْرَعَ لِيَعْمَلَهُ. ثُمَّ أَخَذَ زُبْدًا وَلَبَنًا، وَالْعِجْلَ الَّذِي عَمِلَهُ، وَوَضَعَهَا قُدَّامَهُمْ. وَإِذْ كَانَ هُوَ وَاقِفًا لَدَيْهِمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَكَلُوا. وَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ سَارَةُ امْرَأَتُكَ؟» فَقَالَ: «هَا هِيَ فِي الْخَيْمَةِ». فَقَالَ: «إِنِّي أَرْجِعُ إِلَيْكَ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ وَيَكُونُ لِسَارَةَ امْرَأَتِكَ ابْنٌ». وَكَانَتْ سَارَةُ سَامِعَةً فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَهُوَ وَرَاءَهُ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ شَيْخَيْنِ مُتَقَدِّمَيْنِ فِي الأَيَّامِ، وَقَدِ انْقَطَعَ أَنْ يَكُونَ لِسَارَةَ عَادَةٌ كَالنِّسَاءِ. فَضَحِكَتْ سَارَةُ فِي بَاطِنِهَا قَائِلَةً: «أَبَعْدَ فَنَائِي يَكُونُ لِي تَنَعُّمٌ، وَسَيِّدِي قَدْ شَاخَ؟» فَقَالَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ: «لِمَاذَا ضَحِكَتْ سَارَةُ قَائِلَةً: أَفَبِالْحَقِيقَةِ أَلِدُ وَأَنَا قَدْ شِخْتُ؟ هَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى الرَّبِّ شَيْءٌ؟ فِي الْمِيعَادِ أَرْجِعُ إِلَيْكَ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ وَيَكُونُ لِسَارَةَ ابْنٌ».٨٦

أما اليوم، فإن نسل الابن الذي وعده الله لإبراهيم وسارة يتذكرون إبراهيم كمثالٍ على كرم الضيافة. ويصلي الشعب اليهودي أن يكونوا في ضيافتهم مثل إبراهيم.

ومع ذلك، يتذكر الشعب اليهودي أيضاً تلك الأوقات التي كان الله يمدهم فيها بالطعام. وهكذا يبدو أن الله هو المضيف ونسل إبراهيم هم الضيوف! كان نسل إبراهيم من بين العبيد في مصر ولكن الله أطلق سراحهم من العبودية. كان يريد منهم أن يعبدوه وأن يعرفوا إله أسلافهم. أرسل الله موسى النبي كي يُخرِج نسل إبراهيم إلى مكانٍ يمكنهم فيه أن يقابلوا الله. أين كان هذا؟ كان في الصحراء، حيث لا يوجد طعام! فتذمروا لأنهم لم يعرفوا أن الله أيضاً يتمتع بكرم الضيافة! إذا دعانا الله إلى محضره فسوف يوفر لنا أيضاً الطعام الذي نحتاجه. تصف التوراة ضيافة الله هكذا:

فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «هَا أَنَا أُمْطِرُ لَكُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ. فَيَخْرُجُ الشَّعْبُ وَيَلْتَقِطُونَ حَاجَةَ الْيَوْمِ بِيَوْمِهَا. لِكَيْ أَمْتَحِنَهُمْ، أَيَسْلُكُونَ فِي نَامُوسِي أَمْ لاَ. وَيَكُونُ

فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ أَنَّهُمْ يُهَيِّئُونَ مَا يَجِينُونَ بِهِ فَيَكُونُ ضِعْفَ مَا يَلْتَقِطُونَهُ يَوْمًا فَيَوْمًا».

فَكَانَ فِي الْمَسَاءِ أَنَّ السَّلْوَى صَعِدَتْ وَغَطَّتِ الْمَحَلَّةَ. وَفِي الصَّبَاحِ كَانَ سَقِيطُ النَّدَى حَوَالَي الْمَحَلَّةِ. وَلَمَّا ارْتَفَعَ سَقِيطُ النَّدَى إِذَا عَلَى وَجْهِ الْبَرِّيَّةِ شَيْءٌ دَقِيقٌ مِثْلُ قُشُورٍ. دَقِيقٌ كَالْجَلِيدِ عَلَى الأَرْضِ. فَلَمَّا رَأَى بَنُو إِسْرَائِيلَ قَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «مَنْ هُوَ؟» لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مَا هُوَ.

فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «هُوَ الْخُبْزُ الَّذِي أَعْطَاكُمُ الرَّبُّ لِتَأْكُلُوا. هذَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ الرَّبُّ. اِلْتَقِطُوا مِنْهُ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حَسَبِ أُكْلِهِ. عُمِرًا لِلرَّأْسِ عَلَى عَدَدِ نُفُوسِكُمْ تَأْخُذُونَ، كُلُّ وَاحِدٍ لِلَّذِينَ فِي خَيْمَتِهِ».

فَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ هكَذَا، وَالْتَقَطُوا بَيْنَ مُكَثِّرٍ وَمُقَلِّلٍ. وَلَمَّا كَالُوا بِالْعُمِرِ، لَمْ يُفْضِلِ الْمُكَثِّرُ وَالْمُقَلِّلُ لَمْ يُنْقِصْ. كَانُوا قَدِ الْتَقَطُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حَسَبِ أُكْلِهِ.

وَكَانُوا يَلْتَقِطُونَهُ صَبَاحًا فَصَبَاحًا كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حَسَبِ أُكْلِهِ. وَإِذَا حَمِيَتِ الشَّمْسُ كَانَ يَذُوبُ. ثُمَّ كَانَ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ أَنَّهُمُ الْتَقَطُوا خُبْزًا مُضَاعَفًا، عُمِرَيْنِ لِلْوَاحِدِ. فَجَاءَ كُلُّ رُؤَسَاءِ الْجَمَاعَةِ وَأَخْبَرُوا مُوسَى. فَقَالَ لَهُمْ: «هذَا مَا قَالَ الرَّبُّ: غَدًا عُطْلَةٌ، سَبْتٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ. اخْبِزُوا مَا تَخْبِزُونَ وَاطْبُخُوا مَا تَطْبُخُونَ. وَكُلُّ مَا فَضِلَ ضَعُوهُ عِنْدَكُمْ لِيُحْفَظَ إِلَى الْغَدِ». فَوَضَعُوهُ إِلَى الْغَدِ كَمَا أَمَرَ مُوسَى، فَلَمْ يُنْتِنْ وَلاَ صَارَ فِيهِ دُودٌ. فَقَالَ مُوسَى: «كُلُوهُ الْيَوْمَ، لأَنَّ لِلرَّبِّ الْيَوْمَ سَبْتًا. الْيَوْمَ لاَ تَجِدُونَهُ فِي الْحَقْلِ. سِتَّةَ أَيَّامٍ تَلْتَقِطُونَهُ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبْتٌ، لاَ يُوجَدُ فِيهِ». وَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ أَنَّ بَعْضَ الشَّعْبِ خَرَجُوا لِيَلْتَقِطُوا فَلَمْ يَجِدُوا. فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «إِلَى مَتَى تَأْبَوْنَ أَنْ تَحْفَظُوا وَصَايَايَ وَشَرَائِعِي؟ اُنْظُرُوا! إِنَّ الرَّبَّ أَعْطَاكُمُ السَّبْتَ. لِذلِكَ هُوَ يُعْطِيكُمْ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ خُبْزَ يَوْمَيْنِ. اجْلِسُوا كُلُّ وَاحِدٍ فِي مَكَانِهِ. لاَ يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنْ مَكَانِهِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ». فَاسْتَرَاحَ الشَّعْبُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ. وَدَعَا بَيْتُ إِسْرَائِيلَ اسْمَهُ «مَنًّا». وَهُوَ كَبِزْرِ الْكُزْبَرَةِ، أَبْيَضُ، وَطَعْمُهُ كَرِقَاقٍ بِعَسَلٍ.

وَأَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْمَنَّ أَرْبَعِينَ سَنَةً حَتَّى جَاءُوا إِلَى أَرْضٍ عَامِرَةٍ. أَكَلُوا الْمَنَّ حَتَّى جَاءُوا إِلَى طَرَفِ أَرْضِ كَنْعَانَ.٨٧

لمدة أربعين عاماً تمتع أحفاد إبراهيم بضيافة الله الأعجوبية!

كان هذا الخبز الأعجوبي مؤن الله لهم في الصحراء حتى وصلوا إلى الأرض التي كان الله يقودهم إليها. وهذا مثال ما يريده الله لنا اليوم. فمثل نسل إبراهيم، نحن أيضاً في سياحةٍ روحية إلى الأرض التي وعد بها الله للذين يحبونه. وعلى الطريق، يريد الله أن يغذينا بخبزه الخاص، أي خبز الحياة. فالله يغذينا بخبز الحياة في أرواحنا ويجعلنا أقوياء روحياً.

كانت هذه الأفكار تمرّ بذهني في طريق عودتي إلى بيشكيك. في بعض الأحيان كنتُ أتجاذب أطراف الحديث قليلاً مع سائق السيارة، والذي كان قد تمتع أيضاً بكرم ضيافة الأسرة الدونغانية وعرف سبب زيارتي لهم. طلبتُ منه أن يأخذني إلى قريةٍ بالقرب من بيشكيك حتى أتمتع بكرم ضيافة أسرة من قرغيزستان. كانت هذه الأسرة تعيش في منزلٍ قروي بسيط يفتقر الكثير من وسائل الراحة المتوافرة في الفندق. ولكنني فضلتُ البقاء معهم بسبب الأجواء الأسرية الدافئة الودية. وبمرور الوقت، شعرتُ أنني موضع ترحيبٍ وكأنني أحد أفراد الأسرة وليس مجرد ضيف. وبطبيعة الحال، يجب على أفراد الأسرة المشاركة في العمل، ولهذا اتسعت دائرة خبرتي العملية في مناسبةٍ أخرى عندما علمتني بيرميت كيف أحلب البقرة!

علاوةً على ذلك، أردتُ تجربة نمط الحياة اليومية للشعب القرغيزي. وبما أنني أحب التعرف إلى الثقافات الأخرى، من المهم فهم الثقافة في المقام الأول عن طريق المشاركة في حياة الناس بقدر ما أستطيع. لا أملك الخبرة الكافية في وظائف البناء والتصليح، ولذلك قدمتُ خدمات محدودة عندما دعت الأسرة الكثير من الأقارب والأصدقاء للمساعدة في توسيع منزلهم. ومع ذلك، فعلتُ ما بوسعي للمساعدة. وقد كنتُ أفهم أن هذا جزءاً من الثقافة التقليدية: فالذين يساعدون في أحد الأعمال في مناسبةٍ معينة يمكنهم أن يتوقعوا مثل هذه المساعدة في المقابل عندما يحتاجون إليها. وهذا من التوجهات المجتمعية السائدة بدرجةٍ أكبر من الحياة في أوروبا الغربية. ومع ذلك، أعتقد أنه في نواحٍ كثيرة أقرب إلى ما يريده الله لنا.

يتمتع كوفانتش بيك وبيرميت وأسرهم بالكرم وطيبة القلب. في البداية، لم أكن أعرف شيئاً عن إيمانهم. وفي وقتٍ لاحق، دعتني بيرميت للذهاب معها إلى اجتماع في بيشكيك حيث كان حشدٌ كبير من الناس مجتمعين في استاد رياضي لسماع كلمة الله ورفع الصلاة من أجل الشفاء وغيرها من الأمور. عندما أدركتُ مقدار محبة بيرميت لله، فهمتُ كيف أن كرمها مصدره كرم الله لها.

ما مدى كرم الله؟ هذا ما كنتُ أناقشه مع علي في شينجيانغ. ولكني تذكرتُ أحد المواقف في حياة عيسى المسيح يبين لنا كيف يمكن أن يكون كرم الله أكثر بكثيرٍ مما نتوقع:

بَعْدَ هذَا مَضَى يَسُوعُ إِلَى عَبْرِ بَحْرِ الْجَلِيلِ، وَهُوَ بَحْرُ طَبَرِيَّةَ. وَتَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ لأَنَّهُمْ أَبْصَرُوا آيَاتِهِ الَّتِي كَانَ يَصْنَعُهَا فِي الْمَرْضَى. فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى جَبَلٍ وَجَلَسَ هُنَاكَ مَعَ تَلاَمِيذِهِ. وَكَانَ الْفِصْحُ، عِيدُ الْيَهُودِ، قَرِيبًا.

فَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ أَنَّ جَمْعًا كَثِيرًا مُقْبِلٌ إِلَيْهِ، فَقَالَ لِفِيلُبُّسَ: «مِنْ أَيْنَ نَبْتَاعُ خُبْزًا لِيَأْكُلَ هؤُلاَءِ؟» وَإِنَّمَا قَالَ هذَا لِيَمْتَحِنَهُ، لأَنَّهُ هُوَ عَلِمَ مَا هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَ.

أَجَابَهُ فِيلُبُّسُ: «لاَ يَكْفِيهِمْ خُبْزٌ بِمِئَتَيْ دِينَارٍ لِيَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَيْئًا يَسِيرًا».

قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ، وَهُوَ أَنْدَرَاوُسُ أَخُو سِمْعَانَ بُطْرُسَ: «هُنَا غُلاَمٌ مَعَهُ خَمْسَةُ أَرْغِفَةِ شَعِيرٍ وَسَمَكَتَانِ، وَلكِنْ مَا هذَا لِمِثْلِ هؤُلاَءِ؟»

فَقَالَ يَسُوعُ: «اجْعَلُوا النَّاسَ يَتَّكِئُونَ». وَكَانَ فِي الْمَكَانِ عُشْبٌ كَثِيرٌ، فَاتَّكَأَ الرِّجَالُ وَعَدَدُهُمْ نَحْوُ خَمْسَةِ آلاَفٍ. وَأَخَذَ يَسُوعُ الأَرْغِفَةَ وَشَكَرَ، وَوَزَّعَ عَلَى التَّلاَمِيذِ، وَالتَّلاَمِيذُ أَعْطَوُا الْمُتَّكِئِينَ. وَكَذلِكَ مِنَ السَّمَكَتَيْنِ بِقَدْرِ مَا شَاءُوا.

فَلَمَّا شَبِعُوا، قَالَ لِتَلاَمِيذِهِ: «اجْمَعُوا الْكِسَرَ الْفَاضِلَةَ لِكَيْ لاَ يَضِيعَ شَيْءٌ». فَجَمَعُوا وَمَلأُوا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قُفَّةً مِنَ الْكِسَرِ، مِنْ خَمْسَةِ أَرْغِفَةِ الشَّعِيرِ، الَّتِي فَضَلَتْ عَنِ الآكِلِينَ.»٨٨

وبعد ذلك كان الناس يبحثون عن عيسى المسيح لأنهم أرادوا طعاماً لبطونهم مجاناً. ومع ذلك، قال عيسى المسيح لهم:

«الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: أَنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي لَيْسَ لأَنَّكُمْ رَأَيْتُمْ آيَاتٍ، بَلْ لأَنَّكُمْ أَكَلْتُمْ مِنَ الْخُبْزِ فَشَبِعْتُمْ. اِعْمَلُوا لاَ لِلطَّعَامِ الْبَائِدِ، بَلْ لِلطَّعَامِ الْبَاقِي لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّذِي يُعْطِيكُمُ ابْنُ الإِنْسَانِ، لأَنَّ هذَا اللهُ الآبُ قَدْ خَتَمَهُ».

فَقَالُوا لَهُ: «مَاذَا نَفْعَلُ حَتَّى نَعْمَلَ أَعْمَالَ اللهِ؟»

أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «هذَا هُوَ عَمَلُ اللهِ: أَنْ تُؤْمِنُوا بِالَّذِي هُوَ أَرْسَلَهُ».

فَقَالُوا لَهُ: «فَأَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ؟ مَاذَا تَعْمَلُ؟ آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْكُلُوا».

فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ مُوسَى أَعْطَاكُمُ الْخُبْزَ مِنَ السَّمَاءِ، بَلْ أَبِي يُعْطِيكُمُ الْخُبْزَ الْحَقِيقِيَّ مِنَ السَّمَاءِ، لأَنَّ خُبْزَ اللهِ هُوَ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ الْوَاهِبُ حَيَاةً لِلْعَالَمِ».

فَقَالُوا لَهُ: «يَا سَيِّدُ، أَعْطِنَا فِي كُلِّ حِينٍ هذَا الْخُبْزَ».

فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فَلاَ يَجُوعُ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلاَ يَعْطَشُ أَبَدًا. وَلكِنِّي قُلْتُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ قَدْ رَأَيْتُمُونِي، وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ. كُلُّ مَا يُعْطِينِي الآبُ فَإِلَيَّ يُقْبِلُ، وَمَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا. لأَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ، لَيْسَ لأَعْمَلَ مَشِيئَتِي، بَلْ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي. وَهذِهِ مَشِيئَةُ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَانِي لاَ أُتْلِفُ مِنْهُ شَيْئًا، بَلْ أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ. لأَنَّ هذِهِ هِيَ مَشِيئَةُ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَنْ يَرَى الابْنَ وَيُؤْمِنُ بِهِ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ».٨٩

هذا معناه أن ضيافة الله أبدية! فرغم دفء وسخاء الضيافة التي تمتعتُ بها في قرغيزستان من هذه العائلات الدونغانية والقرغيزية، إلا أنها كانت مؤقتة. ففي نهاية المطاف كان عليَّ مواصلة رحلتي. ومع ذلك، سوف تنتهي رحلة الحياة لكلٍ منا في نهاية المطاف باللقاء مع الله نفسه. فماذا سيحدث حينها؟

يقدم إشعياء النبي بعض الإشارات حول المستقبل بالنسبة لبعض الناس على الأقل، وقد ذكر الوليمة التي أعدّها الله قائلاً:

«وَيَصْنَعُ رَبُّ الْجُنُودِ لِجَمِيعِ الشُّعُوبِ فِي هذَا الْجَبَلِ وَلِيمَةَ سَمَائِنَ.»٩٠

وقال عيسى المسيح:

«وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِب وَيَتَّكِئُونَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ.»٩١

لماذا قال عيسى المسيح إن كثيرين سيأتون «من المشارق والمغارب»؟ قال هذه الكلمات عندما كان شخصٌ ما ليس من نسل إبراهيم يحمل إيماناً أعظم من الإيمان الذي كان يراه عيسى المسيح بين الشعب اليهودي. وبالتالي فإن أي إنسانٍ صادق الإيمان بالله ويريد أن يفعل مشيئة الله يمكن دعوته للمشاركة في ضيافة الله الأبدية.

يدعونا عيسى المسيح الآن أن نرحب به كضيف قائلاً:

«هنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي.»٩٢

إذا دعونا عيسى المسيح للمشاركة في حياتنا الآن، فسوف نكتشف أن ضيافته أكثر سخاءً من أي شيءٍ يمكن أن نعطيه. فمن يرحبون بعيسى المسيح للمشاركة في حياتهم مدعوون هم أيضاً للمشاركة في المأدبة التي أعدها إلى الأبد.

الفصل 5

قرغيزستان: الختان

بينما كنتُ أقيم مع أصدقائي في بيشكيك عاصمة قرغيزستان، دعوني للذهاب معهم إلى شولبون آتا، على شاطئ إيسيك كول، حيث كانوا في زيارةٍ لبعض الأقارب. وفيما نظرتُ إلى البحيرة في الليل رأيتُ الجبال المغطاة بالثلوج التي تحيط بها مثل حبات الماس المجمعة في خاتمٍ حول البحيرة التي تبدو بلون الياقوت. كانت تتألق فوقنا في الجبل أعدادٌ كبيرة من الأحجار الكريمة الأخرى، على هيئة سماءٍ مرصعة بالنجوم، أكثر بكثيرٍ مما رأيته من قبل في أي مكانٍ آخر. ففكرتُ في وعد الله لإبراهيم بأن نسله سيكون كنجوم السماء.٩٣

في اليوم التالي قالت لي بيرميت: «هل تريد أن تذهب معنا لمأدبة هذا المساء؟ بعض أصدقائنا يحتفلون بختان ابنهم.»

بعد أن وصلنا قاعة المأدبة، قدموني إلى ربّ المنزل وابنه. كان الصبي القرغيزي يرتدي أفضل ثيابه للاحتفال لكنه لم يكن مبتسماً. من الواضح أنه كان لا يزال يشعر بالألم. كان أكثر من مائتي شخصٍ قد تجمعوا للاحتفال بختانه. كان الناس يأكلون ويشربون والبعض يرقصون. ثم وقف المضيف كي يشكر جميع الحضور. وألقى العديد من الناس خطباً قصيرة يتمنون فيها السلامة للصبي وللأسرة. ومع ذلك، تجنب معظمهم ذكر الختان ولم يشر أيٌ منهم إلى معناه الحقيقي.

أما أنا فقد التفتُ من على مائدتي إلى الرجل الجالس بجواري وسألته عن معنى الحفل وسبب عمله. فقال لي إنه تقليد قديم ولكنه لا يعرف معناه. فبدأت أسأل بعض الآخرين. فقدموا لي ثلاثة أنواع من الردود.

قال البعض: «هذه علامة على أن الصبي قرغيزي.»

وقال آخرون: «هذه علامة على أن الصبي مسلم.»

وقال آخرون: «هذا مجرد تقليد قديم. ونحن لا نعرف لماذا نفعل ذلك.»٩٤

لقد فوجئتُ عندما رأيتُ كل الناس لا يعرفون مصدر هذه العادة.

وفجأة سمعتُ تامادا (أي رئيس التشريفات) يقول في الميكروفون: «لدينا صديقٌ هنا قادم من الصين وأود أن أعطيه الفرصة كي يلقي علينا بعض الكلمات.» فوقفتُ من على مقعدي وذهبتُ إلى المقدمة، متسائلاً ماذا يجب أن أقول.٩٥

«شكراً لكم. أنا سعيدٌ جداً لوجودي هنا، وأود أن أوصّل خالص التهاني للعائلة في هذه المناسبة.» ثم توقفتُ عن الكلام وفيما سألتُ نفسي ماذا يجب أن أقول التفتُ إلى تامادا قائلاً: «يبدو لي أن الكثير من الناس لا يعرفون حقاً مصدر عادة الختان. فهل تريد مني أن أحكي لكم؟»

فدعاني تامادا قائلاً: «بالتأكيد، تفضل.»

فقلت: «تعود ممارسة الختان إلى إبراهيم، الذي عاش قبل حوالي ٤,٠٠٠ سنة فيما يُعرف الآن بالعراق.»٩٦

فدعاني تامادا قائلاً: «أخبرنا المزيد.» ولذلك بدأتُ أحكى لهم القصة.

وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ.

فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ

وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً.

وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ،

وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ.

وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ».٩٧

استقر إبراهيم لفترةٍ من الوقت في بلدة حاران التي تقع الآن في شرق تركيا.٩٨ ومع ذلك، عندما كان في الخامسة والسبعين من عمره هاجر إلى أراضٍ أبعد من ذلك، إلى الأرض التي تسمى في الوقت الحاضر إسرائيل. وهناك ظهر الله لإبراهيم قائلاً: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ.»٩٩

فكروا في هذا الموقف! كان الله يتحدث الى رجلٍ يبلغ من العمر خمسة وسبعين سنة وليس له أطفال. كان الله يقول لهذا الرجل: «أَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً» ويقول له: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ»! كان إبراهيم من أبطال الإيمان ولكنه بطبيعة الحال لا بدّ أنه تساءل كيف يمكن أن يحقق الله مثل هذه الوعود بينما هو وزوجته من كبار السن وليس من المرجح أن يكون لهما أي أطفالٍ.

بعد ذلك، سأل إبراهيم الله هذا السؤال:

«أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ، مَاذَا تُعْطِينِي وَأَنَا مَاضٍ عَقِيمًا، وَمَالِكُ بَيْتِي هُوَ أَلِيعَازَرُ الدِّمَشْقِيُّ؟» وَقَالَ أَبْرَامُ أَيْضًا: «إِنَّكَ لَمْ تُعْطِنِي نَسْلاً، وَهُوَذَا ابْنُ بَيْتِي وَارِثٌ لِي».

فَإِذَا كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَيْهِ قَائِلاً: «لاَ يَرِثُكَ هذَا، بَلِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أَحْشَائِكَ هُوَ يَرِثُكَ». ثُمَّ أَخْرَجَهُ إِلَى خَارِجٍ وَقَالَ: «انْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ وَعُدَّ النُّجُومَ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعُدَّهَا». وَقَالَ لَهُ: «هكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ».١٠٠

كان الله يريد من إبراهيم أن يؤمن به. تقول التوراة إن إبراهيم في هذا الموقف بالذات «آمَنَ بِالرَّبِّ فَحَسِبَهُ لَهُ بِرًّا.»١٠١ الله يُسرّ بهذا النوع من الإيمان الذي يكون على استعدادٍ لتصديق الله حتى في الظروف الصعبة.

في مثل هذه الحالات، من الممكن أن نمرّ جميعاً بفتراتٍ من الشك. أحياناً نحاول أن نفكر في طرقٍ للحصول على النتيجة المرجوة بطرقنا البشرية. ثم نبرر طرقنا قائلين إن الله يمكنه استخدامها لتحقيق أغراضه.

وقد حدث الأمر نفسه مع إبراهيم. فقد مرت عشر سنوات منذ وعده الله بنسلٍ وكان ما زال هو وزوجته ساراي عقيمين. وفي ذلك الوقت اقترحت عليه زوجته فكرةً كي يصبح أباً. مكتوبٌ في التوراة:

«وَأَمَّا سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ فَلَمْ تَلِدْ لَهُ. وَكَانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِصْرِيَّةٌ اسْمُهَا هَاجَرُ، فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «هُوَذَا الرَّبُّ قَدْ أَمْسَكَنِي عَنِ الْوِلاَدَةِ. ادْخُلْ عَلَى جَارِيَتِي لَعَلِّي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ». فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِقَوْلِ سَارَايَ. فَأَخَذَتْ سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةَ جَارِيَتَهَا، مِنْ بَعْدِ عَشْرِ سِنِينَ لإِقَامَةِ أَبْرَامَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَعْطَتْهَا لأَبْرَامَ رَجُلِهَا زَوْجَةً لَهُ. فَدَخَلَ عَلَى هَاجَرَ فَحَبِلَتْ.»١٠٢

فَوَلَدَتْ هَاجَرُ لأَبْرَامَ ابْنًا. وَدَعَا أَبْرَامُ اسْمَ ابْنِهِ الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجَرُ «إِسْمَاعِيلَ».١٠٣

لم يقل الله لإبراهيم إنه سيكون له ولد من امرأةٍ أخرى غير زوجته. ولم يكن هذا من أعمال الإيمان. ولكن إبراهيم وزوجته، مثل الكثيرين منا اليوم، كانا يحاولان تدبير الأمور بالطريقة البشرية بدلاً من الثقة بوعود الله. عندما نتصرف حسب رغباتنا وعقلياتنا البشرية، فهذا يمنعنا غالباً من سماع ما يريد الله أن يقوله لنا. وبقدر ما نعرف من الأسفار المقدسة، لم يرى إبراهيم المزيد من إعلانات الله لمدة ثلاثة عشر عاماً بعد ولادة إسماعيل.

وبعد ذلك، عندما كان إبراهيم في التاسعة والتسعين من عمره، تكلم إليه الله مرةً أخرى وقال إن الوعود التي أعطاها له منذ ما يقرب من ربع قرنٍ سوف تتحقق، ولكن ليس عن طريق إسماعيل. كانت خطة الله أن ساراي زوجة إبراهيم تحبل وتلد الطفل الذي وعد به الله.

قال الله:

«أَنَا اللهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلاً، فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأُكَثِّرَكَ كَثِيرًا جِدًّا».١٠٤

«أَمَّا أَنَا فَهُوَذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ، فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ. وَأُثْمِرُكَ كَثِيرًا جِدًّا، وَأَجْعَلُكَ أُمَمًا، وَمُلُوكٌ مِنْكَ يَخْرُجُونَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ، عَهْدًا أَبَدِيًّا، لأَكُونَ إِلهًا لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. وَأُعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلهَهُمْ».١٠٥

في ذلك الوقت لم يكن إبراهيم ولا إسماعيل مختونين. في الواقع، لم يكن الله قد قال أي شيءٍ على الإطلاق حول الختان حتى هذا الوقت. ومع ذلك، قال الله لإبراهيم إن عليه أن يقطع القلفة من العضو الذي استخدمه أو بالأحرى أساء استخدامه مع جاريته في محاولته الحصول على ابنٍ بجهوده الخاصة. تذكر أن إسحاق وُلِدَ عندما كان إبراهيم عمره مائة سنة وكانت زوجته سارة في التسعين من عمرها. كان الله يريدهما أن يدركا أن الطفل عطية من الله ولا يرتبط بمسألة خصوبتهما. وقد ولدت زوجته سارة هذا الولد من خلال نعمة الله وكان تذكيراً ملموساً بأن الله يحفظ وعوده ويمكن الوثوق به. ومع ذلك، اضطر إبراهيم لإجراء «عملية» في ذلك العضو الذي حاول استخدامه مع الشخص الخطأ لأغراضٍ خاطئة. كان من الواجب تسليم هذا الجانب من حياته ليكون مخصصاً بالكامل لله بالطاعة والإيمان.

يوضح هذا أيضاً مبدأ مهماً جداً في الطريقة التي يتعامل بها الله معنا. فالمهم في نهاية المطاف ليس جهودنا البشرية الخاصة بل نعمة الله. ونحن لا يمكن أن نختار مكان ولادتنا أو ساعة موتنا. بأيدٍ فارغة جئنا إلى هذا العالم وبأيد فارغة نذهب إلى العالم الآخر. غالباً ما نعتقد أن ما نحصل عليه بأيدينا يرجع إلى جهودنا الخاصة، ولكن بنعمة الله لدينا العديد من المواهب والقدرات، فضلاً عن الفرص التي يمكن أن نطورها إلى مهاراتٍ مفيدة والصحة التي نستخدمها لاستخدام تلك المهارات في الممارسة العملية. وعندما ننتقل إلى الحياة القادمة، ينطبق أيضاً المبدأ نفسه عن نعمة الله. مكتوبٌ في كتاب الله المقدس: «... لأَنَّكُمْ بِالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ، وَذلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ اللهِ. لَيْسَ مِنْ أَعْمَال كَيْلاَ يَفْتَخِرَ أَحَدٌ.»١٠٦

يذكرنا الختان بالمبدأ نفسه ليس فقط في حياة إبراهيم ولكن أيضاً في حياتنا الخاصة. فنحن أيضاً لا نستحق رحمة الله ولطفه ولكن أهم الأشياء في الحياة عطايا الله الصالحة وليست نتيجة جهودنا وحيلنا البشرية.

قال الله لإبراهيم:

«وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظُ عَهْدِي، أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ. هذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ، فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ، فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. اِبْنَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ

ذَكَرٍ فِي أَجْيَالِكُمْ: وَلِيدُ الْبَيْتِ، وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّةٍ مِنْ كُلِّ ابْنِ غَرِيبٍ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ. يُخْتَنُ خِتَانًا وَلِيدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ، فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا. وَأَمَّا الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الَّذِي لاَ يُخْتَنُ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ فَتُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا. إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ عَهْدِي».

وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيم: «سَارَايُ امْرَأَتُكَ لاَ تَدْعُو اسْمَهَا سَارَايَ، بَلِ اسْمُهَا سَارَةُ. وَأُبَارِكُهَا وَأُعْطِيكَ أَيْضًا مِنْهَا ابْنًا. أُبَارِكُهَا فَتَكُونُ أُمَمًا، وَمُلُوكُ شُعُوبٍ مِنْهَا يَكُونُونَ».١٠٧

فماذا كان ردّ فعل إبراهيم على ذلك؟ نقرأ أنه سقط على وجهه وضحك وقال في قلبه:

«هَلْ يُولَدُ لابْنِ مِئَةِ سَنَةٍ؟ وَهَلْ تَلِدُ سَارَةُ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِينَ سَنَةً؟». وبدلاً من أن يشكر الله على أن زوجته سارة ستلد أخيراً، «قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلهِ: «لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ!».١٠٨

كيف استجاب الله لهذا الطلب؟ قال: «بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ [أي: يضحك]. ثم قال الله:

«وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ. وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً. وَلكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الآتِيَةِ».١٠٩

«فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ ابْنَهُ، وَجَمِيعَ وِلْدَانِ بَيْتِهِ، وَجَمِيعَ الْمُبْتَاعِينَ بِفِضَّتِهِ، كُلَّ ذَكَرٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ، وَخَتَنَ لَحْمَ غُرْلَتِهِمْ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ كَمَا كَلَّمَهُ اللهُ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ، وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ ابْنَ ثَلاَثَ عَشَرَةَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ. فِي ذلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ خُتِنَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ. وَكُلُّ رِجَالِ بَيْتِهِ وِلْدَانِ الْبَيْتِ وَالْمُبْتَاعِينَ بِالْفِضَّةِ مِنِ ابْنِ الْغَرِيبِ خُتِنُوا مَعَهُ.»١١٠

هذا أصل تقليد الختان. فالله أعطاه لإبراهيم باعتباره علامةً على أن أولاده وذريتهم ينبغي أن يكونوا شعب الله ومكرسين لله. كان الختان علامة على العهد الخاص بين الله وإبراهيم.

وقد خُتِنَ إسماعيل، الذي كان يبلغ الثالثة عشرة من عمره، وإسحاق الذي ولدته ساراي في العام التالي. ومن خلال إسماعيل استمرت هذه العادة بين العرب. وبالمثل، من خلال إسحاق استمرت بين اليهود. ولهذا السبب يُختن العرب واليهود على حدٍ سواء لأنهم من نسل إبراهيم. وبعد عدة قرونٍ، نقل العرب هذه العادة معهم إلى القوقاز وآسيا الوسطى وأدخلوها إلى الشعوب التركية والشعوب غير العربية.

لهذا السبب يمارس كلٌ من اليهود والمسلمين الختان، ولذلك لا نستطيع أن نقول إن الختان يجعل الصبي مسلماً. في الواقع، لا يذكر القرآن حتى ختان الذكور ولا يقدم تفسيراً لهذه العادة.

ولا يمكن القول إن الختان يجعل الشخص قرغيزياً، أو أوزبكياً، أو كاراكالباكياً (من قرقل باغستان)، أو طالياً، أو لاكياً، أو آفارياً، أو شيشانياً، أو من أي جنسيةٍ أخرى. وحتى لو تم ختان معظم الرجال من جنسيةٍ معينة، فإن الختان في حدّ ذاته ليس ما يعطينا الجنسية أو الهوية العرقية.

إذاً ماذا يعني الختان بالنسبة لنا اليوم؟ لماذا يمارسه الناس حتى الآن؟

تحدث إرمياء النبي عن الختان منذ أكثر من ألفين وخمسمائة سنة، أي حوالي ٦٠٠ سنة قبل عيسى المسيح. وذكر قائمة من مختلف المجموعات العرقية التي مارست الختان وعاشت في مختلف أجزاء الشرق الأوسط. قال إرمياء النبي إن الله سوف يعاقب «كُلَّ مَخْتُونٍ وَأَغْلَفَ... لأَنَّ كُلَّ الأُمَمِ غُلْفٌ» في قلوبهم.١١١

قال النبي إن الطقس الجسدي لا معنى له إذا لم يكن الإنسان مختون القلب.

ما الذي كان يقصده إرمياء النبي إذاً بخصوص ختان القلب؟ ربما تكون لدينا بعض الجوانب في حياتنا التي تصرفنا فيها بطريقتنا الخاصة وليس بالطريقة التي رسمها الله. إذا كان الأمر كذلك، فنحن بحاجة لتقديم جوانب حياتنا هذه إلى الله. ومثل القلفة في الختان، نحن بحاجة لقطع أي جانبٍ من جوانب حياتنا لم نقدمه بالكامل إلى الله. فالله يمكنه إجراء هذه «العملية» في حياتنا. الله يمكنه أن «يختن» قلوبنا بخلع جسم طبيعتنا الخاطئة.١١٢

مكتوبٌ أن إبراهيم «أَخَذَ عَلاَمَةَ الْخِتَانِ خَتْمًا لِبِرِّ الإِيمَانِ الَّذِي كَانَ فِي الْغُرْلَةِ، لِيَكُونَ أَبًا لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَهُمْ فِي الْغُرْلَةِ، كَيْ يُحْسَبَ لَهُمْ أَيْضًا الْبِرُّ. وَأَبًا لِلْخِتَانِ لِلَّذِينَ لَيْسُوا مِنَ الْخِتَانِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا يَسْلُكُونَ فِي خُطُوَاتِ إِيمَانِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي كَانَ وَهُوَ فِي الْغُرْلَةِ.»١١٣

ومكتوبٌ أيضاً:

لَيْسَ الْخِتَانُ شَيْئًا، وَلَيْسَتِ الْغُرْلَةُ شَيْئًا، بَلْ حِفْظُ وَصَايَا اللهِ.»١١٤

«لأَنَّهُ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لَيْسَ الْخِتَانُ يَنْفَعُ شَيْئًا وَلاَ الْغُرْلَةُ، بَلِ الْخَلِيقَةُ الْجَدِيدَةُ.»١١٥

كيف يمكن أن نصير «خليقةً جديدة»؟ هذا أيضاً عمل الله، كما كان الأمر مع إسحاق الذي أعطاه الله لإبراهيم وزوجته سارة. فكلنا، سواء كنا من الذكور أو الإناث، يمكن أن نصير «خليقة جديدة» إذا خضعنا ليدّ الله التي ترفع الخطية في

أرواحنا. يمكنكم أيضاً أن تطلبوا من الله ختان قلوبكم. فإذا كنتم ترغبون ذلك، يمكنكم أن ترفعوا هذه الصلاة إلى الله بلغتكم الخاصة:

«أيها الإله القدوس، أريدُ أن أستمع إليك وأن أتصرف بطريقتك. سامحني بسبب التصرف بطريقتي الخاصة وعدم الاستماع إليك. إني أقدم حياتي كلها لك. اقطع من روحي كل ما هو دنسٍ وأناني. أريد أن أصير «مختوَن» القلب، فأنت وحدك يمكنك عمل هذا. اجعلني خليقةً جديدة. وأرسل روحك القدوس كي يجعلني جديداً ونظيفاً من الداخل. آمين».

جلستُ مرةً أخرى وواصلتُ حواري مع الذين كانوا حولي. وفي نهاية المأدبة، أخذ تامادا الميكروفون مرةً أخرى كي يشكر الناس على حضورهم ثم قال: «نود بصفة خاصة أن نشكر ضيفنا الذي جاء من أرضٍ بعيدة كي يوضح لنا المعنى الحقيقي للختان.»

الفصل 6

طاجيكستان: الخوف أم الحب؟

بينما كان جمشيد يقود سيارته ناحية خوجاند، سألني قائلاً: «ألا تخشى السفر في هذه المناطق؟» كنا قد توقفنا لملء خزان الغاز في سيارته، وقد كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها أحداً يستخدم الغاز بدلاً من البنزين. كان جمشيد طبيباً في الثلاثينات من عمره، رغم أن شعره كان يتساقط بالفعل من مقدمة رأسه. إلى حدٍ ما، كان شعره المتساقط من مقدمة الرأس تعوضه لحية قصيرة سوداء. توقف ليأخذني من جانب الطريق وتجاذبنا أطراف الحديث لفترةٍ طويلة حول مجموعةٍ متنوعة من الموضوعات.

أجبته قائلاً: «نعم، أعرف أن هناك مخاطر، وأحياناً أتساءل ماذا يجب أن أفعل. ولكنني لستُ خائفاً لأنني أعرف أن الله يرعاني. هذا لا يعني أن كل شيءٍ سيكون بالضرورة سهلاً أو مريحاً، ولكني على ثقةٍ بأن ملائكة الله ستحميني.»

«ولكن ماذا لو لم تحميك؟»

«أحياناً يسمح لنا الله باختبار المعاناة، وهدف هذه العملية في الغالب تنقيتنا وجعلنا حسب مشيئة الله. في النهاية، كلنا نموت، ولذلك علينا جميعاً الاستعداد للأبدية. إذا سمح لي الله أن أعيش لفترةٍ أطول، ينبغي أن أثق أن لديه هدفاً من وجودي على هذه الأرض.»

«أعتقدُ أن الله يهتم بك لأنك سائح روحاني!»

«أحياناً تحدث أهوالٌ حتى للسائحين الروحانيين.»

«نعم، من الممكن أن يتعثروا في الطريق مثلما حدث معك اليوم!»

«بالضبط! فأنا لم أكن أستطيع العودة من «بحر طاجيكستان» بدونك! وبنفس الطريقة، نحن جميعاً بحاجة إلى شخصٍ معنا في رحلة الحياة يمكنه أن يكشف لنا الطريق ويساعدنا وقت الحاجة.»

«ولكن أنت تسير وحدك، أي أنك لا تفعل ما تقوله!»

«نعم، هذا ما يبدو. ولكني في الواقع أعتقدُ أن معي مرافق في كل وقتٍ، وقد أرسلكَ أنت لمساعدتي!»

«ماذا تقصد؟»

«أعني أنه من الأسهل أن يكون لدينا شخص آخر على طريق الحياة، وهذا بالضبط ما وعده عيسى المسيح لأولئك الذين يحبونه. فقد قال لأتباعه: «وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ.»١١٦

«كيف يمكن أن يكون عيسى المسيح معك؟ إنه الآن في السماء مع الله!»

«هذا صحيحٌ أيضاً. ومع ذلك، قبل موته وقيامته من بين الأموات قال لتلاميذه: «لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي، وَلكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ.»١١٧

«من هو هذا المعزي الذي تتحدث عنه؟»

«وصف عيسى المسيح هذا المعزي على النحو التالي:

«إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ، وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ، رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ، لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ. لاَ أَتْرُكُكُمْ يَتَامَى. إِنِّي آتِي إِلَيْكُمْ...»١١٨

«إذا كان عيسى المسيح قد قال: «إِنِّي آتِي إِلَيْكُمْ»، فلماذا يقول أيضاً إن هذا المعزي «أي الروح القدس» سوف يأتي إليكم؟»

يوصف الروح القدس في الكتاب المقدس باسم «روح عيسى».١١٩ ولهذا السبب يريد أن يغير حياتنا ليجعلنا نسير بالأكثر حسب قصد الله. ولهذا السبب أيضاً يجلب الروح القدس إلى عقولنا تعاليم الله حتى لا نضيع في رحلة الحياة. قال عيسى المسيح: «وَأَمَّا الْمُعَزِّي، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ.»١٢٠

«لكنه لا يزال يجعلك تتعثر على الطريق اليوم.»

«نعم، إلى أن جئتَ إليَّ! شكراً جزيلاً على مساعدتك ووصولي إلى هنا!»

«نحن الطاجيك نقول إن الضيف مرسلٌ من الله. ولذلك أعتقد أن الله سمح بتعثرك حتى تأتي إلى بيتنا! أريد أن أقدمك إلى أسرتي.»

أوقف السيارة أمام بوابةٍ حديدية كبيرة. كانت المباني منظمة حول فناء مركزي. وفيما خلعنا أحذيتنا ذهبنا إلى الداخل. بعد حرارة النهار سعدتُ لوجودي في مكانٍ بارد مظلل في الداخل. وكم كانت غبطتي لوجود فرصة للاسترخاء قليلاً بعد السفر من قرغيزستان. رغم التحليق بالطائرة فوق الجبال من بيشكيك الى دوشانبي، كانت الرحلة البرية عبر الممر إلى خوجاند متعبة. (نعم، فالسائحون الروحانيون يمكنهم

استخدام الطائرات أيضاً مثلما كانوا يستخدمون في الماضي وسائل النقل المتاحة، حتى لو كان مجرد حمارٍ أو حصان!)

قال جمشيد: «هذه زوجتي زارينا». فألقيتُ عليها التحية باحترامٍ قبل أن تذهب زارينا إلى غرفةٍ أخرى.

وعندما رأيتُ مهداً خشبياً وسط الأرضية سألته: «من هذا؟»

«لقد وُلِدَتْ قبل ثلاثة أشهر.»

«ما اسمها؟»

«منيرة».

نظر جمشيد إلى ابنته النائمة وهو يشعر بالفخر. فامتنعتُ عن التعليق بخصوص روعة جمال الطفلة أو الإشادة بها بأي طريقةٍ أخرى لأنني كنتُ أعرف أن الكثير من الناس في آسيا الوسطى يخافون من العين الشريرة.

كان يبدو أن جمشيد يقرأ أفكاري، فقال لي: «انظر! طفلتنا لديها رفيقٌ روحي أيضاً، تماماً مثل الروح القدس الذي تقول إنه معكم!»

فنظرتُ في الاتجاه الذي كان يشير إليه ورأيتُ تميمة مثبتة على ملابس الرضيعة.

قال جمشيد موضحاً: «هذه تحمي طفلتنا من الجن والأرواح الشريرة التي قد تحاول مهاجمتها.»

«هل تخاف من العين الشريرة؟»

«كل شخصٍ يخاف من العين الشريرة. وحتى إذا لم تكن موجودة، فمن الأمان وضع تميمة هناك في حالة الضرورة!»

«لماذا تعتقد أن التميمة يمكن أن تكون مفيدة؟ هل تعرف ما يقوله القرآن عن العين الشريرة؟»

فتوقف جمشيد وتساءل: «القرآن؟» ثم اعترف قائلاً: «عذراً، لا أعرف ما يقوله عن العين الشريرة. ماذا يقول؟»

«لا شيءٍ على الإطلاق. إذا كنتَ تقرأ القرآن، فلن تجد شيئاً عن العين الشريرة أو عن الحاجة إلى أي نوعٍ من التعاويذ للحماية من ذلك.»

«حقاً؟ ولكن من المؤكد أنه يحكي عن العين الشريرة، وإلا لماذا يخاف الجميع منها ويعلقون التعويذات على أطفالهم للحماية من العين الشريرة؟»

«لأن ما تخافه هو في الواقع الاعتقاد الشعبي السائد الذي يرجع تاريخه ربما إلى ما قبل الإسلام، وليس من تعاليم الإسلام.»

فكر جمشيد للحظات ثم قال: «لم أسمع عن ذلك من قبل بهذه الطريقة، ولكنك على الأرجح محقٌ. فعندما نضع بذور نبات الحرمل الشائع على الفحم الساخن ودوامات الدخان حول رأس الطفل لطرد العين الشريرة، فإننا في الواقع لا نصلي إلى الله ولكن إلى ملكٍ ميت اسمه نقشبند، وهو لم يكن حتى مسلماً بل زرادشتياً عاش قبل مجيء الإسلام! ونحن نصلي هذه الصلاة باللغة الطاجيكية.

‘Aspand balla band
Ba haq shah-e-naqshband
Chashm-e-aaish chashm-e-khaysh
Chashm-e-adam-e bad andaysh
Besuzad dar atash-e-taiz’.”121

«ما معناها باللغة الروسية؟»

«يمكنني ترجمتها بهذه الطريقة:

«هذا نبات الحرمل الشائع الذي يطرد العين الشريرة.

نطلب بركة الملك نقشبند

من عين اللاشيء وعين الأقارب

وعين الأصدقاء وعين الأعداء

ولتحترق كل الشرور في هذه النار المتوهجة.»١٢٢

«عندما تخاف العين الشريرة، فأنت تخاف اللعنة التي تعتقد أن تصل إلى الطفل من خلال شخصٍ حاسد. من أين تأتي قوة اللعنة؟ هل هي من عند الله أم من عند الأرواح الشريرة»؟

«من الشيطان أو الأرواح الشريرة مثل الجن.»

«نعم، هذا صحيحٌ، ولكن المسألة تعود جزئياً إلى خوفك.»

«ماذا تقصد؟»

«أنت أبٌ صالح. وأنا متأكد أن زوجتك زارينا أمٌ صالحة تهتم بطفلتك للغاية من حيث إطعامها، وتغيير ملابسها، ومعانقتها، واللعب معها، وعمل كل ما تفعل الأم الصالحة مع طفلتها الرضيعة. وكلٌ منكما يريدها أن تنمو في القامة والصحة. وفي أعماق قلبك، تريد أن تكون طفلتك صادقة لطيفة مخلصة يحترمها الناس ليس بسبب ما تفعله ولكن بسبب شخصيتها.»

«أنت على حقٍ. هذا ما نريده لابنتنا.»

«ولكن ماذا يحدث إذا حصل لها مكروهٌ، مثلما حدث معي اليوم على الطريق؟ لقد تقطعت بي السبل. وأنت نفسك سألتني كيف يمكن القول إن الله يرعاني إذا كان من المفترض أن أكون في سياحةٍ روحية!»

«ما علاقة هذا الكلام بصغيرتي منيرة وبتعويذتها؟»

«أنت أبٌ وتهتم بابنتك، ولكنك تعلم أنها عندما تكبر سوف تواجه المصاعب والأزمات. ألا تظن أن الله يهتم بنا بنفس الطريقة؟ إنه يحبنا مثلما تحب أنت منيرة، ولكن إذا لم تواجه الصعوبات في الحياة فلن تكون ناضجة. الله يريدنا أن ننمو أيضاً.»

«ولكن من الواجب أن نهتم بعائلاتنا وأن نفعل ما في وسعنا للاعتناء بهم وحمايتهم.»

«نعم، من الواجب أن نهتم، ولكن خوفنا على أطفالنا أو من الأشياء الأخرى يمكنه أحياناً أن يعرقل معرفة الله بالصدق والحق.»

«كيف يمكن أن يكون هذا؟ كيف يمكن أن يعرقل خوفنا معرفتنا لله؟»

«هل سمعتَ عن أيوب؟»

«لقد سمعتُ مجرد اسمه، ولكن لا أعرف أي شيءٍ عنه.»

«لقد مرّ بتجربة أن ما كان يخافه حدث فعلاً. فقد قال:

لأَنِّي ارْتِعَابًا ارْتَعَبْتُ فَأَتَانِي،

وَالَّذِي فَزِعْتُ مِنْهُ جَاءَ عَلَيَّ.»١٢٣

«ما الذي كان يخافه أيوب؟»

«كان خائفاً على أولاده. نقرأ في الكتاب المقدس أنه قبل وقوع سلسلةٍ من الكوارث، كان أيوب شديد القلق على أولاده:

«وَكَانَ بَنُوهُ يَذْهَبُونَ وَيَعْمَلُونَ وَلِيمَةً فِي بَيْتِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي يَوْمِهِ، وَيُرْسِلُونَ وَيَسْتَدْعُونَ أَخَوَاتِهِمِ الثَّلاَثَ لِيَأْكُلْنَ وَيَشْرَبْنَ مَعَهُمْ. وَكَانَ لَمَّا دَارَتْ أَيَّامُ الْوَلِيمَةِ، أَنَّ أَيُّوبَ أَرْسَلَ فَقَدَّسَهُمْ، وَبَكَّرَ فِي الْغَدِ وَأَصْعَدَ مُحْرَقَاتٍ عَلَى عَدَدِهِمْ كُلِّهِمْ، لأَنَّ أَيُّوبَ قَالَ: «رُبَّمَا أَخْطَأَ بَنِيَّ وَجَدَّفُوا عَلَى اللهِ فِي قُلُوبِهِمْ». هكَذَا كَانَ أَيُّوبُ يَفْعَلُ كُلَّ الأَيَّامِ.»١٢٤

ولكنكَ قلتَ إن بعض الكوارث وقعت. هل تقصد أن الله سمح بمعاناة أيوب بسبب خوفه؟»

«نقرأ في الكتاب المقدس أن الشيطان هو الذي هاجم أيوب في الواقع وسبَّب هذه الكوارث. الشيطان يحاول مهاجمتنا في نقاط ضعفنا. لماذا تعتقد أن الشيطان هاجم أيوب بهذه الطريقة؟»

«أنت قلتَ إن هذه نقطة ضعفه، ولكنك قلتَ إنه أصعد محرقات حتى لا يحدث ما كان يخافه. وأعتقد أن المحرقة أعظم بكثيرٍ من تعويذةٍ وضعناها على ابنتنا. ولكن هل تقصد أن محرقات أيوب لم توقف الكوارث؟»

«هذا صحيحٌ.»

«ولكن لماذا؟ لماذا لم يوقف الله الكوارث؟»

«ربما لأن أيوب كان كثير الاهتمام بعائلته لدرجة أن طبيعة الله المحبة غابت عن نظره. كان أيوب يخاف الكوارث وكان أيضاً يخاف الله، ولكن ربما يكون خوفه هو الذي منعه من معرفة الله بدرجةٍ أقرب. في الواقع، يسجل الكتاب المقدس أن أيوب يقول في وقتٍ لاحق إلى الله:

«قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ،
وَلاَ يَعْسُرُ عَلَيْكَ أَمْرٌ.
فَمَنْ ذَا الَّذِي يُخْفِي الْقَضَاءَ بِلاَ مَعْرِفَةٍ؟
وَلكِنِّي قَدْ نَطَقْتُ بِمَا لَمْ أَفْهَمْ.
بِعَجَائِبَ فَوْقِي لَمْ أَعْرِفْهَا.
اِسْمَعِ الآنَ وَأَنَا أَتَكَلَّمُ. أَسْأَلُكَ فَتُعَلِّمُنِي.
بِسَمْعِ الأُذُنِ قَدْ سَمِعْتُ عَنْكَ،
وَالآنَ رَأَتْكَ عَيْنِي.
لِذلِكَ أَرْفُضُ وَأَنْدَمُ فِي التُّرَابِ وَالرَّمَادِ.»١٢٥

«هل تقصد أن أهم ما في الحياة هو معرفة الله؟»

«هذا صحيحٌ! كان أيوب يعرف الله بأذنيه، وهذه «معرفة عقلية»، ولكنه لم يختبر الوحي الشخصي من الله. وعندما كشف له الله نفسه، فهم أيوب أن تصوره عن الله كان خاطئاً.»

«ولهذا وثق في محرقاته كما نثق نحن في تمائمنا.»

«كان أيوب يخاف الله وكان خائفاً على أولاده. ولذلك قام بالطقوس الدينية الصحيحة، ولكن بدافع الخوف. ومع ذلك، من خلال تجارب المعاناة فهم أن معرفة الله أهم بكثيرٍ.»

«هل تقصد أنه من الممكن أن نكون متدينين جداً، مثل أيوب، ولا يزال لدينا فهم محدود لطبيعة الله؟ هل يمكن أن يتصرف رجلٌ عظيم هكذا؟»

«السؤال هو: «ما الذي يحفز تصرفاتنا الدينية؟ هل الخوف؟ هناك دافعٌ آخر أهم بكثيرٍ من الخوف. إذا كنا نعرف الله بدرجةٍ أقرب، فإن دوافعنا تتغير لأننا نفهم أن الله يهتم بنا مثل أبٍ صالح.»

«إني أحاول أن أكون أباً صالحاً، ولكني خائفٌ أيضاً.»

«ولكن هل تريد أن تكبر طفلتك وهي تخاف منك؟»

«لا، أريدها أن تحبني وأن تثق بي.»

«والله يريد الشيء نفسه في علاقتنا معه! تحدث عيسى المسيح عن هذه الثقة في محبة الله عندما شبَّه الله بأبٍ صالح يعطي عطاياه لأولاده. قال عيسى المسيح:

«لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَبِمَا تَشْرَبُونَ، وَلاَ لأَجْسَادِكُمْ بِمَا تَلْبَسُونَ. أَلَيْسَتِ الْحَيَاةُ أَفْضَلَ مِنَ الطَّعَامِ، وَالْجَسَدُ أَفْضَلَ مِنَ اللِّبَاسِ؟ أُنْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا؟ وَمَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ عَلَى قَامَتِهِ ذِرَاعًا وَاحِدَةً؟ وَلِمَاذَا تَهْتَمُّونَ بِاللِّبَاسِ؟ تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو! لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَغْزِلُ. وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا. فَإِنْ كَانَ عُشْبُ الْحَقْلِ الَّذِي يُوجَدُ الْيَوْمَ وَيُطْرَحُ غَدًا فِي التَّنُّورِ، يُلْبِسُهُ اللهُ هكَذَا، أَفَلَيْسَ بِالْحَرِيِّ جِدًّا يُلْبِسُكُمْ أَنْتُمْ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟ فَلاَ تَهْتَمُّوا قَائِلِينَ: مَاذَا نَأْكُلُ؟ أَوْ مَاذَا نَشْرَبُ؟ أَوْ مَاذَا نَلْبَسُ؟ فَإِنَّ هذِهِ كُلَّهَا تَطْلُبُهَا الأُمَمُ. لأَنَّ أَبَاكُمُ السَّمَاوِيَّ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هذِهِ كُلِّهَا. لكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ. فَلاَ تَهْتَمُّوا لِلْغَدِ، لأَنَّ الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ. يَكْفِي الْيَوْمَ شَرُّهُ». ١٢٦

«أنت تقول إن الله يحبنا. ولكن هذا يعني... هذا يعني أنه إذا كان الله موجوداً في كل مكانٍ ويعرف كل شيءٍ، فليس لدينا ما نخافه!»

«بالضبط! إذا كان الله نفسه يهتم بنا، فنحن لسنا بحاجة إلى الاعتماد على الطقوس الدينية، بما فيها الذبائح التي كان يقدمها أيوب. عندما يكون الله نفسه بجانب الطفل ويحمي الطفل، فإننا لا نعد بحاجة إلى تميمةٍ أو أي بديلٍ آخر عن الله نفسه. في الواقع، من الممكن أن تكون التعويذة مهينة لله لأنها تدل على أننا نضع ثقتنا في تعويذةٍ وليس في الله الحي الحقيقي.»

«عندما نفعل ذلك، هل من الممكن أن يسمح الله أن نعاني ما كنا نخافه حتى ندرك أن ثقتنا لم تكن في المكان الصحيح؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن تعويذتي تمثل خطراً بدلاً من أن تمثل مصدر مساعدة!»

«المهم أن نثق بحقيقة الله الذي هو ذاتي، بدلاً من الرمز الذي هو غير ذاتي.»

«هل هذا ما كنت تقصده على الطريق بخصوص رفيقك الروح القدس المعزي؟ لقد قلتَ إنه معك في كل وقتٍ.»

«قلتُ إن عيسى المسيح وعد بأن يكون معنا إلى انقضاء الدهر. ومع ذلك، بإمكاننا أن نُحزِن روح الله القدوس بأشياءٍ لا ترضي الله.»

«الطفل أيضاً يمكنه أن يفعل أشياء تُحزِن والديه. ولكن ما زلنا نحب أطفالنا حتى لو أحزنونا بأشياءٍ يجب ألا يفعلوها.»

«نحن أولاد الله. ومع ذلك، على الطفل أن يتعلم احترام والديه. فرغم أن الوالدين يحبان الأطفال، هناك أيضاً مساحة للخوف في العلاقة. هناك مرحلةٌ في نمو فهم الطفل الصغير للصواب والخطأ عندما يكون الطفل بحاجةٍ للخوف من استياء الوالدين وعقابهما. من خلال هذا الخوف، يتعلم الطفل أن يعمل الصواب ويتجنب الخطأ. الشيء نفسه يحدث في علاقتنا مع الله. يكتب داود النبي في المزامير:

«رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الرَّبِّ.
فِطْنَةٌ جَيِّدَةٌ لِكُلِّ عَامِلِيهَا.»١٢٧

كما كتب سليمان ابن داود النبي:

«بَدْءُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الرَّبِّ،
وَمَعْرِفَةُ الْقُدُّوسِ فَهْمٌ.»١٢٨

وفي موضعٍ آخر يكتب سليمان:

«مَخَافَةُ الرَّبِّ رَأْسُ الْمَعْرِفَةِ،
أَمَّا الْجَاهِلُونَ فَيَحْتَقِرُونَ الْحِكْمَةَ وَالأَدَبَ.»١٢٩

ولذلك يجب أن يكون خوفنا في المكان المناسب. فاحترام الله بقداسةٍ مثل احترام الطفل الذي يخشى استياء والديه، وبالتالي لا يريد أن يفعل الخطأ. وهذا هو النوع الصحيح من الخوف.»

«الخوف أو الحب! هناك مساحةٌ للخوف الصحي ولكن يجب أن تكون متوازنة بفهمٍ صحيح لمحبة الله. هل هذا ما تقصده؟»

«نعم. هل تعرف ماذا حدث عندما خلق الله الإنسان؟»

«أعرف أنه صنع آدم الإنسان الأول ولكني لا أتذكر ماذا حدث بعدها.»

«وضع الله آدم وحواء في جنة عدن وسمح لهما بالأكل من كل شجر الجنة فيما عدة شجرة واحدة. كانت هذه الثمرة المحرمة من «شجرة معرفة الخير والشر». قبل أن يأكل آدم وحواء من تلك الثمرة كانا يعرفان الخير فقط. ومع ذلك، جاء اليوم الذي

اختارا فيه عصيان تعليمات الله. فبعد الأكل من الثمرة المحرمة، عرفا معنى الشر أيضاً. ومثلما يختبئ الأطفال عن والديهم عندما يعلمون أنهم أخطأوا، حاول آدم وحواء الاختباء من الله. قبل أن يأكلا من الثمرة المحرمة، كانا يتمتعان بعلاقةٍ شخصية وثيقة مع الله لأنهما كانا يحترمان الحدود التي وضعها الله لهما. كان خوفهما من الله هو النوع الصحيح، والذي كان رأس الحكمة. ومع ذلك، عندما أخطآ وعصيا الله، صارا يخافان عقاب الله لأنهما كانا يعرفان أنهما أخطآ.»

«ولكن لماذا أخطآ؟ ألم يريدا علاقةً صحيحة مع الله؟»

«تعرض آدم وحواء لغواية الشيطان. ومع ذلك، استمر الله في حبهما.»

«هكذا خدع الشيطان آدم وحواء، وأراد الشيطان أيضاً مهاجمة أيوب! إذا كان الشيطان يريد دائماً الهجوم علينا أو إرسال الجن ضدنا، فنحن بالطبع بحاجةٍ للحماية من العين الشريرة! ولهذا السبب عندي تعويذة!»

«ولكن عليك أن تسمع نهاية قصة آدم وحواء! هناك أخبارٌ سارة أيضاً! فبينما كان الله يعاقبهما، وعدهما بأنه يوماً ما سيرسل المخلص الذي سيسحق قوة الشيطان. في جنة عدن، قال الله للشيطان:

«وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ،
وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا.
هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ،
وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ»١٣٠

«تحققت هذه النبوة في عيسى المسيح الذي سحق قوة الشيطان. فهاجم الشيطان عيسى المسيح وحاول قتله عن طريق بعض الخطاة الذين صلبوه. ومع ذلك، كان عيسى المسيح بلا خطية، وبموته أخذ على نفسه العقاب الذي لم يكن يستحقه بل نستحقه نحن. ثم أقام الله عيسى المسيح وتوّجه بالمجد والجلال. وبذلك سحق عيسى المسيح رأس الشيطان. إذا كنا نؤمن بعيسى المسيح، يمكننا أيضاً أن نشارك في هذا الانتصار على الشيطان. إذا كنا نؤمن بعيسى المسيح، لسنا بحاجة للخوف من قوى الظلام. لسنا بحاجة للخوف من العين الشريرة. فالتعويذات والتمائم لا قيمة لها لأن قوة الله لها سلطان على الجن والأرواح الشريرة. لقد هزم عيسى المسيح قوى الظلام، ولذلك علينا أن ندعو باسم عيسى المسيح عندما نريد أن نطرد قوى الظلام. وعد عيسى المسيح المؤمنين به أنهم يستطيعون طرد الشياطين باسمه.١٣١ وهذا السلطان ممنوحٌ لمن يعرفون عيسى المسيح حقاً ويؤمنون به ومملوئين من الروح القدس.»

فقال جمشيد متعجباً: «عيسى المسيح لديه السلطان على طرد الأرواح الشريرة! هل يستطيع أيضاً كسر لعنة العين الشريرة؟ أريدُ هذا النوع من السلطان إذا كان متاحاً لي ولأطفالي!»

«لا شيء يفصلنا عن محبة الله إذا كنا نؤمن بعيسى المسيح. مكتوبٌ في الإنجيل: «فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ، وَلاَ مَلاَئِكَةَ وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّاتِ، وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً، وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ، وَلاَ خَلِيقَةَ أُخْرَى، تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا.»١٣٢

ولهذا السبب أيضاً يقول الإنجيل: «اَللهُ مَحَبَّةٌ، وَمَنْ يَثْبُتْ فِي الْمَحَبَّةِ، يَثْبُتْ فِي اللهِ وَاللهُ فِيهِ. بِهذَا تَكَمَّلَتِ الْمَحَبَّةُ فِينَا: أَنْ يَكُونَ لَنَا ثِقَةٌ فِي يَوْمِ الدِّينِ، لأَنَّهُ كَمَا هُوَ فِي هذَا الْعَالَمِ، هكَذَا نَحْنُ أَيْضًا. لاَ خَوْفَ فِي الْمَحَبَّةِ، بَلِ الْمَحَبَّةُ الْكَامِلَةُ تَطْرَحُ الْخَوْفَ إِلَى خَارِجٍ لأَنَّ الْخَوْفَ لَهُ عَذَابٌ. وَأَمَّا مَنْ خَافَ فَلَمْ يَتَكَمَّلْ فِي الْمَحَبَّةِ.»١٣٣

فاعترف جمشيد: «أعلمُ أنني أخاف كثيراً. ولكن إذا كانت محبة الله تطرد الخوف، فأنا أريد ذلك! إذا كانت محبة الله الكاملة تطرح الخوف خارجاً، فإن مخاوفي تكشف أنني لا أؤمن حقاً بالله الذي يحبني. أعتقدُ أنني مثل أيوب: فقد كنتُ أثق بأعمالي الدينية بدلاً من معرفة الله بطريقةٍ شخصية. كنتُ أثق بالرموز الدينية مثل التمائم بدلاً من الثقة بطبيعة الله المحبة.»

«هل تريد أن تحيد عن ثقتك الخاطئة في الرموز وتضع ثقتك الحقيقية في الله نفسه؟ إذا كنتَ تريد ذلك، فعليك أن تقول هذا لله وتطلب منه أن يغيرك حتى تكون لديك الدوافع الصحيحة.»

وفجأة جثا جمشيد على ركبتيه وتحدث إلى الله وكأنه لم يتحدث إليه من قبل. وخرجت من قلبه كلماتٌ لم يتعلمها من أحدٍ ولكنها تدفقت من داخل نفسه. كان يقول: «ربي وإلهي، أعترفُ أنني كنتُ أسلك بدافع الخوف وليس الحب. وبسبب مخاوفي كنتُ أقوم بممارسات دينية وبأعمالٍ صالحة ولكني لم أكن أعملها بدوافع صحيحة. أريدُ أن أسلك لا حسب الخوف بل حسب الحب. انزع عني دوافعي الخاطئة وسامحني على ذلك. أطلبُ منك أن تعطيني إعلاناً جديداً عن حبك لي حتى أعرفك معرفةً أفضل. اكشف لي عن قلبك المحب وعن حبك للبشر، الذي هو مثل حب الوالدين للطفل. أعلمُ أنك تحبني وترعاني، وأريدُ أن أختبر حبك الأبوي الذي سيطرح الخوف. ساعدني كي أعرفك معرفةً صادقة وحقيقية.»

الفصل 7

طاجيكستان: التعامل مع الفقدان

قال جمشيد: «قلتَ لي إن أيوب عانى من النكبات، ولكني أعتقدُ أنها لا شيء بالنسبة للنكبات التي عانت منها عائلتنا.» كنتُ لا أزال مقيماً في منزله وكان مهتماً بمتابعة المناقشة.

فسألته: «كيف عانت عائلتك؟»

«قُتِلَ أخي الأصغر في الحرب الأهلية. لم يكن ذنبه: كان يزور بعض الأصدقاء عندما انفجرت فيه قنبلة وقتلته. وقبل ثلاث سنواتٍ كنتُ على جبال بامير مع ابنيَّ المراهقين. وفجأةً، كان هناك ضجيج انهيار أرضي هادر رهيب من فوقنا. فصرختُ قائلاً لهما: «اركضا». ولكن الصخور الساقطة هشمت رأسيهما. حاولتُ أن أفعل ما بوسعي للمساعدة ولكنهما ماتا.»

انفجر جمشيد في البكاء عندما تذكر ابنيه المفقودين. لم أكن أعرف ماذا أقول ولكني ببساطة وضعتُ ذراعي حول كتفه. وقد تأثرتُ كثيراً وشعرتُ بالرغبة في البكاء أيضاً.

مرت بضع دقائق. ثم رفع جمشيد عينيه فجأة وقال: «لماذا يسمح الله بمثل هذه الأحداث؟ هل كان يعاقبنا على شيءٍ ما؟»

فأجبته: «في الواقع لا أعرف كل الأجوبة. في بعض الأحيان يبدو أن الله يسمح بذلك، ولكن في كثيرٍ من الأحيان من الممكن أن يكون هذا في الواقع عمل الشيطان، الذي يأتي ليذبح ويُهلِك وأيضاً ليسرق.١٣٤ لا أستطيع التأكد من السبب في هذه الحالة.»

فهمس جمشيد: «ذات مرةٍ شعرتُ بالغضب من الله لأنه سمح بهذا. ثم قال بصوتٍ أعلى قليلاً: «ولكني أدركُ الآن أننا لا يمكننا أن نفهم عقل الله وأن الشيطان ربما كان مسؤولاً.»

«أنت على حقٍ. لأن هناك العديد من الأشياء التي لا نعرف عنها شيئاً في عالم الغيب. فنحن نلقي مجرد نظراتٍ خاطفة على الأشياء في هذا العالم ولكن هناك العديد من الأشياء الخفية.»

توقفتُ عن الكلام إذ لم أكن أعرف ما أقول. كان جمشيد بحاجةٍ للتعزية وليس لمناقشةٍ فكرية حول المعاناة. وقعت عيناي على ستار حائط جميل المنظر: بساطٌ أو سجاد يغطي الحائط من أمامنا.

رفع جمشيد رأسه ونظر لي. وبدا أنه يستجمع نفسه.

اقترحتُ عليه قائلاً: «هل تريد فنجاناً من الشاي؟»

«ليس الآن.» ثم بدا أنه تذكر التعليق الذي قاله في وقتٍ سابق.

تساءل: «ماذا حدث إذاً لأيوب؟»

«لقد عاني أيضاً من فقدان الأبناء مثلك تماماً. ولكن هل تريد حقاً أن تسمع هذا الآن؟ يمكنني أن أخبرك في وقتٍ آخر إذا كنت تفضّل.»

«لا تقلق بشأني! كثيراً ما أبكي عندما أتذكر ابنيَّ. ولكن قل لي كيف تعامل أيوب مع خسارته. ربما يساعدني هذا في حزني أيضاً.»

«سأقول لك طالما تريد أن تعرف ذلك.»

«نعم، قل لي.»

«تتذكر أنني قلتُ لك بالأمس إن ما كان يخافه أيوب في الواقع حدث له. فحتى الأنبياء يمكن أن يخافوا ويخطئوا. هل تعرف لماذا كان إنساناً عظيماً؟»

«لا. هل بسبب المعجزات الرائعة في حياته؟ ربما مثل المعجزات التي عملها الله من خلال موسى النبي أو عيسى المسيح؟»

«لا، فبقدر ما نعلم لم يختبر أيوب تلك الأنواع من المعجزات. كان السبب أبسط من ذلك بكثيرٍ، ومن الممكن أن نفهمه بطريقةٍ أو بأخرى. سبب عظمة أيوب هو طريقة تعامله مع المعاناة والخسارة رغم أنه لم يكن يفهم سبب حدوث الأحداث الرهيبة في حياته.»

«حقاً؟ كيف تعامل مع الخسارة أو المعاناة؟»

«هل يمكنني أن أقرأ لك ما يقوله الكتاب المقدس عن ذلك؟»

«بالطبع من فضلك.»

«كَانَ رَجُلٌ فِي أَرْضِ عَوْصَ اسْمُهُ أَيُّوبُ. وَكَانَ هذَا الرَّجُلُ كَامِلاً وَمُسْتَقِيمًا، يَتَّقِي اللهَ وَيَحِيدُ عَنِ الشَّرِّ. وَوُلِدَ لَهُ سَبْعَةُ بَنِينَ وَثَلاَثُ بَنَاتٍ. وَكَانَتْ مَوَاشِيهِ سَبْعَةَ

آلاَفٍ مِنَ الْغَنَمِ، وَثَلاَثَةَ آلاَفِ جَمَل، وَخَمْسَ مِئَةِ فَدَّانِ بَقَرٍ، وَخَمْسَ مِئَةِ أَتَانٍ، وَخَدَمُهُ كَثِيرِينَ جِدًّا. فَكَانَ هذَا الرَّجُلُ أَعْظَمَ كُلِّ بَنِي الْمَشْرِقِ.»١٣٥

فقاطعني جمشيد متسائلاً: «أين كان يعيش؟ هل قلتَ أوزبكستان؟»

«لا، ليست أوزبكستان، رغم أنني سمعتُ بعض الناس يعتقدون أنه ربما عاش في آسيا الوسطى! كان يعيش في مكانٍ ما في الشرق الأوسط، ربما في أرض الأردن اليوم. وهذا نقوله من بعض الإشارات التي ذكرها نبيٌ آخر.»١٣٦

«حسناً، لقد كنتُ أتساءل فحسب. على أي حالٍ، يبدو أنه أحد أثرياء آسيا الوسطى! أرجوك أكمل القراءة.»

«وَكَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّهُ جَاءَ بَنُو اللهِ لِيَمْثُلُوا أَمَامَ الرَّبِّ، وَجَاءَ الشَّيْطَانُ أَيْضًا فِي وَسْطِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «مِنَ أَيْنَ جِئْتَ؟»

فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ: «مِنْ الْجَوَلاَنِ فِي الأَرْضِ، وَمِنَ التَّمَشِّي فِيهَا».

فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «هَلْ جَعَلْتَ قَلْبَكَ عَلَى عَبْدِي أَيُّوبَ؟ لأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِي الأَرْضِ. رَجُلٌ كَامِلٌ وَمُسْتَقِيمٌ، يَتَّقِي اللهَ وَيَحِيدُ عَنِ الشَّرِّ».

فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ: «هَلْ مَجَّانًا يَتَّقِي أَيُّوبُ اللهَ؟ أَلَيْسَ أَنَّكَ سَيَّجْتَ حَوْلَهُ وَحَوْلَ بَيْتِهِ وَحَوْلَ كُلِّ مَا لَهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ؟ بَارَكْتَ أَعْمَالَ يَدَيْهِ فَانْتَشَرَتْ مَوَاشِيهِ فِي الأَرْضِ. وَلكِنِ ابْسِطْ يَدَكَ الآنَ وَمَسَّ كُلَّ مَا لَهُ، فَإِنَّهُ فِي وَجْهِكَ يُجَدِّفُ عَلَيْكَ».

فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «هُوَذَا كُلُّ مَا لَهُ فِي يَدِكَ، وَإِنَّمَا إِلَيهِ لاَ تَمُدَّ يَدَكَ». ثمَّ خَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْ أَمَامِ وَجْهِ الرَّبِّ.١٣٧

فتساءل جمشيد: «ماذا فعل الشيطان لأيوب؟»

«تسبَّب الشيطان في سلسلةٍ من الكوارث التي حلّت بعائلته وممتلكاته. ففي يومٍ واحد، فقدَ كل أبنائه وكل ماشيته.»

«كل أبنائه؟ كم كانوا؟»

«سبعة أبناء وثلاث بنات.»

«العشرة قُتِلوا! يا للفظاعة! ماذا حدث؟»

«وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ إِذْ جَاءَ آخَرُ وَقَالَ: «بَنُوكَ وَبَنَاتُكَ كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ خَمْرًا فِي بَيْتِ أَخِيهِمِ الأَكْبَرِ، وَإِذَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ جَاءَتْ مِنْ عَبْرِ الْقَفْرِ وَصَدَمَتْ زَوَايَا الْبَيْتِ الأَرْبَعَ، فَسَقَطَ عَلَى الْغِلْمَانِ فَمَاتُوا...»١٣٨

كان هذا على رأس كوارث أخرى قُتِلت فيها ماشيته أو سُرقت من قِبل المهاجمين الأعداء، وقُتِل معظم عبيده أيضاً ما عدا الذين نجوا لينقلوا له هذه الأخبار.»١٣٩

«ولكن من المؤكد أن الله كان يستطيع منع الشيطان من عمل هذه الأشياء.»

«نعم، أنت على حقٍ: الله لديه السلطان. على سبيل المثال، يبدو أن الشيطان حاول في وقتٍ لاحق أن يقتل عيسى المسيح بطريقةٍ مماثلة عن طريق إرسال رياح قوية بينما كان نائماً في قارب، ولكن عيسى المسيح استطاع أن ينتهر الرياح ويُسكِت الأمواج.١٤٠ ومع ذلك، في حالة أيوب لم يكن الله ليتراجع عن كلمته حتى للشيطان. ربما يكون أبناء أيوب قد ذهبوا إلى السماء، وأنه في نهاية المطاف التقى بهم أيوب، وهكذا تكون الخسارة مؤقتة.»

«حسناً، أدركُ أننا لا نعرف كل الأسباب. واصل القراءة من الكتاب المقدس. كيف تعامل أيوب مع هذه الكوارث الفظيعة؟»

«فَقَامَ أَيُّوبُ وَمَزَّقَ جُبَّتَهُ، وَجَزَّ شَعْرَ رَأْسِهِ، وَخَرَّ عَلَى الأَرْضِ وَسَجَدَ، وَقَالَ:

«عُرْيَانًا خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِ أُمِّي، وَعُرْيَانًا أَعُودُ إِلَى هُنَاكَ.

الرَّبُّ أَعْطَى وَالرَّبُّ أَخَذَ، فَلْيَكُنِ اسْمُ الرَّبِّ مُبَارَكًا».

فِي كُلِّ هذَا لَمْ يُخْطِئْ أَيُّوبُ وَلَمْ يَنْسِبْ للهِ جِهَالَةً.»١٤١

«لا بدَّ أنه كان من الصعب جداً أن يعاني هذه الخسارة الجسيمة أي فقدان الأبناء والممتلكات في نفس اليوم. هذه مثل الخسارة التي يعاني منها بعض الناس أثناء الحرب أو أثناء كارثة مثل زلزال أو تسونامي.»

«نعم. ولكن أيوب لم يكن يعرف أي شيءٍ عن القوى غير المنظورة التي كانت وراء هذه الأحداث الرهيبة. ولهذا السبب فإن تجربة أيوب ذات صلةٍ بحياتنا. فنحن أيضاً يمكننا أن نتعلم من تجربته كيفية التعامل مع الخسارة في حياتنا. وهذا يجعلنا ندرك أنه ربما يكون هناك صراعٌ روحي أكبر وغير مرئي يجري من حولنا قد يؤثر على حياتنا.»

«ماذا حدث بعد ذلك؟»

«ساءت الأمور بالأكثر لرجل الله.» نقرأ:

«وَكَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّهُ جَاءَ بَنُو اللهِ لِيَمْثُلُوا أَمَامَ الرَّبِّ، وَجَاءَ الشَّيْطَانُ أَيْضًا فِي وَسْطِهِمْ لِيَمْثُلَ أَمَامَ الرَّبِّ. فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟»

فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ: «مِنَ الْجَوَلاَنِ فِي الأَرْضِ، وَمِنَ التَّمَشِّي فِيهَا».

فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «هَلْ جَعَلْتَ قَلْبَكَ عَلَى عَبْدِي أَيُّوبَ؟ لأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِي الأَرْضِ. رَجُلٌ كَامِلٌ وَمُسْتَقِيمٌ يَتَّقِي اللهَ وَيَحِيدُ عَنِ الشَّرِّ. وَإِلَى الآنَ هُوَ مُتَمَسِّكٌ بِكَمَالِهِ، وَقَدْ هَيَّجْتَنِي عَلَيْهِ لأَبْتَلِعَهُ بِلاَ سَبَبٍ».

فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ: «جِلْدٌ بِجِلْدٍ، وَكُلُّ مَا لِلإِنْسَانِ يُعْطِيهِ لأَجْلِ نَفْسِهِ. وَلكِنْ ابْسِطِ الآنَ يَدَكَ وَمَسَّ عَظْمَهُ وَلَحْمَهُ، فَإِنَّهُ فِي وَجْهِكَ يُجَدِّفُ عَلَيْكَ».

فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «هَا هُوَ فِي يَدِكَ، وَلكِنِ احْفَظْ نَفْسَهُ».

فَخَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْ حَضْرَةِ الرَّبِّ، وَضَرَبَ أَيُّوبَ بِقُرْحٍ رَدِيءٍ مِنْ بَاطِنِ قَدَمِهِ إِلَى هَامَتِهِ. فَأَخَذَ لِنَفْسِهِ شَقْفَةً لِيَحْتَكَّ بِهَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي وَسَطِ الرَّمَادِ.

فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: «أَنْتَ مُتَمَسِّكٌ بَعْدُ بِكَمَالِكَ؟ بَارِكِ اللهَ وَمُتْ!».

فَقَالَ لَهَا: «تَتَكَلَّمِينَ كَلاَمًا كَإِحْدَى الْجَاهِلاَتِ! أَالْخَيْرَ نَقْبَلُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَالشَّرَّ لاَ نَقْبَلُ؟». فِي كُلِّ هذَا لَمْ يُخْطِئْ أَيُّوبُ بِشَفَتَيْهِ.»١٤٢

لم يلم أيوب الله على معاناته، ولكنه كان يتساءل مفكراً لماذا كان يعاني بهذه الطريقة. إذا نظرنا إلى الأحداث المادية المنظورة لوحدها فإنها تبدو ظالمة ولا يمكننا أن نفهمها.»

«إني أفهم ما تقول، ولكن من الصعب التوافق مع مثل هذه الأمور إذا نظرنا إلى الأحداث المادية المنظورة لوحدها.»

«هذا صحيحٌ أيضاً. حدث الشيء نفسه عندما سمع بعض أصحاب أيوب ما حدث له وجاءوا لزيارته. فقد روعهم ما رأوه ولم يعرفوا كيف يفسروه. كانوا يظنون أن إنساناً باراً مثل أيوب يجب أن يعيش حياةً سعيدة مزدهرة كعلامةٍ على بركة الله.»

«يؤمن كثيرٌ من الناس اليوم بهذا أيضاً. فهم يقولون إنه إذا كان إنسانٌ ما يعاني فلا بدّ أن تكون هذه علامة على أنه أخطأ وبالتالي تكون معاناته خطأ الشخص نفسه. على سبيل المثال، يقول الهندوس والبوذيون إنه إذا وُلِدَ شخصٌ ما مشلولاً أو أعمى أو في أسرةٍ فقيرة أو من الطبقة الدنيا، فهذا خطأ الشخص نفسه بسبب خطايا كان قد ارتكبها في وجوده السابق. إذا وضعتَ اللوم على شخصٍ مكلوم بهذه الصورة، فأنت لا تتعاطف معه بالمرة.»

«أعتقدُ أن هذا مقنعٌ تماماً! كان يبدو أن أصحاب أيوب يفكرون بهذه الطريقة بالتأكيد. فبعد قرونٍ، في زمان عيسى المسيح، ظن الناس أيضاً أن المرض لا بدّ أن يكون نتيجة خطية الإنسان. أما عيسى المسيح فكان له موقفٌ مختلف تماماً.»

«كيف؟»

نقرأ في الإنجيل الحادثة التالية عن عيسى المسيح:

«وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى إِنْسَانًا أَعْمَى مُنْذُ وِلاَدَتِهِ، فَسَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، مَنْ أَخْطَأَ: هذَا أَمْ أَبَوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «لاَ هذَا أَخْطَأَ وَلاَ أَبَوَاهُ، لكِنْ لِتَظْهَرَ أَعْمَالُ اللهِ فِيهِ. يَنْبَغِي أَنْ أَعْمَلَ أَعْمَالَ الَّذِي أَرْسَلَنِي مَا دَامَ نَهَارٌ. يَأْتِي لَيْلٌ حِينَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ. مَا دُمْتُ فِي الْعَالَمِ فَأَنَا نُورُ الْعَالَمِ». قَالَ هذَا وَتَفَلَ عَلَى الأَرْضِ وَصَنَعَ مِنَ التُّفْلِ طِينًا وَطَلَى بِالطِّينِ عَيْنَيِ الأَعْمَى. وَقَالَ لَهُ: «اذْهَبِ اغْتَسِلْ فِي بِرْكَةِ سِلْوَامَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: مُرْسَلٌ، فَمَضَى وَاغْتَسَلَ وَأَتَى بَصِيرًا.»١٤٣

فهتف جمشيد: «هل شفى الأعمى؟! إنه لم يقبل المعاناة فحسب بل فعل شيئاً حيال ذلك!»

«نعم. أعتقدُ أن الاستجابة المناسبة للمعاناة هي الشفقة. فبقدر الإمكان يجب أن نفعل شيئاً حيال ذلك. الشفقة هي التي دفعت عيسى المسيح لشفاء المرضى المتألمين. يقول الإنجيل: «وَكَانَ يَسُوعُ يَطُوفُ الْمُدُنَ كُلَّهَا وَالْقُرَى يُعَلِّمُ فِي مَجَامِعِهَا، وَيَكْرِزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ، وَيَشْفِي كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضُعْفٍ فِي الشَّعْبِ. وَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعَ تَحَنَّنَ عَلَيْهِمْ، إِذْ كَانُوا مُنْزَعِجِينَ وَمُنْطَرِحِينَ كَغَنَمٍ لاَ رَاعِيَ لَهَا.»١٤٤

«هذا يختلف عن أصحاب أيوب الذين اعتقدوا أن المعاناة لا بدّ أن تكون نتيجة للخطية.»

«نعم. فقد بدأ افتقارهم للتعاطف والشفقة الحقيقية يُظهِر نفسه بينما كانوا يحاولون تبرير معاناته بالقول إن أيوب نفسه لا بدّ أنه أخطأ. كان أصحاب أيوب هؤلاء من «المعزين» يعرفون بعض الحقيقة لكنهم كانوا يعتقدون أنها كل الحقيقة. فنحن نعلم جميعاً أن بعض المعاناة تأتي بسبب الخطية، سواء الخطية الخاصة أو خطية شخصٍ آخر تؤثر علينا. ومع ذلك، ليست هذه هي القصة كلها.»

«كيف انتهت قصة أيوب إذاً؟»

«في النهاية، تدخل الله نفسه وتحدث إليهم جميعاً. لم يقدم الله كل الإجابات ولكنه أظهر لهم أن هناك «صورةً أكبر» بكثيرٍ من عقولنا البشرية المحدودة. وأقرّ أيوب أمام الله بأنه نطق بما لم يفهم.١٤٥ ثم تكلم الله مباشرةً إلى أحد أصحابه وقال: «قَدِ احْتَمَى غَضَبِي عَلَيْكَ وَعَلَى كِلاَ صَاحِبَيْكَ، لأَنَّكُمْ لَمْ تَقُولُوا فِيَّ الصَّوَابَ كَعَبْدِي أَيُّوبَ.»١٤٦

«الله يدعو أيوب عبداً. فلماذا لا يدعوه نبياً؟»

«رغم أن الله نفسه أكد أن أيوب «قال الصواب» في الله، فهذا في حدّ ذاته لا يعني أننا نستطيع أن نقول إن أيوب كان «نبياً»! فالنبي هو الشخص الذي لا يقول الصواب في الله فحسب بل يكون أيضاً رسولاً من الله يوّصل للآخرين ما تلقاه بالوحي من الله.»

«وهل فعل أيوب هذا أيضاً؟"

"نعم، في الواقع! كان أيوب يتمتع بنظرةٍ عميقة في الحقائق الروحية التي لا بدّ أنه تلقاها عن طريق الوحي من الله العلي. قال أيوب:

أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ وَلِيِّي حَيٌّ،
وَالآخِرَ عَلَى الأَرْضِ يَقُومُ،
وَبَعْدَ أَنْ يُفْنَى جِلْدِي هذَا،
وَبِدُونِ جَسَدِي أَرَى اللهَ.
الَّذِي أَرَاهُ أَنَا لِنَفْسِي،
وَعَيْنَايَ تَنْظُرَانِ وَلَيْسَ آخَرُ.
إِلَى ذلِكَ تَتُوقُ كُلْيَتَايَ فِي جَوْفِي.»١٤٧

لا بدّ أن هذه الحقيقة العميقة قد تلقاها أيوب بالوحي من الله.»

«ولكن من الذي كان أيوب يتحدث عنه؟ من هو هذا الوليّ (الفادي) الذي سيقوم على الأرض؟ ولماذا الحاجة إلى وليّ؟»

«كان أيوب يعرف أن هناك مخلصاً سيحرّره أو ينقذه أو يفتديه. ومع ذلك، فإن سداد الدين معناه شراء الشيء: أي استعادة الملكية من خلال دفع مبلغ محدد. فمن تظنه على استعدادٍ لعمل هذا لأيوب؟ وما رأيك بخصوص الثمن الذي لا بدّ من دفعه؟ لماذا كان أيوب يتطلع إلى الزمان الذي سيقف فيه وليّه على الأرض؟»

«أظن أنك ستقول عيسى المسيح، ولكن أيوب عاش قبل قرونٍ من زمان عيسى المسيح كما نعيش نحن بعد قرونٍ من زمانه.»

«بالضبط! ولهذا تكمن روعة نبوته: فالله كان يعلم مقدماً ما كان على وشك أن يفعله! يمكننا أن نرى نبوة أيوب تتحقق حسب كلمات الإنجيل:

«لأَنَّهُ قَدْ ظَهَرَتْ نِعْمَةُ اللهِ الْمُخَلِّصَةُ، لِجَمِيعِ النَّاسِ، مُعَلِّمَةً إِيَّانَا أَنْ نُنْكِرَ الْفُجُورَ وَالشَّهَوَاتِ الْعَالَمِيَّةَ، وَنَعِيشَ بِالتَّعَقُّلِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى فِي الْعَالَمِ الْحَاضِرِ، مُنْتَظِرِينَ الرَّجَاءَ الْمُبَارَكَ وَظُهُورَ مَجْدِ اللهِ الْعَظِيمِ وَمُخَلِّصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا، لِكَيْ يَفْدِيَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، وَيُطَهِّرَ لِنَفْسِهِ شَعْبًا خَاصًّا غَيُورًا فِي أَعْمَال حَسَنَةٍ»١٤٨

«هل تقصد أن كلمات أيوب تحققت على يدّ عيسى المسيح؟»

«بالتأكيد! في الواقع، قال عيسى المسيح عن نفسه: «لأَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ أَيْضًا لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ.» ١٤٩

«ماذا تقصد؟ من هو «ابن الإنسان هذا؟»

«كان عيسى المسيح يستخدم هذا المصطلح عند الإشارة إلى نفسه. فالذين يسمعوه كانوا يتذكروا الرؤية النبوية التي رآها دانيال النبي والتي كانت تصف مثل «ابن إنسان» سيحكم جميع الأمم.»

«حقاً؟ لقد سمعتُ عن دانيال النبي. في الواقع، يقال إن قبر دانيال النبي في أوزبكستان! ماذا رأى؟»

«هل تريد أن أقرأ لك؟» التقطتُ كتابي المقدس وقرأتُ من الأصحاح السابع من سفر دانيال:

«كُنْتُ أَرَى فِي رُؤَى اللَّيْلِ وَإِذَا مَعَ سُحُبِ السَّمَاءِ مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ أَتَى وَجَاءَ إِلَى الْقَدِيمِ الأَيَّامِ، فَقَرَّبُوهُ قُدَّامَهُ. فَأُعْطِيَ سُلْطَانًا وَمَجْدًا وَمَلَكُوتًا لِتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالأَلْسِنَةِ. سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِيٌّ مَا لَنْ يَزُولَ، وَمَلَكُوتُهُ مَا لاَ يَنْقَرِضُ.»١٥٠

فتساءل جمشيد مندهشاً: «هل تقصد أن عيسى المسيح كان يصرّح أنه هذا الملك؟»

«نعم، بصورةٍ غير مباشرة، لكنه أوضح أيضاً أن مملكته ليست من هذا العالم.١٥١ ولم يرد أن يعتقد الناس أنه سيقود تمرداً ضد الرومان. في الواقع، تمكن اليهود من إقناع الرومان بصلب عيسى على أساس تصريحه بأنه ملك. كان اليهود في ذلك الوقت ينتظرون شخصاً ما يدعونه «الممسوح» أي المسيح أو «المسيّا»، ومعناها في اليونانية «كريستوس». ومع ذلك، كانوا يظنون أنه سيكون حاكماً سياسياً غازياً من شأنه تحرير اليهود من الرومان. لم يفهموا أن عيسى المسيح جاء لتحريرهم من العدو الأكثر خطورة والذين كانوا أسرى تحت سلطانه، أي الشيطان.»

«ولكن الناس يطلقون عليه عيسى المسيح أو يسوع المسيح. هل لم يطلق على نفسه ذلك؟»

«عادةً كان يتجنب هذا اللقب لتجنب سوء الفهم، ولكنه كان يقوله في بعض الأحيان بصورةٍ مباشرة. ولهذا السبب، في الواقع، أرادت السلطات اليهودية قتله لأنه كان يصرّح أنه مرسلٌ من الله.»

«ماذا قال؟»

فقرأتُ له الفقرة التالية من الإنجيل:

«فَأَجَابَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ وَقَالَ لَهُ: «أَسْتَحْلِفُكَ بِاللهِ الْحَيِّ أَنْ تَقُولَ لَنَا: هَلْ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ؟»

قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنْتَ قُلْتَ! وَأَيْضًا أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ، وَآتِيًا عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ».

فَمَزَّقَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ حِينَئِذٍ ثِيَابَهُ قَائِلاً: «قَدْ جَدَّفَ! مَا حَاجَتُنَا بَعْدُ إِلَى شُهُودٍ؟ هَا قَدْ سَمِعْتُمْ تَجْدِيفَهُ! مَاذَا تَرَوْنَ؟»

فَأَجَابُوا وَقَالُوا: «إِنَّهُ مُسْتَوْجِبُ الْمَوْتِ».١٥٢

«ولكن رئيس الكهنة يسأل هنا إذا كان عيسى المسيح هو «المسيح ابن الله» وليس إذا كان «ابن الإنسان» الذي رآه دانيال النبي في رؤيته. بالتأكيد من الصواب أن تدين شخصاً ما يصرّح أنه ابن الله.»

«علينا أن نفهم أن اليهود أيضاً كانوا يستخدمون مصطلح ‹ابن الله› بمعنى سياسي كلقبٍ للمسيّا أي الملك المنتظر. فقبل حوالي ألف سنة من عيسى المسيح، قال الله للنبي داود: «وَيَكُونُ مَتَى كَمَلَتْ أَيَّامُكَ لِتَذْهَبَ مَعَ آبَائِكَ، أَنِّي أُقِيمُ بَعْدَكَ نَسْلَكَ الَّذِي يَكُونُ مِنْ بَنِيكَ وَأُثَبِّتُ مَمْلَكَتَهُ. هُوَ يَبْنِي لِي بَيْتًا وَأَنَا أُثَبِّتُ كُرْسِيَّهُ إِلَى الأَبَدِ. أَنَا أَكُونُ لَهُ أَبًا وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْنًا، وَلاَ أَنْزِعُ رَحْمَتِي عَنْهُ كَمَا نَزَعْتُهَا عَنِ الَّذِي كَانَ قَبْلَكَ. وَأُقِيمُهُ فِي بَيْتِي وَمَلَكُوتِي إِلَى الأَبَدِ، وَيَكُونُ كُرْسِيُّهُ ثَابِتًا إِلَى الأَبَدِ».١٥٣ فمن الذي تشير إليه هذه النبوة يا جمشيد؟

«عندما يقول الكتاب «وَيَكُونُ كُرْسِيُّهُ ثَابِتًا إِلَى الأَبَدِ»، فهذا يبدو مثل رؤية دانيال النبي عن «ابن الإنسان».

«بالضبط! ولكن في هذا المقطع يقول الله: «وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْنًا». في سفر المزامير، يشير المزمور الثاني أيضاً إلى «الممسوح» ويسجل كلمات الله عنه بصفته ملكاً وأيضاً بصفته ابنه. لذلك ليس من المستغرب أن اليهود بدأوا استخدام مصطلح «ابن الله» كلقبٍ للمسيا المنتظر، أي الممسوح الذي كانوا يظنون أنه سينقذهم من الرومان. ولهذا سأل رئيس الكهنة عيسى المسيح إذا كان «المسيح ابن الله». وبنفس الطريقة، قال رجلٌ آخر التقى بعيسى المسيح: «يَا مُعَلِّمُ، أَنْتَ ابْنُ اللهِ! أَنْتَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ!»١٥٤

«هل تقصد أن هذه كلها ألقابٌ للشخص نفسه؟ أليس من المتناقض أن تستخدم لقب «ابن الإنسان» ولقب «ابن الله» إذا كان اللقبان يشيران إلى نفس الشخص؟»

«هذا لا يبدو غريباً إذا نظرنا إلى السياق. فعندما رأى دانيال النبي «مثل ابن إنسان»، هل كان يصف رؤية أرضية أم سماوية؟»

«من الوصف كان من الواضح أنها في السماء، في محضر الله.»

«لذلك هناك في السماء ربما ما ترك انطباعاً كبيراً في دانيال النبي حقيقة أن صاحب القوة والسلطان كان في الواقع على هيئة إنسان! في رؤيته عن السماء، ركز النبي على السمات البشرية.»

«هل تعني، إذاً، أن الذين وصفوا عيسى المسيح هنا على الأرض قد فوجئوا بشيءٍ آخر؟»

«بالضبط! على سبيل المثال، عندما مات عيسى المسيح، حدث شيءٌ ما أثار إعجاب جندي روماني لم يكن يهودياً. ماذا قال قائد المئة الروماني كما تظن؟

«ربما أدرك شيئاً عن قداسة عيسى المسيح؟»

«هذا صحيح! يقول الإنجيل: «وَلَمَّا رَأَى قَائِدُ الْمِئَةِ الْوَاقِفُ مُقَابِلَهُ أَنَّهُ صَرَخَ هكَذَا وَأَسْلَمَ الرُّوحَ، قَالَ: «حَقًّا كَانَ هذَا الإِنْسَانُ ابْنَ اللهِ.»١٥٥ ربما كان يشهد على شخصية عيسى المسيح ولا يستخدم التعبير بالطريقة اليهودية كلقب للمسيّا.»

ظلّ جمشيد هادئاً للحظات ثم قال: «أعتقد أننا نستخدم هذا التعبير عندما نصف شخصاً ما بكلمةٍ مهينة. ففي اللغة الروسية إذا أردت إهانة شخص ما يمكنك أن تقول «сухин сын». بالطبع، هذا لا يعني أن والدة هذا الشخص كلبة بصورةٍ حرفية ولكن الإهانة تصف شيئاً ما في شخصية الشخص. ولكن إذا وصف شخصٌ ما شيئاً ما وصفاً إيجابياً، إذا وصفتَ شخصاً بأنه «ابن الله»، فهذا يعني أنه يمكن أن ترى الله من خلال هذا الشخص.»

«هل تعلم يا جمشيد أن عيسى المسيح قال: «اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ.»»١٥٦ من خلال الحديث مع عيسى المسيح ورؤية حياته ومعجزاته وشخصيته، أدرك الناس أنهم يلتقون مع الله في صورة إنسانٍ.»

«تخبرنا هذه الألقاب إذاً عن شخصية عيسى المسيح وطبيعته، ولكن إذا كان لقب «ابن الإنسان» ولقب «ابن الله» يعنيان أيضاً «ملك إسرائيل» أو «المسيح»، فلماذا لم يقل عيسى المسيح هذا بوضوحٍ؟ لماذا استخدم هذه الكلمات الأخرى؟»

«هل تعتقد أن الناس كانوا سيقبلونه إذا كان قد قال ذلك بوضوحٍ أكثر؟ لقد أوضح ذلك ليس فقط من خلال الكلمات ولكن أيضا بمعجزاته. فحياته بلا خطية كان تأثيرها أعظم من أي تصريحاتٍ قالها عن نفسه. ونحن نعلم جميعاً أن الأعمال أعلى صوتاً من الأقوال.»

صمتَ جمشيد قليلاً ثم قال مندهشاً: «هذا يجعلني أتخيل ما قد يحدث في المستقبل في التبت بعد موت الدالاي لاما الحالي. أعتقدُ أنه إذا كان التبتيون يعتقدون بأن شخصاً آخر هو الدالاي لاما الجديد فلن يستخدموا هذا المصطلح في الواقع للحديث عنه لأنهم لا يريدون السلطات الصينية أن تعرف من هو إذا حاولوا منع هذا الشخص من أن يكون الدالاي لاما الجديد. ولذلك من المنطقي أنه خلال فترة الاحتلال الروماني لإسرائيل فعل اليهود شيئاً من هذا القبيل، وذلك باستخدام مصطلحات مختلفة بدلاً من القول مباشرةً بأن شخصاً ما كان هو المسيّا!»

«هذه مقارنةٌ مثيرة للاهتمام يا جمشيد. أستطيع أن أفهم ما تقول.»

«ومع ذلك، في نهاية المطاف عانى عيسى المسيح ومات على أي حالٍ. فما إنجازاته؟ وأين ملكوته؟»

«ملكوته يتخطى الحدود الجغرافية. فهو ملكٌ على من يعترفون به كملكٍ في حياتهم. وانتصر على قوى الظلام التي أسرت الناس في العبودية حتى الموت. وبموته كذبيحةٍ كاملة دفع عقوبة خطايانا آخذاً على نفسه العقاب الذي يستحقه كل واحدٍ منا. وبهذا حررنا من عبودية الشيطان وأسس ملكوتاً جديداً يبقى في السماء إلى الأبد. هذا هو ملكوته الأبدي.»

«هكذا كانت المعاناة طريقاً إلى ما هو أعظم. ربما يكون هذا مثل ما قلته عن أيوب. فقد كان أصدقاؤه يعتقدون أن معاناته نتيجة خطيته ولكنها كانت في الواقع بسبب المواجهة الروحية غير المنظورة مع الشيطان.»

«صحيحٌ يا جمشيد. لم أفكر في الأمر على هذا النحو من قبل! نعم، فبصرف النظر عن نبوة أيوب بخصوص مجيء الوليّ، هناك جانبٌ آخر نبوي من حياته. فكما ذكرتُ من قبل أن الأعمال أعلى صوتاً من الأقوال في كثيرٍ من الأحيان، وقد كان هذا الحال أيضاً بالنسبة لأيوب. ففي كل مراحل معاناته كان يرى أن الحقائق الروحية هي الأهم. وهذا كان موقفٌ مشابه لموقف عيسى المسيح. مكتوبٌ في الإنجيل:

«فَإِنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا تَأَلَّمَ لأَجْلِنَا، تَارِكًا لَنَا مِثَالاً لِكَيْ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِهِ. «الَّذِي لَمْ يَفْعَلْ خَطِيَّةً، وَلاَ وُجِدَ فِي فَمِهِ مَكْرٌ»، الَّذِي إِذْ شُتِمَ لَمْ يَكُنْ يَشْتِمُ عِوَضًا، وَإِذْ تَأَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يُهَدِّدُ بَلْ كَانَ يُسَلِّمُ لِمَنْ يَقْضِي بِعَدْل.»١٥٧

«هل تقول إن عيسى المسيح كان بلا خطية؟»

«نعم. وعندما نقول إن عيسى المسيح «لم يفعل خطية» فهذا معناه أنه الوحيد الذي يمكنه أن يصير وليّاً (فادياً) لنا. الفقرة السابقة تكتمل هكذا: «الَّذِي حَمَلَ هُوَ نَفْسُهُ خَطَايَانَا فِي جَسَدِهِ عَلَى الْخَشَبَةِ، لِكَيْ نَمُوتَ عَنِ الْخَطَايَا فَنَحْيَا لِلْبِرِّ. الَّذِي بِجَلْدَتِهِ شُفِيتُمْ.»١٥٨ إذا كان رجال الله العظماء مثل أيوب أو عيسى المسيح يلقون الاحترام والكرامة التي يستحقونها، فلماذا يحقّ لنا هذا؟ نحن بحاجة إلى أن نتعلم الدرس في حياة كلٍ من أيوب وعيسى المسيح، وهو أن معرفة الله نفسه أهم بكثيرٍ من تلقي بركات الله.»

«إنها مسألة معرفة الله شخصياً، وليس مجرد معرفة بعض المعلومات عنه.»

«نعم يا جمشيد. العديد من الناس يريدون تلقي العطايا من الله ولكنهم غير مهتمين بشأن تطوير علاقة شخصية مع المعطي. وفي حالة حاجتهم قد يطلبون من الله مساعدتهم على الخروج من الأزمة ولكنهم لا يرغبون في الاستماع إلى ما يريد

الله أن يقوله لهم. إنهم لا يريدون معرفة مشيئة الله لحياتهم أو عمل ما يدعوهم الله من أجله.»

فوافقني جمشيد قائلاً: «نعم! الكثير منا مثل ذلك. نريد العطايا ولا نريد أن نعرف المعطي! ولكني أريد أن أعرفه معرفةً أفضل. الله كريم، وهو واهب الحياة كلها وجميع الصالحات. ورغم معاناتي، أعتقد أنني قادرٌ أيضاً على أن أشكر الله على العطايا التي منحنى إياها في حياتي، مثل منيرة الصغيرة! ولكني أوافق على أن الأهم من الممتلكات المادية والأسرة والأصدقاء أن تعرف الله معرفةً أفضل.»

وفجأة أدركتُ أن جمشيد لم يعد يتحدث معي بل إلى الله. وقد غيّر لغته من الروسية إلى الطاجيكية فلم أفهم ما كان يقوله. ولكنه أوضح لي في وقتٍ لاحق أنه كان يصلي إلى الله قائلاً: «يا الله، اكشف نفسك لي وامنحني الشجاعة لعمل كل ما تطلبه مني في حياتي.»

الفصل 8

أوزبكستان: تربية الأطفال

كان عبور الحدود من طاجيكستان إلى أوزبكستان تجربةً غير عادية. من خوجاند أخذتُ سيارة أجرة إلى الحدود، حيث كانت البوابات الحديدية على جانبي الجسر تفصل بين البلدين.١٥٩ كانت السيارات ممنوعة من دخول الحدود ولذلك دخلتُ عبر «المنطقة المحرمة» وإلى أوزبكستان. من تلك الحدود أخذتُ سيارةً أخرى إلى طشقند.

تذكرتُ المرة الأولى التي عبرتُ فيها الحدود بين طاجيكستان وأوزبكستان ولم ألاحظ حتى أنني فعلتُ ذلك. كان هذا في عام ١٩٨٢ عندما كانت المنطقة كلها جزءاً من الاتحاد السوفياتي. سافرتُ من سمرقند إلى الموقع الأثري لمدينة بنزيكنت القديمة، حيث ازدهرت ثقافة الشعب السوقدياني منذ أكثر من ألف سنة. كانت لغتهم من العائلة الإيرانية وكانت سمرقند أحد مراكزهم التجارية على طول طريق الحرير. أما اليوم، فإن الطاجيكية، وهي لغة إيرانية من عائلة اللغات الهندو أوروبية، هي لغة الشارع في سمرقند.

عندما انتقلتُ إلى خيوة، في منطقة خوارزم، كانت اللغات التركية، وخصوصاً الأوزبكية، هي الأكثر استخداماً. أثناء تجوالي في هذه المدينة القديمة، أدهشتني العمارة وخاصةً الجدران السميكة في المدينة وأحد الأبراج المرتفعة المهيبة في قلب المدينة القديمة، ولكن الشعب كان أهم بكثيرٍ من المباني.

في أحد الشوارع الخلفية في خيوة، صادفتُ مجموعةً من الأطفال يلعبون في الشارع. لم أكن أنوي التدخل في اللعب، ولكنهم تجمعوا حولي فجأةً. لاحظ واحدٌ منهم الكاميرا الخاصة بي وطلب مني التقاط صورة لهم جميعاً، فلم أستطع مقاومة طلبه!

في ذلك الوقت ظهر شخصان بالغان في المدخل. وعندما رأيا شخصاً غريباً مع أطفالهما، طلبا مني دخول بيتهما. في البداية فوجئتُ لدعوتهما، ولكني قررتُ أنها ستكون فرصةً مثيرة للاهتمام للتعرف إلى عائلةٍ محلية.

أثناء جلوسنا لشرب الشاي، خرج الأطفال مرةً أخرى للعب في الشارع. كنتُ قد قلتُ لمضيفيّ جاشور ونارجيزا إن لديّ خمسة أطفال وحفيدتين ولكني لم أكن أتوقع ردّ فعلهما تجاه هذه المعلومة. نظر جاشور إلى نارجيزا الذي كان يصبّ المزيد من الشاي في صمتٍ. ثم قال لي: «لديك خمسة أطفال. كيف تمكنتَ من تربيتهم؟ من الصعب جداً أن تكون أحد الوالدين.»

«لماذا تقول هذا؟ هل تواجه مشكلات معينة؟»

«نحن نريد أن ينمو أطفالنا في حياةٍ صالحة صادقة، ولكن كيف تعلمهم أن يقولوا الحقيقة ويحترموا الآخرين وألا يغشوا أو يأخذوا الأشياء التي لا تخصهم، إلخ؟»

«ليس من السهل تربية الأطفال. فالأبوة والأمومة من أصعب الوظائف التي علينا أن نواجهها في حياتنا. وللأسف لا توجد إجابات سهلة.»

ثم تذكرتُ ما قلته في سياقٍ مختلف في كازاخستان واستكملتُ حديثي: «كثيرٌ من الآباء والأمهات يتمنون أن يعرفوا «وصفة سحرية» سريعة بسيطة تجعل أطفالهم أقرب إلى الكمال! ولكن لم يكتشف أحدٌ بعد مثل هذه «الوصفة السحرية»!

«إذن كيف استطعت تربية أطفالك الخمسة؟»

«بالكثير من الأخطاء! ولكن كان لدينا من يستطيع تعليمنا معنى الأبوة والأمومة.»

«من كان ذلك؟»

«مخترع الأبوة والأمومة في المقام الأول! الله. هل تعتقد أن الله كان يقصد أن تكون الأبوة والأمومة صعبة للغاية؟ عندما خلق الله الرجل الأول والمرأة الأولى أوصاهما قائلاً: «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا.»١٦٠ إذا كان الله قد خلقنا بإمكانية إنجاب الأطفال وقال للإنسان الأول أن يملأ الأرض، فقد أعطانا بالتأكيد توجيهات بخصوص أفضل الطرق لتربية الأطفال تربيةً مقدسة.»

فقال جاشور: «لقد فكرتُ في ذلك من قبل. بحثتُ في القرآن ولكني لم أستطع أن أجد أي شيءٍ بخصوص تربية الأطفال! وجدتُ فقرةً واحدة عن توريث الممتلكات تقول إن الأولاد لهم ضعف حق البنات.١٦١ وكانت هناك فقرةٌ أخرى تقول إننا يجب ألا نقتل أطفالنا.١٦٢ أما الدرس الأكثر إيجابية حول الأطفال في القرآن فهو الآية التي تقول: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.»١٦٣

«هل تعرفان ما قاله سليمان وداود عن الأطفال؟»

«لا، ماذا قالا؟»

كتب سليمان:

«هُوَذَا الْبَنُونَ مِيرَاثٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ،
ثَمَرَةُ الْبَطْنِ أُجْرَةٌ.
كَسِهَامٍ بِيَدِ جَبَّارٍ،
هكَذَا أَبْنَاءُ الشَّبِيبَةِ.
طُوبَى لِلَّذِي مَلأَ جَعْبَتَهُ مِنْهُمْ.
لاَ يَخْزَوْنَ بَلْ يُكَلِّمُونَ الأَعْدَاءَ فِي الْبَابِ»١٦٤

كما كتب داود النبي في المزامير:

«كَمَا يَتَرَأَفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ
يَتَرَأَفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ.»١٦٥

يشبّه داود النبي علاقة الآباء بالأبناء بعلاقة الله بالإنسان. فالله يعاملنا مثل أبنائه.»

فاعترضني جاشور: «ولكن لا يمكنك القول إن الله له أبناء.» كان يبدو أنه يفكر بنفس طريقة علي الذي التقيته في شينجيانغ.

«هل تعرف ما هو مكتوبٌ في الكتاب المقدس عن الإنسان الأول، آدم؟ هناك نسبٌ يعود إلى آدم الذي يوصف في هذا النسب بلقب «آدم، ابن الله».١٦٦ هذا ليس معناه أن آدم كان ابن الله بالمعنى البيولوجي، أي من أبوين بشريين. تصف التوراة كيف خلق الله آدم «تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً.»١٦٧ ومع ذلك، تقول الكتب المقدسة إن الله يهتم بالإنسان خليقته اهتمام الآباء بالأبناء. وهذا ليس غريباً لأن الله خلقنا وهو أصلنا جميعاً.»

فقال جاشور: «ولكن آدم كان الإنسان الأول، وهكذا كانت لديه علاقة خاصة مع الله.»

«يتحدث الأنبياء الآخرون عن الله بالطريقة نفسها بصفته أبو البشرية جمعاء، بما في ذلك أنت وأنا. على سبيل المثال قال ملاخي النبي: «أَلَيْسَ أَبٌ وَاحِدٌ لِكُلِّنَا؟ أَلَيْسَ إِلهٌ وَاحِدٌ خَلَقَنَا؟»١٦٨ وبالمثل، تحدث إشعياء النبي عن البشر باعتبارهم أبناء الله العصاة: «لأَنَّ الرَّبَّ يَتَكَلَّمُ: «رَبَّيْتُ بَنِينَ وَنَشَّأْتُهُمْ، أَمَّا هُمْ فَعَصَوْا عَلَيَّ...»١٦٩ الله يعاملنا مثل أبنائه بحب، ولكن في بعض الأحيان يؤدبنا مثل الأب.»

«يؤدبنا؟ نعم، فأطفالنا بالتأكيد بحاجة للتأديب! وافقني جاشور في ذلك. ولكن كيف يؤدبنا الله؟»

يكتب سليمان:

«يَا ابْنِي، لاَ تَحْتَقِرْ تَأْدِيبَ الرَّبِّ وَلاَ تَكْرَهْ تَوْبِيخَهُ،

لأَنَّ الَّذِي يُحِبُّهُ الرَّبُّ يُؤَدِّبُهُ، وَكَأَبٍ بِابْنٍ يُسَرُّ بِهِ.»١٧٠

هذه الفقرة ترد أيضاً في الإنجيل:

وَقَدْ نَسِيتُمُ الْوَعْظَ الَّذِي يُخَاطِبُكُمْ كَبَنِينَ: «يَا ابْنِي لاَ تَحْتَقِرْ تَأْدِيبَ الرَّبِّ، وَلاَ تَخُرْ إِذَا وَبَّخَكَ. لأَنَّ الَّذِي يُحِبُّهُ الرَّبُّ يُؤَدِّبُهُ، وَيَجْلِدُ كُلَّ ابْنٍ يَقْبَلُهُ». إِنْ كُنْتُمْ تَحْتَمِلُونَ التَّأْدِيبَ يُعَامِلُكُمُ اللهُ كَالْبَنِينَ. فَأَيُّ ابْنٍ لاَ يُؤَدِّبُهُ أَبُوهُ؟ وَلكِنْ إِنْ كُنْتُمْ بِلاَ تَأْدِيبٍ، قَدْ صَارَ الْجَمِيعُ شُرَكَاءَ فِيهِ، فَأَنْتُمْ نُغُولٌ لاَ بَنُونَ. ثُمَّ قَدْ كَانَ لَنَا آبَاءُ أَجْسَادِنَا مُؤَدِّبِينَ، وَكُنَّا نَهَابُهُمْ. أَفَلاَ نَخْضَعُ بِالأَوْلَى جِدًّا لأَبِي الأَرْوَاحِ، فَنَحْيَا؟ لأَنَّ أُولئِكَ أَدَّبُونَا أَيَّامًا قَلِيلَةً حَسَبَ اسْتِحْسَانِهِمْ، وَأَمَّا هذَا فَلأَجْلِ الْمَنْفَعَةِ، لِكَيْ نَشْتَرِكَ فِي قَدَاسَتِهِ. وَلكِنَّ كُلَّ تَأْدِيبٍ فِي الْحَاضِرِ لاَ يُرَى أَنَّهُ لِلْفَرَحِ بَلْ لِلْحَزَنِ. وَأَمَّا أَخِيرًا فَيُعْطِي الَّذِينَ يَتَدَرَّبُونَ بِهِ ثَمَرَ بِرّ لِلسَّلاَمِ»١٧١

أما نارجيزا، الذي كان يستمع باهتمام إلى المحادثة، فأثار سؤالاً: «هل تقصد أن المصاعب في الحياة يمكن أن تكون نوعاً من التأديب أو التدريب من الله؟ هل هذا يشبه المرات التي أقول فيها لأولادي اتركوا الحلويات وتناولوا الغذاء السليم؟»

«هذا مثالٌ جيد. منذ البداية، عندما خلق الله آدم وحواء، كان يريد أن يتمتع البشر بصداقةٍ جيدة ووثيقة مع الله. كان قصد الله لنا أن نقضي معه نفس الوقت الذي يقضيه الآباء مع أبنائهم. في جنة عدن، كان آدم وحواء في البداية يتمتعان بعلاقةٍ وثيقة جداً مع الله بسبب عدم وجود خطية تمنعهما من الشركة مع الله. وهذا بالفعل نوع العلاقة التي يحب الأباء أن يشتركوا فيها مع الأبناء.»

فقال نارجيزا: «هذا صحيحٌ من الناحية المثالية، ولكنه لا يحدث بهذه الطريقة. ولكن، على أي حالٍ، لا يمكننا أن نرى الله فكيف يمكنك مقارنة علاقة الله والإنسان بعلاقة الآباء والأبناء؟»

«حتى لو كنتَ بالفعل مع أبنائك ويمكنك أن تراهم، فهل هذا معناه أن علاقتك بهم وثيقة؟ يعتمد جزءٌ كبير من العلاقة على كيفية التواصل. كم أسعدني في هذا الصباح الحديث على الهاتف مع زوجتي وطفلينا الصغيرين في الصين. لم أكن معهم بالجسد ولكننا اشتركنا معاً في الحوار. هذه هي كيفية العلاقة وهي أمرٌ مهم.»

«ربما يكون هذا جزءاً من مشكلتنا: فالأطفال يعودون من المدرسة إلى البيت ويشاهدون التلفزيون أو يلعبون الألعاب الإلكترونية، ولا يمكننا التحدث معهم حقاً إلا بخصوص أمورٍ سطحية إلى حدٍ ما.»

تذكرتُ بعض الناس الذين قابلتهم بالفعل في رحلتي. وتساءلتُ كم منا يعامل الله بنفس الطريقة، أي مجرد قول كلماتٍ معتادة دون تواصلٍ حقيقي معبّر. فقطع نارجيزا حبل أفكاري بهذا السؤال:

«لقد قلتَ إن الله يعاملنا مثل أبنائه ويؤدبنا، ولكن لماذا يفعل ذلك؟ لماذا يسمح الله بهذه الصعوبات في حياتنا؟»

«إذا كنتَ أنت أبٌ صالح وتضع الحدود على أنشطة أطفالك، أليس كذلك؟ أنت تعرف ماذا يؤذي الطفل. لا تريد أن يلمس طفلك موقداً ساخناً أو يهيم على وجهه في طريقٍ رئيسي مزدحم ربما تصدمه فيه سيارة. بنفس الطريقة، وضع الله حدوداً على آدم وحواء. وعندما عصيا أمر الله، كانا بحاجةٍ لمواجهة العواقب. أنت أبٌ محب وأعلم أنك لا تحب معاقبة أطفالك ولكنك لا تزال تعترف أنك مضطر لعمل ذلك في بعض الأحيان حتى يتعلم طفلك ما هو أفضل.»

فقال نارجيزا: «نعم، أعتقد ذلك.»

«في كثيرٍ من الأحيان تنطوي عملية التعليم هذه على الثقة. ربما لا يفهم أطفالك تماماً لماذا يجب أن يكونوا حذرين عند عبور طريق مزدحم ولكن عليهم أن يثقوا بك عندما تقول لهم إن الطريق آمن للعبور. ولتنمية هذه الثقة فإن الطاعة ضرورية: على الطفل أن يتعلم أن يطيعك.»

فقال جاشور: «هذا مقبولٌ عندما كان أطفالنا أصغر سناً، ولكنهم الآن في المدرسة وينتقلون إلى المراهقة ولا يريدون مجموعة من القواعد.»

«بالضبط، فرغم أننا كآباء نحب أطفالنا حديثي الولادة للغاية، إلا أننا لا نريد أن يبقوا هكذا. إننا نتطلع إلى اليوم الذي يتحدث فيه أطفالنا معنا ويعملون الأشياء معنا. نريد أن يصير أطفالنا كباراً مسؤولين. وفي هذه العملية، على الأطفال أن يتعلموا ما هو صواب وما هو خطأ.»

فتساءل جاشور: «كيف يفعلون ذلك؟ كيف يتعلموا أن يكونوا مسؤولين وأن يقرروا لأنفسهم ما هو صواب وما هو خطأ؟ هذه هي المشكلة التي نواجهها في الوقت الحاضر.»

«على الرضع والأطفال أن يثقوا في والديهم، ولكن بمرور الوقت يبدأون في التعرف على مبادئ معينة. يتعلمون كيفية تطبيق هذه المبادئ على المواقف الجديدة. والله يعلمنا بنفس الطريقة. ففي الكتب المقدسة أعطانا القوانين والمبادئ السليمة. ومع ذلك، علينا أيضاً تطبيق هذه المبادئ على المواقف الجديدة. على سبيل المثال، من خلال موسى النبي وغيره من الأنبياء، قال الله: «لا تسرق».١٧٢ وفي الوقت الحاضر نحن بحاجة إلى تطبيق هذا المبدأ أيضاً على العلاقات بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة، وعلى أرباب العمل والموظفين، وعلى العملاء والشركات.»

«ولكن كيف تختلف المبادئ عن القواعد؟ أليست المبادئ هي القواعد إلى حدٍ ما؟»

«الأمر يشبه قيادة السيارة. فعندما نتعلم القيادة ندرس قواعد الطريق وكيفية تشغيل ضوابط للسيارة. ومع ذلك، بمجرد اجتياز اختبار القيادة وقيادة السيارة على الطريق بأنفسنا، علينا تطبيق هذه المبادئ على المواقف الجديدة غير المتوقعة. وهكذا يعلمنا الله. فهو يعطينا المبادئ حتى نعيش بالطريقة الصحيحة بلا حوادث. أما تجاهل مبادئ الله فربما يؤدي إلى كارثة مثل الكوارث التي تحدث بسبب عدم الالتزام بقواعد الطريق.»

«ولكن كيف ينطبق هذا على تربية الأطفال؟»

«الفكرة نفسها تنطبق على تربية الأطفال. يمكن للوالدين تعليم أطفالهم القواعد الأساسية للصواب والخطأ، ولكن على الأطفال أنفسهم تطبيق هذه القواعد على المواقف التي يواجهونها في الحياة اليومية. في المدرسة أو غيرها من الأماكن، من الممكن أن يتأثروا بأشخاصٍ آخرين تأثراً خاطئاً، ولذلك هم بحاجة إلى كيفية التمييز بين الصواب والخطأ. لا يمكن للوالدين معرفة تفاصيل كل موقف يمكن أن يواجهه أطفالهم، ولكن يمكنهم تعليم أطفالهم المبادئ التوجيهية الأخلاقية الصحيحة حتى يطبقها الأطفال في الحياة اليومية.»

«هل تقصد أنها مجرد مسألة تدريس بعض المبادئ الأساسية؟»

«لا، ليس الأمر بهذه البساطة. هل تتذكر ما قلته في البداية حول معرفة المعلم الذي يعلمنا كيف نكون آباءً صالحين؟»

«لقد قلتَ شيئاً عن ضرورة وجود من يعلمنا المعنى الحقيقة للأبوة والأمومة.»

«هذا صحيحٌ، فالمسالة مسألة علاقة وليست مجرد قول الكلمات المناسبة أو فعل الأشياء الصحيحة. لقد وهبنا الله المزيد من المساعدة في اتخاذ قراراتنا. خلق كل إنسانٍ بضمير. وإذا تعلمنا الاستماع إلى صوت ضميرنا الداخلي ، فمن الممكن أن يقول لنا في كثيرٍ من الأحيان ما هو صواب وما هو خطأ. يقول الإنجيل: «لأَنَّهُ الأُمَمُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمُ النَّامُوسُ، مَتَى فَعَلُوا بِالطَّبِيعَةِ مَا هُوَ فِي النَّامُوسِ، فَهؤُلاَءِ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ النَّامُوسُ هُمْ نَامُوسٌ لأَنْفُسِهِمِ، الَّذِينَ يُظْهِرُونَ عَمَلَ النَّامُوسِ مَكْتُوبًا فِي قُلُوبِهِمْ، شَاهِدًا أَيْضًا ضَمِيرُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ فِيمَا بَيْنَهَا مُشْتَكِيَةً أَوْ مُحْتَجَّةً.»١٧٣ ولكن ضمائرنا للأسف من الممكن أن تصبح بليدةً في بعض الأحيان. وهذا يحدث عندما نتجاهل صوت الضمير ونتصرف ضده. ومن الممكن أيضاً أن يختنق صوت ضمائرنا من الأمثلة السيئة حولنا، بما في ذلك آباءنا وأصدقاءنا. قد نقول: «الآخرون يعملون هذا، وكل شيءٌ على ما يرام.» وإذا شعرنا في البداية بعدم الارتياح، فبمرور الوقت لا نعد نسمع صرخة ضمائرنا.»

«هل تقصد أن صوت ضميرنا هو في الواقع صوت الله؟»

«غالباً ما أعتقد ذلك، لكن المسألة أبعد من ذلك. فإلى جانب ضمائرنا والأهم من ذلك أيضاً، أعطانا الله معزياً آخر سيكون معنا إلى الأبد ويعلمنا الطريق الصحيح. فالله هو الأب الصالح الذي هو على استعدادٍ لتقديم المشورة والتوجيه عندما يواجه الأطفال قرارات صعبة. على الأبناء البالغين أن يطلبوا هذا التوجيه والمشورة ويكونوا على استعدادٍ لقبوله. وبنفس الطريقة، علينا أن ندعو روح الله المعزي كي يأتي إلينا ويساعدنا في حياتنا.»

«ما هذا المعزي الذي تتحدث عنه؟»

«الله مثل الأب الذي يريد أن يتمتع أولاده بحسن الخلق. ولهذا يقول الكتاب المقدس: «بَلْ نَفْتَخِرُ أَيْضًا فِي الضِّيقَاتِ، عَالِمِينَ أَنَّ الضِّيقَ يُنْشِئُ صَبْرًا، وَالصَّبْرُ تَزْكِيَةً، وَالتَّزْكِيَةُ رَجَاءً، وَالرَّجَاءُ لاَ يُخْزِي، لأَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ قَدِ انْسَكَبَتْ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُعْطَى لَنَا.»١٧٤

«من هو هذا الروح القدس؟ هل هذا هو المعزي الذي تقصده؟»

«نعم. فالله نفسه يأتي لنا من خلال روحه القدوس. علينا أن نكون على استعدادٍ لتلقي روح الله القدوس والسماح لروح الله بأن يعلمنا الطريق الصحيح. فهو روح الحق الذي يمكنه استعادة ضمائرنا البليدة وتعليمنا الصواب. من الممكن أن يأتينا الروح القدس ويعطينا روحاً جديداً.»

«إذا كنتُ أفهمك جيداً، فهل هذا يشبه تعليم ابني العزف على الدومبرا؟ فلا يكفي أن أعطيه كتاباً أو أن أوضح له حتى كيفية وضع أصابعه في الأماكن الصحيحة لعزف الأنغام، ولكنه يتعلم بأفضل طريقةٍ عندما نعزف معاً.»

«هذه طريقةٌ جيدة للتفكير في هذا الموضوع، وتشبه ما كنتُ أقصده بخصوص كيف نكون أبناء الله. فعندما يأتي الروح القدس، فإن الإنجيل يشير إلى هذا بتعبير «التبني» كأبناء الله.١٧٥ مكتوبٌ: «لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَنْقَادُونَ بِرُوحِ اللهِ، فَأُولئِكَ هُمْ أَبْنَاءُ اللهِ. إِذْ لَمْ تَأْخُذُوا رُوحَ الْعُبُودِيَّةِ أَيْضًا لِلْخَوْفِ، بَلْ أَخَذْتُمْ رُوحَ التَّبَنِّي الَّذِي بِهِ نَصْرُخُ: «يَا أَبَا الآبُ». اَلرُّوحُ نَفْسُهُ أَيْضًا يَشْهَدُ لأَرْوَاحِنَا أَنَّنَا أَوْلاَدُ اللهِ. فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَدًا فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضًا، وَرَثَةُ اللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ. إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضًا مَعَهُ.»١٧٦ الله ليس أباً يقول: «اعمل هذا ولا تعمل ذاك» دون أن يمدنا بالموارد اللازمة للقيام ما يريد. وتأتي هذه القوة من خلال الروح القدس الحي فينا.»

«هل تقصد أنه كما نريد أن يكون أبناؤنا صادقين يريدنا الله أن نكون هكذا أيضاً؟»

«بالضبط! فنحن الآباء نريد أن نطور في أبنائنا الأمانة والنضج. والله يريد الشيء نفسه لأولاده. والفرق أنه من خلال روحه القدوس يمنحنا القدرة على العيش بطريقةٍ صحيحة.»

«ما الفرق الذي يشكّله الروح القدس في حياتنا؟»

«روح الله القدوس الحي فينا يمنحنا القوة على أن نعيش كما يريد الله وأن تكون نفوسنا نقيةً طاهرة. مكتوبٌ في الإنجيل:

اسْلُكُوا بِالرُّوحِ فَلاَ تُكَمِّلُوا شَهْوَةَ الْجَسَدِ. لأَنَّ الْجَسَدَ يَشْتَهِي ضِدَّ الرُّوحِ وَالرُّوحُ ضِدَّ الْجَسَدِ، وَهذَانِ يُقَاوِمُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، حَتَّى تَفْعَلُونَ مَا لاَ تُرِيدُونَ. وَلكِنْ إِذَا انْقَدْتُمْ بِالرُّوحِ فَلَسْتُمْ تَحْتَ النَّامُوسِ. وَأَعْمَالُ الْجَسَدِ ظَاهِرَةٌ، الَّتِي هِيَ: زِنىً عَهَارَةٌ نَجَاسَةٌ دَعَارَةٌ عِبَادَةُ الأَوْثَانِ سِحْرٌ عَدَاوَةٌ خِصَامٌ غَيْرَةٌ سَخَطٌ تَحَزُّبٌ شِقَاقٌ بِدْعَةٌ حَسَدٌ قَتْلٌ سُكْرٌ بَطَرٌ، وَأَمْثَالُ هذِهِ الَّتِي أَسْبِقُ فَأَقُولُ لَكُمْ عَنْهَا كَمَا سَبَقْتُ فَقُلْتُ أَيْضًا: إِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ هذِهِ لاَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ. وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ. ضِدَّ أَمْثَالِ هذِهِ لَيْسَ نَامُوسٌ. وَلكِنَّ الَّذِينَ هُمْ لِلْمَسِيحِ قَدْ صَلَبُوا الْجَسَدَ مَعَ الأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ. إِنْ كُنَّا نَعِيشُ بِالرُّوحِ، فَلْنَسْلُكْ أَيْضًا بِحَسَبِ الرُّوحِ.»١٧٧

«كيف يصير الروح القدس معزينا؟»

«الروح القدس الحاضر معنا للتعزية وعد به عيسى المسيح حين قال:

«لكِنِّي أَقُولُ لَكُمُ الْحَقَّ: إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ، لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي، وَلكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ. وَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُبَكِّتُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيَّةٍ وَعَلَى بِرٍّ وَعَلَى دَيْنُونَةٍ: أَمَّا عَلَى خَطِيَّةٍ فَلأَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِي. وَأَمَّا عَلَى بِرٍّ فَلأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى أَبِي وَلاَ تَرَوْنَنِي أَيْضًا. وَأَمَّا عَلَى دَيْنُونَةٍ فَلأَنَّ رَئِيسَ هذَا الْعَالَمِ قَدْ دِينَ. «إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ. وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ. ذَاكَ يُمَجِّدُنِي، لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ. كُلُّ مَا لِلآبِ هُوَ لِي. لِهذَا قُلْتُ إِنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ.»١٧٨

فقال جاشور: «هل تعني أن الروح القدس يتواصل معنا من عند الله؟ وبالتالي بمّا أن الله حكيم فمن خلال روحه القدوس يمكنه مشاركة حكمته معنا؟ نحن بحاجةٍ للحكمة لمعرفة ما يجب القيام به كآباء!»

«نعم. الروح القدس معزينا ويحيا فينا ومعنا في كل وقتٍ. وهو يفعل ما لا يمكن لأبٍ بشري القيام به. فالله، الأب الحكيم، منحنا الروح القدس كي يرشدنا ويقودنا إلى علاقةٍ وثيقة مع الله. الله لم يخلقنا ويتركنا دون توجيهات بخصوص كيفية أن نكون آباء. وهو يؤدبنا كأولاده تماماً كما كان يؤدب الأنبياء. ومع ذلك، فإنه يعطينا أيضاً روحه القدوس كي يعيش فينا حتى نتمكن من سماع صوت الله ونعرف كيف نعيش كما يريد الله. هذا سرّ الأبوة الحقيقية.»

الفصل 9

تركمانستان: السجاد

في غرفة المعيشة في منزل غونشا كان هناك نولٌ طويل تنسج عليه أمها طرازاً تقليدياً من السجاد. كانت أسرتها تعمل في نسج السجاد لعدة أجيالٍ وكشفوا لي بكل افتخارٍ عن بعض التصاميم التي أبدعها أبو غونشا. كانت لديهم صورٌ لقطعٍ أخرى من السجاد التي باعوها للآخرين، بما في ذلك قطعة سجاد طلبها خصيصاً أحدُ رجال السياسة المعروفين تصوّر وجهه على السجادة. أما غونشا ابنتهما فتعمل أستاذةً جامعية وكنا قد اجتمعنا لأول مرةٍ في عام ١٩٩٠ في مؤتمرٍ أكاديمي في جامعة الفارابي في ألماتي عاصمة كازاخستان. والآن، بعد مرور بضع أعوامٍ، أتيحت لي الفرصة لزيارة تركمانستان ولهذا التقينا مرةً أخرى.

أدهشتني مثابرة أم غونشا ومهارتها بينما كانت تنسج السجاد.

فقلتُ لغونشا: «هذا عملٌ فني جميل بالفعل.»

«نعم، فأمي تنسج السجاد طوال حياتها.»

تشتهر تركمانستان بالسجاد، وتُعرف كل قبيلة بأشكالها وأنماطها المميزة. وفيما كنت أشاهد تكوّن السجاد ببطء، صفاً صفاً، بدأت أفكاري تتجه ناحية القيم التي يتم التعبير عنها في صناعة هذا السجاد.

«من المؤكد أن هذا ينطوي على الكثير من العمل الشاق!»

فوافقتني غونشا قائلةً: «نعم، فإنتاج سجادةً واحدة يستغرق وقتاً طويلاً.»

«هذا دليلٌ على مدى جديتكم في العمل، أيها الشعب التركمنستاني!»

«حقاً؟ لا أعتقد أبداً أننا شعبٌ يتميز بالعمل الجاد! فعندما كنتُ في المدرسة، كان بعض الناس يقللون من شأن الثقافة التركمنستانية قائلين إننا «سكان أصليين بدائيين»، وبالتالي في ذلك الوقت لم أكن أعتقد حقاً أن ثقافتي بها الكثير من الإيجابيات.»

فقلتُ لها: «هؤلاء الناس مخطئون! فأنتم التركمنستانيون لديكم العديد من الميزات في ثقافتكم التي يمكن أن نحترمها احتراماً كبيراً ويمكننا أن نتعلم منها.»

فتساءلت غونشا في ذهولٍ: «ماذا يمكن أن تتعلموا منا؟»

«على سبيل المثال، عندما جاءت جدتك إلى الغرفة، ماذا فعلنا؟ وقفنا لتحيتها، وهذه علامةٌ على الاحترام. مكتوبٌ في التوراة: «مِنْ أَمَامِ الأَشْيَبِ تَقُومُ وَتَحْتَرِمُ وَجْهَ الشَّيْخِ، وَتَخْشَى إِلهَكَ.١٧٩ للأسف، كثيرٌ من الناس في أوروبا وغيرها من الأماكن نسوا هذه العادات. وبهذه الطريقة يمكننا أن نتعلم منكم لأن عاداتكم أقرب إلى معايير الله من عاداتنا.»

«لم أكن أعتقد أن الأوروبيين يمكن أن يتعلموا أي شيءٍ من ثقافتنا! ما الإيجابيات الأخرى في ثقافتنا؟»

فنظرتُ إلى أمها وهي تنسج السجاد وقلتُ: «انظري إلى صبر أمك في نسج السجاد. فالسجاد نفسه يعبّر عن بعض قيمكم التقليدية مثل العمل الجاد والصبر.»

«من المؤكد أن شعبك مثابرٌ وصبورٌ أيضاً. أليس كذلك؟»

«البعض نعم والبعض لا، وهذا ينطبق على أي جنسيةٍ أخرى! ومع ذلك، لا أعتقدُ أن الكثير من الأوروبيين لديهم هذا الطابع من الصبر لعمل سجادة رائعة مثل هذه. إن صبر أمك في صناعة هذه السجادة يكشف لي شيئاً بديعاً امتدحه سليمان وشجعنا عليه.»

«ماذا قال سليمان عن الصبر؟»

«كتب العديد من الأمثال التي تتحدث عن الصبر. على سبيل المثال:

«بَطِيءُ الْغَضَبِ كَثِيرُ الْفَهْمِ،
وَقَصِيرُ الرُّوحِ مُعَلِّي الْحَمَقِ.»١٨٠
«تَعَقُّلُ الإِنْسَانِ يُبْطِئُ غَضَبَهُ،
وَفَخْرُهُ الصَّفْحُ عَنْ مَعْصِيَةٍ».١٨١
«بِبُطْءِ الْغَضَبِ يُقْنَعُ الرَّئِيسُ،
وَاللِّسَانُ اللَّيِّنُ يَكْسِرُ الْعَظْمَ.١٨٢

فقالت غونشا: «يبدو لي أنه يجب قراءة بعض أمثال سليمان! ماذا كتبَ أيضاً؟»

«كتبَ أيضاً عن قيمٍ أخرى تعبّرون عنها أيها الشعب التركمانستاني من خلال السجاد الخاص بكم، مثل أهمية المثابرة في العمل. حول هذا الموضوع كتبَ يقول:

«اَلْعَامِلُ بِيَدٍ رَخْوَةٍ يَفْتَقِرُ،
أَمَّا يَدُ الْمُجْتَهِدِينَ فَتُغْنِي.

مَنْ يَجْمَعُ فِي الصَّيْفِ فَهُوَ ابْنٌ عَاقِلٌ،
وَمَنْ يَنَامُ فِي الْحَصَادِ فَهُوَ ابْنٌ مُخْزٍ.»١٨٣
«مَنْ يَشْتَغِلُ بِحَقْلِهِ يَشْبَعُ خُبْزًا،
أَمَّا تَابِعُ الْبَطَّالِينَ فَهُوَ عَدِيمُ الْفَهْمِ.»١٨٤
«اِذْهَبْ إِلَى النَّمْلَةِ أَيُّهَا الْكَسْلاَنُ.
تَأَمَّلْ طُرُقَهَا وَكُنْ حَكِيمًا.
الَّتِي لَيْسَ لَهَا قَائِدٌ أَوْ عَرِيفٌ أَوْ مُتَسَلِّطٌ،
وَتُعِدُّ فِي الصَّيْفِ طَعَامَهَا، وَتَجْمَعُ فِي الْحَصَادِ أُكْلَهَا.
إِلَى مَتَى تَنَامُ أَيُّهَا الْكَسْلاَنُ؟
مَتَى تَنْهَضُ مِنْ نَوْمِكَ؟
قَلِيلُ نَوْمٍ بَعْدُ قَلِيلُ نُعَاسٍ، وَطَيُّ الْيَدَيْنِ قَلِيلاً لِلرُّقُودِ،
فَيَأْتِي فَقْرُكَ كَسَاعٍ وَعَوَزُكَ كَغَازٍ.»١٨٥

فقالت غونشا: «البعض منا نحن التركمانستانيون يمكن أن يتعلموا بعض الدروس من سليمان!»

«والكثير من الأوروبيين وغيرهم من الشعوب أيضاً!»

«لم أفكر من قبل على الإطلاق بخصوص القيم المرتبطة بصنع السجاد. هل هناك أي أمورٍ أخرى يعبّر عنها السجاد؟»

«أعتقدُ أن السجاد يعبّر عن الصدق لأنه إذا أخطأ المرء مرةً واحدة سيكون الخطأ واضحاً ومن المستحيل إخفاءه!»

فاندهشت غونشا قائلةً: «نعم، أعتقدُ أنك على حقٍ! ولهذا السبب نعمل بجدية لأننا لا نريد أن نخطئ! لا بدّ أن سليمان كتب الكثير عن الصدق أيضاً. أليس كذلك؟»

«الكثير جداً. هل تريدين أن تسمعي بعض الأمثلة؟»

«نعم، من فضلك.»

«شَفَةُ الصِّدْقِ تَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ،
وَلِسَانُ الْكَذِبِ إِنَّمَا هُوَ إِلَى طَرْفَةِ الْعَيْنِ.»١٨٦
«اَلشَّاهِدُ الأَمِينُ مُنَجِّي النُّفُوسِ،
وَمَنْ يَتَفَوَّهُ بِالأَكَاذِيبِ فَغِشٌّ.»١٨٧
«كَرَاهَةُ الرَّبِّ شَفَتَا كَذِبٍ،
أَمَّا الْعَامِلُونَ بِالصِّدْقِ فَرِضَاهُ.»١٨٨

«مَرْضَاةُ الْمُلُوكِ شَفَتَا حَقّ،
وَالْمُتَكَلِّمُ بِالْمُسْتَقِيمَاتِ يُحَبُّ.»١٨٩

فقالت غونشا: «أرى الموازاة هنا بين الرب الذي يمقت لسان الكذب والملوك الذين يسرّون بلسان الصدق.»

«أنا متأكدٌ من أنكِ على حقٍ: إذا كان الملوك يسرّون بلسان الصدق، فكم بالحري الله نفسه الذي هو ملك الملوك!»

«ماذا يكشف لك سجادنا أيضاً عن مزايا ثقافتنا؟»

«الميزة الأكثر وضوحاً لم نذكرها حتى الآن، وهي الإبداع.»

«هذا صحيحٌ، فعمل سجادة واحدة يتطلب قدراً كبيراً من الإبداع. من الضروري أن يتم التصميم بعنايةٍ فائقة.»

«من أين ينبع الإبداع البشري في رأيك؟»

«لا أعرف. أعتقد أنه بداخل البشر وجزءٌ من طبيعتهم.»

«كلٌ منا لديه القدرة على الإبداع بمختلف الطرق. فقدرتنا البشرية على الإبداع تنبع من خالق كل شيء الذي صنعنا. دعيني أخبركِ ما تقوله التوراة حول خلق الله للإنسان. مكتوبٌ: «وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ.»١٩٠ الإنسان مخلوق على صورة الخالق. ولهذا السبب يمكننا أن نكون مبدعين (خلاّقين). وبالتالي نستمتع بإبداع هذه السجادة.»

«ولكن الإنسان لا يمكن أن يكون مخلوقاً على صورة الله! فالله مختلفٌ جداً عنا وعظيمٌ جداً! لا يمكنك القول إننا مثل الله!»

«أنتِ على حقٍ. فنحن مختلفون جداً عن الله. الله لا يمكن مقارنته بأي شيءٍ أو بأي شخصٍ نعرفه لأن كل هذه الأشياء مخلوقة والله أعظم من هذا بكثيرٍ. ومع ذلك، يمكننا أن نفهم ما تقوله هذه الآيات فهماً أوضح إذا قارناها بفقرةٍ في التوراة ترد بعد عدة أصحاحات. مكتوبٌ:

«يَوْمَ خَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ. عَلَى شَبَهِ اللهِ عَمِلَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُ، وَبَارَكَهُ وَدَعَا اسْمَهُ آدَمَ يَوْمَ خُلِقَ. وَعَاشَ آدَمُ مِئَةً وَثَلاَثِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ وَلَدًا عَلَى شَبَهِهِ كَصُورَتِهِ وَدَعَا اسْمَهُ شِيثًا.»١٩١

وهذا معناه أنه كما يعكس الابن بعض صفات أبيه، هكذا يعكس الإنسان بعض صفات الله الذي خلق الإنسان. والإبداع أحد هذه الصفات.»

«لم أفكر في هذه المسألة على هذا النحو من قبل.»

«تقول التوراة أيضاً إن الله يمكن أن يمنح شعبه عطايا إبداعية خاصة من أجل تنفيذ مقاصد الله. على سبيل المثال، قال الله لموسى النبي:

«انْظُرُوا. قَدْ دَعَا الرَّبُّ بَصَلْئِيلَ بْنَ أُورِي بْنَ حُورَ مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا بِاسْمِهِ، وَمَلأَهُ مِنْ رُوحِ اللهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْفَهْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَكُلِّ صَنْعَةٍ، وَلاخْتِرَاعِ مُخْتَرَعَاتٍ، لِيَعْمَلَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ، وَنَقْشِ حِجَارَةٍ لِلتَّرْصِيعِ، وَنِجَارَةِ الْخَشَبِ، لِيَعْمَلَ فِي كُلِّ صَنْعَةٍ مِنَ الْمُخْتَرَعَاتِ. وَجَعَلَ فِي قَلْبِهِ أَنْ يُعَلِّمَ هُوَ وَأُهُولِيآبُ بْنَ أَخِيسَامَاكَ مِنْ سِبْطِ دَانَ. قَدْ مَلأَهُمَا حِكْمَةَ قَلْبٍ لِيَصْنَعَا كُلَّ عَمَلِ النَّقَّاشِ وَالْحَائِكِ الْحَاذِقِ وَالطَّرَّازِ فِي الأَسْمَانْجُونِيِّ وَالأُرْجُوَانِ وَالْقِرْمِزِ وَالْبُوصِ وَكُلَّ عَمَلِ النَّسَّاجِ. صَانِعِي كُلِّ صَنْعَةٍ وَمُخْتَرِعِي الْمُخْتَرَعَاتِ.»١٩٢

فتساءلت غونشا: «إذا كان الله قد خلقنا بطاقة الإبداع، فما الغرض من إبداعنا؟»

فأجبتها قائلاً: «القيام بالأعمال التي يريدها الله لنا!» ثم نقلتُ لها كلمات الإنجيل:

«اجْتَهِدْ أَنْ تُقِيمَ نَفْسَكَ لِلهِ مُزَكًى،

عَامِلاً لاَ يُخْزَى، مُفَصِّلاً كَلِمَةَ الْحَقِّ بِالاسْتِقَامَةِ.»١٩٣

هدأت غونشا لفترةٍ من الوقت بينما كانت تتطلّع من جديدٍ في السجادة التي كانت أمها تنسجها ثم قالت:

«لماذا لم أسمع أياً من معلمينا يقول لنا إنه من الممكن أن نكون مبدعين لأن هذا يعبّر عما يضعه الله فينا؟ وهل هذا ينطبق على النساء مثل الرجال؟»

«بالتأكيد! فعندما خلق الله الإنسان على صورة الله، يصرّح الكتاب المقدس أنه «ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُ». الله يثمن إبداع أمك وإبداعك الخاص بنفس قدر إبداع أبيكِ أو زوجكِ.»

«هل أظهر لنا أيٌ من الأنبياء الآخرين إبداع الله أيضاً؟»

«إن خير مثالٍ على كل هذه القيم التقليدية التي يتميز بها شعبك هو عيسى المسيح. فمن حيث الإبداع لا يمكن تجاوزه لأنه مكتوبٌ:

«الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللهِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ، بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ. فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشًا أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ. الَّذِي هُوَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَفِيهِ يَقُومُ الْكُلُّ.»١٩٤

وتقول فقرةٌ أخرى عن عيسى المسيح:

«فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ. كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ.»١٩٥

فتساءلت غانشو: «هل كان عيسى المسيح كلمة الله؟ لقد سمعتُ بعض المسلمين المتدينين يشيرون إلى عيسى المسيح باسم «كلمة الله.» فهل هذا معناه أنه يملك القدرة على الخلق؟»

«في البدء نطق الله بعض الكلمات فخلق كل شيءٍ. ومع ذلك، فإن عيسى المسيح يعكس تماماً صورة الله الخالق، فمن خلاله خلقنا الله. مكتوبٌ:

«لأَنَّنَا نَحْنُ عَمَلُهُ، مَخْلُوقِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لأَعْمَال صَالِحَةٍ، قَدْ سَبَقَ اللهُ فَأَعَدَّهَا لِكَيْ نَسْلُكَ فِيهَا.»١٩٦

«لم أكن أفهم لقب عيسى المسيح هذا من قبل. والآن يبدو لي منطقياً.»

كانت أم غانشو قد توقفت عن النسج فبدأت في الإصغاء إلى حديثنا. وقد أثارت هذا السؤال:

«لقد قلتَ إن الله يريدنا أن نتحلى بالصبر والعمل الجاد. فماذا كانت صنعة عيسى المسيح؟»

يقول الإنجيل إنه «جَالَ يَصْنَعُ خَيْرًا وَيَشْفِي جَمِيعَ الْمُتَسَلِّطِ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ، لأَنَّ اللهَ كَانَ مَعَهُ.»١٩٧ وكان يعتبر أن معجزاته هي ‹أعماله›، ولكن كان لديه عملٌ أعظم من إجراء المعجزات. كانت مهمته الأعظم تحقيق خلاصنا بأن يأخذ على نفسه العقاب الذي نستحقه.»

«نعم. فالقرآن يقول أيضاً إن عيسى المسيح كان يجري معجزات عظيمة. ألا يقول القرآن على لسان عيسى المسيح: «وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ»؟١٩٨

«خلق الله البشر ونفخ في آدم نسمة حياة حتى يمكن أن يعيش. وأنتِ على حقٍ في القول بأن عيسى المسيح يمكنه إقامة الموتى. ومع ذلك، عندما كان الناس يسألونه: «مَاذَا نَفْعَلُ حَتَّى نَعْمَلَ أَعْمَالَ اللهِ؟» كان يجيبهم قائلاً: «هذَا هُوَ عَمَلُ اللهِ: أَنْ تُؤْمِنُوا بِالَّذِي هُوَ أَرْسَلَهُ».١٩٩

فتساءلت أم غونشا: «وهل كان صبوراً في عمله مثلنا نحن التركمانستانيون؟»

«كان عيسى المسيح يتحلى بقدرٍ كبير من الصبر، حتى في المعاناة. في الواقع، لم يكن الذين اتهموه زوراً يفهمون لماذا ظلّ صامتاً. كما تحمّل صابراً العديد من الضربات، والتهكمات، وكلمات السخرية، والبصاق، إلخ، قبل أن يسمروه على الصليب. أعتقدُ أن مثاله في الصبر كان في الواقع تحقيقاً لنبوةٍ تعود إلى عدة قرونٍ مضت عندما كتب إشعياء النبي عن عيسى المسيح ما يلي:

«ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ.
كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ،
وَكَنَعْجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا

فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ.»٢٠٠

فعلّقت غونشا قائلةً: «لقد سمعتُ أنه مات ميتةً رهيبة على الصليب.»

فألقيتُ نظرةً على السجادة التي كانت تحت أقدامنا ولاحظتُ على زاوية السجادة رسماً يبدو مثل ثلاثة صلبان على أحد التلال. فذكرني هذا بالطريقة التي نُفِذَ بها حكم الموت على عيسى المسيح على الصليب فوق أحد التلال بينما كان معه اثنان آخران، واحداً على كل جانبٍ.

وقلتُ لهما: «انظرا إلى هذا الرسم في سجادتكما! هذا الشكل يبدو مثل التلّ والصلبان الثلاثة حيث موضع موت عيسى المسيح!» ثم قرأتُ هذه الكلمات من الإنجيل:

«وَجَاءُوا أَيْضًا بِاثْنَيْنِ آخَرَيْنِ مُذْنِبَيْنِ لِيُقْتَلاَ مَعَهُ. وَلَمَّا مَضَوْا بِهِ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يُدْعَى «جُمْجُمَةَ» صَلَبُوهُ هُنَاكَ مَعَ الْمُذْنِبَيْنِ، وَاحِدًا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرَ عَنْ يَسَارِهِ. فَقَالَ يَسُوعُ: «يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ».٢٠١

فقالت غونشا: «لم أكن أعتقد أن هذا الرسم يرتبط بأي شكلٍ من الأشكال بعيسى المسيح. ولكن ها هو بالفعل أمامنا!»

فقالت أمها: «كان أجدادنا يحبون عيسى المسيح، وربما لهذا السبب حتى اليوم يتبادل بعض أفراد الشعب التركمانستاني هذه التحية: 'ليكن الله في صفكم.'»

فقالت غونشا: «نعم، هناك تعبيرٌ مشابه في اللغة التركمانستانية، ولكنه في الواقع أقرب إلى المعنى الحرفي «ليكن الله نصفك»! وباللغة التركمانستانية «كيوداي يار بولسون». ونحن نستخدم هذا التعبير عندما نريد أن نتمنى لشخصٍ ما الخير في مشروعٍ جديد مثل عمل تجاري جديد أو إذا كان عليهم القيام بشيءٌ مهم.»

فقلتُ لهما: «هذا يبدو بركةً عظيمة. ليكن الله في صفكما أيضاً.»

الفصل 10

تركمانستان: المهر

كانت غونشا لها صديقة اسمها كياك تعمل طبيبة. وبناءً على طلبها، أحضرتُ لها مرجعاً طبياً أكاديمياً باللغة الإنجليزية. ونتيجة ذلك انتهى بي الأمر بالتعرف إلى كياك وزوجها وطفلها، وأيضاً والديها وأخواتها الصغيرات. وفي أحد الأيام دُعيتُ لتناول الطعام في منزل والدي الطبيبة، قربان ومارال.

جلسنا على الأرض، وكان بعضنا يجلس على وسائد والبعض الآخر يجلس على السجادة المطرزة بمجموعةٍ من الرسوم الداكنة الملونة الأنيقة. كان قربان يجلس بجواري حول إحدى زوايا السجادة. وفي الناحية الأخرى كانت تجلس ابنته البكر كياك وزوجها مع ابنهما البالغ من العمر عاماً واحداً في حِجر أمه. أما زوجة قربان وبناته الثلاث الأخرى فكنّ يتناوبن الخروج والدخول إلى المكان. في بعض الأحيان كنّ يجلسن لتناول الطعام معنا ولكن غالباً ما كنّ يذهبن إلى المطبخ لإعداد الطعام ووضعه على قطعةٍ من القماش فوق السجادة.

تطرق حديثنا إلى العديد من الموضوعات، وخصوصاً حول الحياة في تركمانستان وأوروبا. كان يبدو أن قربان يعتقد أن أوروبا قطعةً من الجنة أو حلماً من الصعب التخلص منه رغم أنني حكيتُ له عن مشكلات البطالة والجريمة وغيرها. لكن قربان كان يرفض هذه المشكلات قائلاً: «نحن نعاني من كل هذه الهموم هنا في تركمانستان أيضاً، ولكني ما زلتُ أعتقد أن الحياة في أوروبا أفضل بكثيرٍ.»

فقلتُ له: «لكن نوعية العلاقات الاجتماعية ليست جيدة كما هو الحال هنا في تركمانستان. فعلى سبيل المثال، عائلتك تعيش من حولك، وابنتك تأتي مع زوجها وابنها لزيارتك في كثيرٍ من الأحيان، بينما في المدن الأوروبية لا يحدث مثل هذا النوع من التجمعات العائلية غالباً في الكثير من الأسر. فأنا ألاحظ أنه في عشق أباد وفي أجزاءٍ أخرى من آسيا الوسطى، وحتى في روسيا، كثيراً ما يزور الناس جيرانهم أو أقاربهم، وربما يجلسون ويدردشون حول طاولة المطبخ أكثر بكثير مما

يحدث في أماكن مثل فرانكفورت أو لندن أو حتى دبلن. أنتم هنا تلتزمون التزاماً كبيراً بالعلاقات الاجتماعية والصداقات. وأعتقد أن هذا مهمٌ جداً. ففي كثيرٍ من الأحيان في أوروبا يشعر الناس بالوحدة وتنهار الأسر بنسبةٍ أكبر مما يحدث هنا.»

فاقترح قربان تغيير هذا الموضوع.

وسألني فجأةً: «لماذا لا تتزوج امرأةً تركمانستانية إذن؟»

كنتُ قد فوجئتُ بهذا السؤال لأن قربان كان يعرف أنني متزوجٌ ولديّ خمسة أطفال. ألقيتُ نظرةً سريعة على الغرفة. ورأيتُ ابنة قربان الصغرى، التي أعتقد أنها على الأرجح في أواخر سن المراهقة، تحضر أحد الأطباق إلى الغرفة. وعندما سمعتْ سؤال أبيها تغيّر وجهها للون القرمزي. وبينما كانت تحوّل نظرها عنا سرعان ما وضعت الطبق ثم انزوت في المطبخ.

فأجبته قائلاً: «في الواقع أنا متزوج»، رغم أن الجميع كان يعرف هذا.

فقال: «هذا لا يهم. تزوج امرأةً أخرى! فهنا في تركمانستان يمكنك أن تتزوج أربع زوجات. تعال وعش هنا وتزوج واحدة من بناتنا التركمانستانيات.»

«لكني أعتقد أن هذا كان يحدث في الماضي وليس الآن. سمعتُ أن الحكومة لا تعترف في هذه الأيام رسمياً إلا بزوجةٍ واحدة.»

«ما تقول الحكومة شيءٌ وما يفعله الناس شيءٌ آخر! ففي الواقع لا أحد يمانع حقاً إذا تزوجتَ زوجةً ثانية.»

«أعتقدُ أن زوجتي الحالية ستكون لديها اعتراضات قوية على ذلك!»

وبينما كنتُ أفكرُ في طريقةٍ ما لمناقشة موضوع آخر أضفتُ: «علاوةً على ذلك، أعتقدُ أن أسرة العروس سوف تكون في انتظار المهر. فعندما كنتُ في أوزبكستان، سمعتُ أن رجلاً أوزبكياً اضطر لدفع ٥٠٠ دولاراً، بالإضافة إلى مجموعةٍ من السلع المختلفة، لأبوي خطيبته حتى يتمكن من الزواج من ابنتهما. وفي عائلةٍ أخرى في إحدى مناطق أوزبكستان، كان المهر قبل بضع أعوامٍ ١٠٠ دولاراً بالإضافة إلى مجموعةٍ من السلع. كما سمعتُ أن رجلاً في أوزبكستان اضطر لدفع مهر بقيمة عشرين بقرة بالإضافة إلى هدايا للأقارب. ورجلٌ آخر في أوزبكستان قدم بعض الهدايا باعتبارها مهراً ثم وقَّع عقداً بأنه سيدفع مصروفات التعليم الجامعي لزوجته في المستقبل.»

«من الواضح أنك مهتمٌ بهذا الموضوع إذاً! ولكني، على أي حالٍ، أنا أبٌ عصريٌ، ولذلك لن أطالب بأي مهرٍ من أي إنسانٍ يريد أن يتزوج إحدى بناتي. ومع ذلك، بما أن ابنتي الصغرى تلقت تعليماً جيداً وجذابة للغاية، فسوف أطالب العريس في حالة قبولي إياه بمهرٍ يتراوح بين ٥٠٠٠ دولاراً إلى ١٠٠٠٠ دولاراً.»

كنتُ أريد نقل الحديث بعيداً عن وضعي الشخصي.

فسألته: «ما رأيك في المهر هذه الأيام؟ فالبعض يقول إنه من المهم الحفاظ على هذه العادات القديمة في حين يرى آخرون أنه مجرد تقليدٍ قديم لم يعد مهماً لأن سعادة الزوجين لا تعتمد عليه. ما رأيك؟»

كان يبدو أنه من الصعوبة إقناع قربان بتغيير الموضوع.

فأجابني قائلاً: «أعتقدُ أن هناك سؤالاً أعمق بكثيرٍ لأن السؤال الأهم هو: من سيكون زوجي؟ أو من ستكون زوجتي؟» هذه هي الأسئلة التي يسألها كل شابٍ أحياناً. وكثيرٌ من الآباء أيضاً يسألون أنفسهم: من ستكون زوجةً صالحة لابني؟ أو من سيكون زوجاً صالحاً لابنتي؟» هذا القرار أحد أهم القرارات التي علينا أن نأخذها في حياتنا. أما مسألة المهر فليست سوى تفاصيل ثانوية.»

«أنت على حقٍ. ولهذا نحن بحاجة للحكمة. فعلى المرء ألا يتسرع في زواجٍ قد يتحول إلى كارثةٍ، ولذلك نحن بحاجة للحكمة لمعرفة الشخص المناسب للزواج. ومع ذلك، من أين نأتي بالحكمة؟ أنا متأكدٌ أنك تعرف أن مصدر الحكمة هو الله. فسليمان كتب يقول:

لأَنَّ الْحِكْمَةَ خَيْرٌ مِنَ اللَّآلِئِ،

وَكُلُّ الْجَوَاهِرِ لاَ تُسَاوِيهَا.»٢٠٢

«نعم، ولكن كيف نحصل على الحكمة؟ علينا أن نكون عمليين بخصوص هذه الأمور!»

«الإجابة موجودة في أحد أسفار الله المقدسة. مكتوبٌ:

«وَإِنَّمَا إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ تُعْوِزُهُ حِكْمَةٌ، فَلْيَطْلُبْ مِنَ اللهِ الَّذِي يُعْطِي الْجَمِيعَ بِسَخَاءٍ وَلاَ يُعَيِّرُ، فَسَيُعْطَى لَهُ. وَلكِنْ لِيَطْلُبْ بِإِيمَانٍ غَيْرَ مُرْتَابٍ الْبَتَّةَ، لأَنَّ الْمُرْتَابَ يُشْبِهُ مَوْجًا مِنَ الْبَحْرِ تَخْبِطُهُ الرِّيحُ وَتَدْفَعُهُ. فَلاَ يَظُنَّ ذلِكَ الإِنْسَانُ أَنَّهُ يَنَالُ شَيْئًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ. رَجُلٌ ذُو رَأْيَيْنِ هُوَ مُتَقَلْقِلٌ فِي جَمِيعِ طُرُقِهِ.»٢٠٣

للحصول على الحكمة من الله، علينا أولاً أن نكون على استعدادٍ لسماع صوت الله وأن نطلب منه كي يكشف لنا طريق الحق. كتب سليمان: «بَدْءُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الرَّبِّ، وَمَعْرِفَةُ الْقُدُّوسِ فَهْمٌ.»٢٠٤

فاعترضني قربان قائلاً: «لكن الرجل الحكيم يحتاج الزوجة إلى جانب الحكمة أيضاً!»

«نعم، لكن الرجل الحكيم يعرف أيضاً أن الزوجة التي يختارها له الله هي الزوجة المثالية له!»

«أعلمُ أنك تحب أن تنقل كلمات سليمان. في الواقع، كنتُ أقرأ أمثاله أيضاً ووجدتُ مثلاً يقول: «مَنْ يَجِدُ زَوْجَةً يَجِدُ خَيْرًا وَيَنَالُ رِضًى مِنَ الرَّبِّ.»٢٠٥

«نعم، هذا صحيحٌ لأن الله هو خالق الكل وبالتالي فهو أبو الكل. أنت أبٌ صالحٌ وتريد أن تتزوج ابنتك زوجاً صالحاً، وبنفس الطريقة يريد الله لكل واحدٍ منا أن يتزوج من الزوجة أو الزوج المناسب. ولهذا السبب قال عيسى المسيح: «فَلاَ تَهْتَمُّوا قَائِلِينَ: مَاذَا نَأْكُلُ؟ أَوْ مَاذَا نَشْرَبُ؟ أَوْ مَاذَا نَلْبَسُ؟ فَإِنَّ هذِهِ كُلَّهَا تَطْلُبُهَا الأُمَمُ. لأَنَّ أَبَاكُمُ السَّمَاوِيَّ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هذِهِ كُلِّهَا. لكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ.»٢٠٦

«يمكنني أن أفهم أن الله يمنحنا الطعام والشراب، ولكن كيف يمكنه أن يعطينا زوجة؟»

«مثلما كان الآباء التركمانستانيون في الماضي يرتبون زيجات أبنائهم، هكذا أبونا السماوي، الذي يمنحنا الاحتياجات اليومية من الغذاء والمأوى، يوفر الشريك المناسب لكل واحدٍ من أولاده. هل تعرف كيف وجد إبراهيم زوجةً لابنه إسحاق؟»

«لا. لقد قرأتُ أمثال سليمان ولكني لم أجد أي شيءٍ بخصوص إبراهيم.»

«القصة واردة في التوراة وليست في سفر أمثال سليمان. هل تريد مني أن أحكي لك القصة؟»

«نحن التركمانستانيون نحب دائماً سماع القصص!»

فبدأتُ أروي له القصة قائلاً: «كان إبراهيم متقدماً في العمر، أكبر سناً بكثيرٍ مني أو منك! وفي شيخوخته رزقه الله بابنٍ. كان إبراهيم أباً صالحاً فأراد أن يتزوج ابنه زوجةً صالحة. لم يكن يريد أن يتزوج ابنه امرأةً تعبد آلهةً أو أصناماً كاذبة، لأنه كان يعلم أن الإيمان المشترك بين الرجل وزوجته مهمٌ جداً في أي زواجٍ. ولذلك قال لغلامه:

«فَأَسْتَحْلِفَكَ بِالرَّبِّ إِلهِ السَّمَاءِ وَإِلهِ الأَرْضِ أَنْ لاَ تَأْخُذَ زَوْجَةً لابْنِي مِنْ بَنَاتِ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ أَنَا سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ، بَلْ إِلَى أَرْضِي وَإِلَى عَشِيرَتِي تَذْهَبُ وَتَأْخُذُ زَوْجَةً لابْنِي إِسْحَاقَ.»٢٠٧

فأخذ العبد عشرة جِمالٍ من جِمال مولاه والكثير من خيرات مولاه ومضى في رحلةٍ طويلة إلى المنطقة التي كان يسكنها أقارب إبراهيم. وهناك صلّى إلى الله كي يرشده.

«أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهَ سَيِّدِي إِبْرَاهِيمَ، يَسِّرْ لِي الْيَوْمَ وَاصْنَعْ لُطْفًا إِلَى سَيِّدِي إِبْرَاهِيمَ. هَا أَنَا وَاقِفٌ عَلَى عَيْنِ الْمَاءِ، وَبَنَاتُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ خَارِجَاتٌ لِيَسْتَقِينَ مَاءً. فَلْيَكُنْ أَنَّ الْفَتَاةَ الَّتِي أَقُولُ لَهَا: أَمِيلِي جَرَّتَكِ لأَشْرَبَ، فَتَقُولَ: اشْرَبْ وَأَنَا أَسْقِي

جِمَالَكَ أَيْضًا، هِيَ الَّتِي عَيَّنْتَهَا لِعَبْدِكَ إِسْحَاقَ. وَبِهَا أَعْلَمُ أَنَّكَ صَنَعْتَ لُطْفًا إِلَى سَيِّدِي». وَإِذْ كَانَ لَمْ يَفْرَغْ بَعْدُ مِنَ الْكَلاَمِ، إِذَا رِفْقَةُ الَّتِي وُلِدَتْ لِبَتُوئِيلَ ابْنِ مِلْكَةَ امْرَأَةِ نَاحُورَ أَخِي إِبْرَاهِيمَ، خَارِجَةٌ وَجَرَّتُهَا عَلَى كَتِفِهَا.»٢٠٨

فَرَكَضَ الْعَبْدُ لِلِقَائِهَا وَقَالَ: «اسْقِينِي قَلِيلَ مَاءٍ مِنْ جَرَّتِكِ». فَقَالَتِ: «اشْرَبْ يَا سَيِّدِي». وَأَسْرَعَتْ وَأَنْزَلَتْ جَرَّتَهَا عَلَى يَدِهَا وَسَقَتْهُ. وَلَمَّا فَرَغَتْ مِنْ سَقْيِهِ قَالَتْ: «أَسْتَقِي لِجِمَالِكَ أَيْضًا حَتَّى تَفْرَغَ مِنَ الشُّرْبِ». فَأَسْرَعَتْ وَأَفْرَغَتْ جَرَّتَهَا فِي الْمَسْقَاةِ، وَرَكَضَتْ أَيْضًا إِلَى الْبِئْرِ لِتَسْتَقِيَ، فَاسْتَقَتْ لِكُلِّ جِمَالِهِ.٢٠٩

«وَإِذْ كَانَ لَمْ يَفْرَغْ بَعْدُ مِنَ الْكَلاَمِ، إِذَا رِفْقَةُ الَّتِي وُلِدَتْ لِبَتُوئِيلَ ابْنِ مِلْكَةَ امْرَأَةِ نَاحُورَ أَخِي إِبْرَاهِيمَ، خَارِجَةٌ وَجَرَّتُهَا عَلَى كَتِفِهَا. وَكَانَتِ الْفَتَاةُ حَسَنَةَ الْمَنْظَرِ جِدًّا، وَعَذْرَاءَ لَمْ يَعْرِفْهَا رَجُلٌ.»٢١٠

كان إسحاق قد وُلِدَ لإبراهيم في شيخوخته، وكانت فتاةٌ من بيت أخي إبراهيم أقرب فتاةٍ مؤهلة للزواج في سلسلة النسب. اختار الله العروس الأنسب من بين جميع العرائس!

ومع ذلك، فنحن بحاجة إلى أن نكون على استعدادٍ لعمل مشيئة الله. لم تكن رفقة قد قابلت إسحاق ولكنها كانت على استعدادٍ لتتبع العلامات التي كان يرسلها الله بعد أن أوضح العبد سبب مجيئه.

فَدَعَوْا رِفْقَةَ وَقَالُوا لَهَا: «هَلْ تَذْهَبِينَ مَعَ هذَا الرَّجُلِ؟» فَقَالَتْ: «أَذْهَبُ.»٢١١

«وَأَخْرَجَ الْعَبْدُ آنِيَةَ فِضَّةٍ وَآنِيَةَ ذَهَبٍ وَثِيَابًا وَأَعْطَاهَا لِرِفْقَةَ، وَأَعْطَى تُحَفًا لأَخِيهَا وَلأُمِّهَا.»٢١٢

فقال قربان: «أرأيتَ؟ لقد منح الأسرة مهراً أيضاً مثلنا نحن التركمانستانيون!»

«نعم! وليس فقط مثل التركمانستانيين! ولكن هذا يشبه زوجين من كراشاي أعرفهما في شمال القوقاز قالا لي إن العريس لم يدفع أي مهر ولكن والدا العريس قدما للعروس مجوهرات وفساتين جميلة.»

«إذاً عاداتنا مذكورة في التوراة أيضاً! وبالتالي فإن الله ليس ضد هذه التقاليد.»

«صحيحٌ أننا نقرأ في التوراة أن إبراهيم كان على استعدادٍ لتقديم هدايا قيمة لعائلة العروس في رحلة البحث عن زوجةٍ لابنه. ومع ذلك، فإن يعقوب حفيد إبراهيم فعل شيئاً مختلفاً. فبدلاً من تقديم أموال أو هدايا مادية، ظلّ يعمل لحساب خاله لمدة سبع أعوامٍ كي يتمكن من الزواج من الفتاة التي كان يحبها. وفي النهاية عمل في الواقع لمدة أربعة عشر عاماً لأن خاله أصرّ على أن يتزوج يعقوب كلاً من ابنتيه. وقد كانت هذه تقدمةٌ باذلة من أيام عمره ومجهوده. هذا النوع من التقدمة الباذلة عادةً

ما يعبّر عن حبٍ أعمق بكثيرٍ مما يتم التعبير عنه بمجرد تقديم مال أو هدايا مادية أخرى.»

فوافقني قربان قائلاً: «أعتقدُ أن هذا صحيحٌ. ففي النهاية، لا تكون أموالنا سوى ما عملنا من أجله، ولذلك أعتقدُ أنها تمثل أيضاً وقتنا ومجهودنا بشكلٍ ما. فالمسألة ليست مسألة «شراء» عروس بل تعبيراً عن مجهودنا ووقتنا.»

«بنفس الطريقة يُظهِر الله محبته لنا. فالله يحب كل واحدٍ منا كثيراً لدرجة أنه على استعدادٍ لبذل نفسه عنا تماماً. الله يُظهِر محبته لنا بطريقةٍ باذلة أعظم بمراحل حتى من طريقة يعقوب.»

«الله يحب كل واحدٍ منا، رجالاً ونساءً، ويريد الترحيب بنا في السماء ترحيباً لائقاً بعُرسٍ. ومع ذلك، لا يخلو هذا العُرس من مهرٍ مكلفٍ للغاية.»

فسألني قربان: «هل تقصد أن الله يدفع مهراً أيضاً مثلما فعل إبراهيم عندما وجد غلامه عروساً لابنه؟»

«هذا صحيحٌ!»

«إذا ماذا سيدفع الله في المهر؟»

«مهر الله أكبر بكثيرٍ من مهر إبراهيم أو مهر يعقوب. مهر الله مكلفٌ جداً وينطوي على تضحيةٍ أعظم بكثيرٍ. الله يحبنا للغاية لدرجة أنه بذل أقرب من له، وهو ابنه القدوس. مهر الله هو عيسى المسيح نفسه!»

«عيسى المسيح؟ هل هو إنسان؟ أم نبي؟ ماذا تقصد؟»

مكتوبٌ:

«عَالِمِينَ أَنَّكُمُ افْتُدِيتُمْ لاَ بِأَشْيَاءَ تَفْنَى، بِفِضَّةٍ أَوْ ذَهَبٍ، مِنْ سِيرَتِكُمُ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَقَلَّدْتُمُوهَا مِنَ الآبَاءِ، بَلْ بِدَمٍ كَرِيمٍ، كَمَا مِنْ حَمَل بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ، دَمِ الْمَسِيحِ»٢١٣

«مهر الله يدفعه حبٌ عميق للغاية لنا. فالله أحبنا كثيراً جداً لدرجة أنه كان على استعدادٍ لبذل من لم يخطئ على الإطلاق، عيسى المسيح، حتى يأخذ إلى السماء من لا يستحقون الحياة مع الله مثلي ومثلك.»

قال عيسى المسيح عن نفسه:

«لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هذَا: أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ. أَنْتُمْ أَحِبَّائِي إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أُوصِيكُمْ بِهِ.»٢١٤

«ماذا؟ أحباء عيسى المسيح؟ أحباء الله؟ كيف يمكن هذا؟»

«يقول الإنجيل عن الذين آمنوا بعيسى المسيح رباً ومخلصاً:

«وَلكِنْ حِينَ ظَهَرَ لُطْفُ مُخَلِّصِنَا اللهِ وَإِحْسَانُهُ لاَ بِأَعْمَال فِي بِرّ عَمِلْنَاهَا نَحْنُ، بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ خَلَّصَنَا بِغُسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ، الَّذِي سَكَبَهُ بِغِنًى عَلَيْنَا بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ مُخَلِّصِنَا.»٢١٥

فتساءل قربان متأملاً: «لاَ بِأَعْمَال فِي بِرّ عَمِلْنَاهَا نَحْنُ، بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ؟ نعم، لقد سمعتُ أن الله رحيم. ومهر الله بالتأكيد أعظم بكثيرٍ من المهر الذي قدمته مع والديّ إلى حماي وحماتي عند زواجي!»

«هذا المهر الذي دفعته له تأثيرٌ أيضاً على علاقتك الخاصة مع زوجتك. وبنفس الطريقة، هل فكرتَ يوماً في أن محبة الله، التي تمّ التعبير عنها في مهر الله، يمكن أن تؤثر أيضاً على علاقاتنا داخل الأسرة؟»

مكتوبٌ في الإنجيل:

«أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ كَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضًا الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا، لِكَيْ يُقَدِّسَهَا، مُطَهِّرًا إِيَّاهَا بِغَسْلِ الْمَاءِ بِالْكَلِمَةِ، لِكَيْ يُحْضِرَهَا لِنَفْسِهِ كَنِيسَةً مَجِيدَةً، لاَ دَنَسَ فِيهَا وَلاَ غَضْنَ أَوْ شَيْءٌ مِنْ مِثْلِ ذلِكَ، بَلْ تَكُونُ مُقَدَّسَةً وَبِلاَ عَيْبٍ. كَذلِكَ يَجِبُ عَلَى الرِّجَالِ أَنْ يُحِبُّوا نِسَاءَهُمْ كَأَجْسَادِهِمْ. مَنْ يُحِبُّ امْرَأَتَهُ يُحِبُّ نَفْسَهُ. فَإِنَّهُ لَمْ يُبْغِضْ أَحَدٌ جَسَدَهُ قَطُّ، بَلْ يَقُوتُهُ وَيُرَبِّيهِ، كَمَا الرَّبُّ أَيْضًا لِلْكَنِيسَةِ. لأَنَّنَا أَعْضَاءُ جِسْمِهِ، مِنْ لَحْمِهِ وَمِنْ عِظَامِهِ. «مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا». هذَا السِّرُّ عَظِيمٌ، وَلكِنَّنِي أَنَا أَقُولُ مِنْ نَحْوِ الْمَسِيحِ وَالْكَنِيسَةِ. وَأَمَّا أَنْتُمُ الأَفْرَادُ، فَلْيُحِبَّ كُلُّ وَاحِدٍ امْرَأَتَهُ هكَذَا كَنَفْسِهِ، وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَلْتَهَبْ رَجُلَهَا.»٢١٦

إن الحب البشري، وحتى الحب بين الزوج وزوجته، مجرد انعكاسٍ خافت من الحب المثالي الذي يحمله الله لنا. من الممكن أن يُثرى الزواج كل شخصٍ يختبر محبة الله ثم يفيض حبه إلى شريك حياته. مكتوبٌ في الإنجيل:

«أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لِنُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضًا، لأَنَّ الْمَحَبَّةَ هِيَ مِنَ اللهِ، وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ فَقَدْ وُلِدَ مِنَ اللهِ وَيَعْرِفُ اللهَ. وَمَنْ لاَ يُحِبُّ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ، لأَنَّ اللهَ مَحَبَّةٌ...

اَللهُ مَحَبَّةٌ، وَمَنْ يَثْبُتْ فِي الْمَحَبَّةِ، يَثْبُتْ فِي اللهِ وَاللهُ فِيهِ. بِهذَا تَكَمَّلَتِ الْمَحَبَّةُ فِينَا: أَنْ يَكُونَ لَنَا ثِقَةٌ فِي يَوْمِ الدِّينِ، لأَنَّهُ كَمَا هُوَ فِي هذَا الْعَالَمِ، هكَذَا نَحْنُ أَيْضًا. لاَ خَوْفَ فِي الْمَحَبَّةِ، بَلِ الْمَحَبَّةُ الْكَامِلَةُ تَطْرَحُ الْخَوْفَ إِلَى خَارِجٍ لأَنَّ الْخَوْفَ لَهُ عَذَابٌ. وَأَمَّا مَنْ خَافَ فَلَمْ يَتَكَمَّلْ فِي الْمَحَبَّةِ. نَحْنُ نُحِبُّهُ لأَنَّهُ هُوَ أَحَبَّنَا أَوَّلاً.»٢١٧

فتساءل قربان: «الله محبة؟ هل هذا ما قلته؟ لم أكن أعتقد من قبل أن الله محبة على الرغم من أنني أعرفُ أن الله رحيم. إذا كان الله محبة، فهذا يؤثر بالطبع على الطريقة التي نتعامل بها مع مختلف البشر الذين يحبهم الله أيضاً.»

«نعم، أنت على حقٍ. هل تعلم أن الله قد أعدَّ أيضاً معيناً نظيراً لكل واحدٍ منا؟»

«هل تقصد زوجاتنا؟»

«ليست مجرد زوجةً أو زوجاً! ومع ذلك، صنع الله كلاً منا فريداً من نوعه ولديه شريكٌ فريد رتبه كي نتشارك حياتنا معه. فبعد أن صنع الله الإنسان الأول، آدم، «قَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ.»٢١٨

المعين النظير الذي أعطاه الله لآدم كان حواء المرأة الأولى. ومع ذلك، لسنا بحاجة للانتظار حتى الزواج كي نجد معيناً آخر وعد به الله لمن يحبونه ويكونوا على استعدادٍ لعمل مشيئته. وعد عيسى المسيح بإرسال روحه القدوس ليكون معيناً معزياً لجميع الذين يحبون الله ويكونوا على استعدادٍ لقبول هذه العطية الخاصة لحضور الله في حياتهم. قال المسيح:

«وَأَمَّا الْمُعَزِّي، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ. «سَلاَمًا أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ.»٢١٩

«هل تقصد أن روح الله القدس رفيقٌ أفضل وأقرب حتى من الزوج أو الزوجة؟»

«في نواحٍ كثيرة، نعم، لأن الله نفسه يأتي لنا من خلال روحه القدوس. فسواء كنا متزوجين أو لا في هذه الحياة، فالأهم هو أن نتمتع بالصداقة الخاصة مع الله التي تأتي من سكنى الروح القدس في حياتنا. إنه يساعدنا على الحياة بأفضل طريقةٍ ممكنة. أولئك الذين هم على استعدادٍ لقبول الروح القدس الذي يرسله عيسى المسيح معيناً ومعزياً في هذه الحياة لديهم معيناً أفضل بكثيرٍ من أي زوجٍ أو زوجةٍ من بين البشر. وفي الوقت نفسه، فإن خطة الله هي أن يصنع عائلة جديدة من أمةٍ مقدسة يوحدها روح الله القدس.»

«عائلةٌ جديدة من أمةٍ مقدسة؟ هل هذا ما كنتَ تقصده عندما قلتَ إن الله يعدّ وليمة عُرسٍ رائعة في السماء؟»

«على العروس أن تهيئ نفسها ليلة زفافها، ولهذا السبب أعطانا الله روحه القدوس كي يجعلنا أكثر قداسة الآن وكي يعدنا للأبدية مع الله في السماء. ومع ذلك، فإن أولئك الذين ينتمون إلى عائلة الله الجديدة لديهم عُرسٌ خاص مُعدّ لهم: في الواقع، الله نفسه يُعدّ وليمة العرس في السماء. فكل الذين وافقوا على دعوة الله يكونون معاً، بصورة جماعية، مثل العروس. من الممكن أن يأتوا إلى السماء بسبب التضحية التي قدمها الله بدفع المهر الخاص به. الآن علينا أن نكون على استعدادٍ لذلك «العرس» عندما يأخذ عيسى المسيح شعبه المقدس ليكون «عروسه» إلى الأبد. كتب يوحنا الحبيب عما سيحدث في ذلك اليوم قائلاً:

«ثُمَّ رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً، لأَنَّ السَّمَاءَ الأُولَى وَالأَرْضَ الأُولَى مَضَتَا، وَالْبَحْرُ لاَ يُوجَدُ فِي مَا بَعْدُ. وَأَنَا يُوحَنَّا رَأَيْتُ الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ أُورُشَلِيمَ الْجَدِيدَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُهَيَّأَةً كَعَرُوسٍ مُزَيَّنَةٍ لِرَجُلِهَا. وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً: «هُوَذَا مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شَعْبًا، وَاللهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلهًا لَهُمْ. وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ، لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ».٢٢٠

ثم كتب يوحنا الحبيب:

وَالرُّوحُ وَالْعَرُوسُ يَقُولاَنِ: «تَعَالَ!». وَمَنْ يَسْمَعْ فَلْيَقُلْ: «تَعَالَ!». وَمَنْ يَعْطَشْ فَلْيَأْتِ. وَمَنْ يُرِدْ فَلْيَأْخُذْ مَاءَ حَيَاةٍ مَجَّانًا.»٢٢١

الفصل 11

قرقل باغستان: تكريم أسلافنا

كانوا قد انتهوا من التنظيف حول القبر وإزالة بعض الأعشاب التي نمت هناك. كان جميع أعضاء الأسرة من قرقل باغستان يجلسون القرفصاء بجوار القبر في حين فتحت الجدة حقيبة كانت قد أحضرتها معها. كانت الحقيبة تحتوي على خبز نان مررته الجدة إلى ابنها الأكبر. فأخذه ابنها وكسر قطعةً منه ثم مررّه إلى الشخص الجالس بجواره. ثم أخذ كلٌ منهم دوره في كسر الخبز وتناول قطعة صغيرة ثم إعطاء بقية الخبز إلى الشخص التالي حتى تم تمريره على هيئة دائرة ثم عاد إلى الجدة. كان كلٌ منهم يأكل الخبز في صمتٍ وهم يتذكرون الميت ومدى قيمته بالنسبة لهم. ورغم أنهم كانوا يصلون بقلوبهم بشكلٍ ما، فإنهم لم يعبّروا عن ذلك علانيةً.

سافرتُ شمالاً من عشق آباد ووصلتُ إلى الجزء الشمالي الغربي من أوزبكستان، حيث يعيش شعب قرقل باغستان. وفي (العاصمة) نكوص وجدتُ مكاناً يمكنني فيه الدخول إلى الإنترنت. وبينما كنتُ هناك التقيتُ رجلاً من قرقل باغستان اسمه باخدير. فعرض عليَّ من صميم قلبه أن يأخذني في جولةٍ في المنطقة المحيطة. وعندما علمَ أنني مهتمٌ بمعرفة المزيد عن ثقافة قرقل باغستان، دعاني للذهاب في اليوم التالي مع بعض أقاربه لزيارة قبر عمه.

بعد ذلك، سألتُ صديقي باخدير عن مشاعره بخصوص أقاربه الذين ماتوا.

فقال لي: «بالطبع أصلي إلى الله ولكني أشعر أن أرواح أسلافنا أقرب إلينا بطريقةٍ أو بأخرى. ولهذا السبب فإني أصلي إلى الأرواح أكثر مما أصلي إلى الله. أشعرُ أن الله بعيدٌ نوعاً ما وليس مهتماً بي اهتماماً كافياً، بينما أشعرُ أن الأرواح أقرب.»

ذكرتني كلماته بأفكارٍ مماثلة سمعتها في اليابان. لم يكن هذا بالتأكيد من تعاليم الإسلام الرسمية وإنما موقفاً مشتركاً بين أهل قرقل باغستان وكازاخستان.

«لا بدَّ أنك كنتَ تحب والديك وأجدادك كثيراً.»

«نعم، فقد تعبوا من أجلي كثيراً. شملوني بالتربية وأولوني بالرعاية وأعطوني ما كان في وسعهم بقدر المستطاع. إني مدينٌ لهم بدراستي. لم يكونوا أثرياءً ولهذا لم يتركوا لي الكثير من الميراث المادي ولكن بينما كانوا على قيد الحياة قدموا لي الكثير، بما في ذلك مساعدتي في نفقات حفل زفافي. لقد أحبوني واهتموا بي. وأنا مدينٌ لهم بالكثير.»

«أنا متأكدٌ من ذلك، ومن الرائع أن تكرمهم وتحترمهم هذا الاحترام، تماماً كما يكرمك أولادك. وهذا ما يقوله الأنبياء إنه مسؤولية كبيرة من الأولاد تجاه والديهم.»

«كنتُ أعتقد أن هذا مقتصرٌ على ثقافة شعب قرقل باغستان فقط. فلم أسمع من قبل أي شيءٍ في القرآن عن احترام الأولاد والديهم.»

«كنتُ أفكر في النبي العظيم موسى الذي كتب التوراة. فالله أعطى موسى الوصايا العشر العظيمة التي كانت في غاية الأهمية لدرجة أن الله كتبها على ألواحٍ حجرية حتى يتسنى للشعب اليهودي أن يتذكرها. تقول إحدى هذه الوصايا: «أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ».٢٢٢

«هل قال موسى النبي هذا؟ هل إذا أكرمتُ والديَّ ستطول أيامي على الأرض؟»

«ربما يكون هذا هو المعنى، ولكني أعتقدُ أن هذا يشير أيضاً إلى شيءٍ مختلف. فموسى النبي كان ينقل الشعب اليهودي إلى الأرض التي وعد بها الله لأسلافهم. ومع ذلك، قال الله إذا لم يتبعوا ناموس الله في تلك الأرض الجديدة، وخاصةً إذا اتبعوا آلهةً أخرى، فسوف يُبادون أو يُنفون من أراضيهم ولن يعيشوا فيها.٢٢٣ ولذلك أعتقدُ أن الآية تتحدث أيضاً عن المدة التي ستعيشها هذه الجماعة العرقية بأكملها في هذه الأرض.»

«ولكن هؤلاء الناس كانوا من المفترض «شعب الله المختار»! ألم يعد الله سلفهم إبراهيم بأن ذريته ستعيش في الأرض التي وعدها لهم؟»٢٢٤

«بلى. الله قدّم هذا الوعد، ومنذ زمان موسى النبي فصاعداً كان هناك على الأقل بعضٌ من نسل إبراهيم يعيشون هناك، على الرغم من أن الغالبية تفرقت في أماكن أخرى لفتراتٍ طويلة من الزمن. ومع ذلك، فإن الانتساب إلى إبراهيم لا يقتصر على نسب الجسد.»

«ماذا تقصد؟»

«كان كثيرٌ من نسل إبراهيم يعتقدون أن مجرد انتسابهم إليه إنما يضعهم في فئةٍ خاصة ويقدّم لهم ضماناً بالبركة. ومع ذلك، كان الأكثر أهمية بكثيرٍ من نسب الجسد هو السلوك حسب نفس الإيمان الذي كان يحمله سلفهم إبراهيم. قال النبي يحيى (يوحنا المعمدان) لبعضٍ منهم: «يَا أَوْلاَدَ الأَفَاعِي، مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنَ الْغَضَبِ الآتِي؟ فَاصْنَعُوا أَثْمَارًا تَلِيقُ بِالتَّوْبَةِ. وَلاَ تَفْتَكِرُوا أَنْ تَقُولُوا فِي أَنْفُسِكُمْ: لَنَا إِبْرَاهِيمُ

أَبًا. لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ اللهَ قَادِرٌ أَنْ يُقِيمَ مِنْ هذِهِ الْحِجَارَةِ أَوْلاَدًا لإِبْراهِيمَ. وَالآنَ قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ، فَكُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ.»٢٢٥

فأشار باخدير قائلاً: «يا لها من حجةٍ بليغة!»

«لقد ذهب عيسى المسيح أبعد من ذلك وقال إنهم أبناء إبليس!»

«حقاً! ماذا قال؟»

«الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ الْخَطِيَّةَ هُوَ عَبْدٌ لِلْخَطِيَّةِ. وَالْعَبْدُ لاَ يَبْقَى فِي الْبَيْتِ إِلَى الأَبَدِ، أَمَّا الابْنُ فَيَبْقَى إِلَى الأَبَدِ. فَإِنْ حَرَّرَكُمُ الابْنُ فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ أَحْرَارًا. أَنَا عَالِمٌ أَنَّكُمْ ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ. لكِنَّكُمْ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي لأَنَّ كَلاَمِي لاَ مَوْضِعَ لَهُ فِيكُمْ. أَنَا أَتَكَلَّمُ بِمَا رَأَيْتُ عِنْدَ أَبِي، وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مَا رَأَيْتُمْ عِنْدَ أَبِيكُمْ».

أَجَابُوا وَقَالُوا لَهُ: «أَبُونَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ».

قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتُمْ أَوْلاَدَ إِبْرَاهِيمَ، لَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ إِبْرَاهِيمَ! وَلكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللهِ. هذَا لَمْ يَعْمَلْهُ إِبْرَاهِيمُ. أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ أَبِيكُمْ».

فَقَالُوا لَهُ: «إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِنًا. لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ».

فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كَانَ اللهُ أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي، لأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ اللهِ وَأَتَيْتُ. لأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي، بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي. لِمَاذَا لاَ تَفْهَمُونَ كَلاَمِي؟ لأَنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي. أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ، وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا. ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ. مَتَى تَكَلَّمَ بِالْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ، لأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو الْكَذَّابِ.»٢٢٦

«يمكنني أن أفهم لماذا يقولون إن إبراهيم كان سلفهم، ولكن لماذا يدعون الله أبيهم أيضاً؟ فالله بالتأكيد لا يمكن أن يكون له أولاد.»

«الله خالق كل شيءٍ، وبذلك يمكننا جميعاً أن نعتبر أنفسنا أولاده. قال الله على لسان النبي إشعياء:

«اِسْمَعِي أَيَّتُهَا السَّمَاوَاتُ وَأَصْغِي أَيَّتُهَا الأَرْضُ،

لأَنَّ الرَّبَّ يَتَكَلَّمُ:

«رَبَّيْتُ بَنِينَ وَنَشَّأْتُهُمْ، أَمَّا هُمْ فَعَصَوْا عَلَيَّ.

اَلثَّوْرُ يَعْرِفُ قَانِيَهُ وَالْحِمَارُ مِعْلَفَ صَاحِبِهِ،

أَمَّا إِسْرَائِيلُ فَلاَ يَعْرِفُ.

شَعْبِي لاَ يَفْهَمُ».٢٢٧

وفي فقراتٍ أخرى يخاطب إشعياء النبي الله على النحو التالي:

«تَطَلَّعْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَانْظُرْ مِنْ مَسْكَنِ قُدْسِكَ وَمَجْدِكَ:
أَيْنَ غَيْرَتُكَ وَجَبَرُوتُكَ؟
زَفِيرُ أَحْشَائِكَ وَمَرَاحِمُكَ نَحْوِي امْتَنَعَتْ.
فَإِنَّكَ أَنْتَ أَبُونَا وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْنَا إِبْرَاهِيمُ،
وَإِنْ لَمْ يَدْرِنَا إِسْرَائِيلُ.
أَنْتَ يَا رَبُّ أَبُونَا،
وَلِيُّنَا مُنْذُ الأَبَدِ اسْمُكَ.»٢٢٨

وبنفس الطريقة، قال ملاخي النبي:

«أَلَيْسَ أَبٌ وَاحِدٌ لِكُلِّنَا؟ أَلَيْسَ إِلهٌ وَاحِدٌ خَلَقَنَا؟
فَلِمَ نَغْدُرُ الرَّجُلُ بِأَخِيهِ لِتَدْنِيسِ عَهْدِ آبَائِنَا؟»٢٢٩

فقال باخدير متعجباً: «الله إذاً سلفنا جميعاً! هل يمكنك بالتالي أن تقول إن آدم، الإنسان الأول، كان بشكلٍ ما ابناً لله؟ هل هذا يجعلنا جميعاً متحدرين من الله، من خلال آدم؟»

«أنت حاد الإدراك يا باخدير! هل تعرف كيف تصف سلسلة نسب عيسى المسيح الإنسان الأول آدم؟»

«كيف؟»

تماماً كما قلتَ: بصفته ابناً لله! مكتوبٌ:

«وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلاَثِينَ سَنَةً، وَهُوَ عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ ابْنَ يُوسُفَ، بْنِ هَالِي، بْنِ مَتْثَاتَ، بْنِ لاَوِي، بْنِ مَلْكِي...» إلخ، إلى عدة أجيالٍ وصولاً إلى الإنسان الأول. ثم تنتهي سلسلة النسب هكذا: «... بْنِ أَنُوشَ، بْنِ شِيتِ، بْنِ آدَمَ، ابْنِ اللهِ!»٢٣٠

«هذا مثيرٌ للاهتمام. لقد قلتَ إن موسى النبي كتبَ عن ضرورة إكرام الوالدين. ألا يعني هذا أيضاً تكريم أجدادنا بما أنهم والدي والدينا مروراً إلى جميع أسلافنا؟ أليس هذا ما نفعله نحن أهل قرقل باغستان عندما نتذكر الأرواح؟»

«أنت على حقٍ في أننا ينبغي أن نكرم والدينا، وبالتالي يمكن القول إن هذا ينطبق على جميع أسلافنا. ولكن من هو السلف الذي يستحق التكريم الأعظم؟ هل هو السلف الأقرب في الزمان أم سلف العشيرة بأكملها؟»

«أعتقد السلف الأصلي للعشيرة بأكملها هو الأكثر أهمية.»

«إذاً من هو السلف الأصلي لعشيرتك؟»

«في الواقع، يجب أن أعترف أنني لا أعرف! على أي حالٍ، أعتقدُ أننا لو تتبعنا السلسلة فسوف نصل في نهاية المطاف إلى آدم، الإنسان الأول. ولكنك قلتَ لي إن آدم ابناً لله لأن الله خلقه...» ثم توقف باخدير للحظات مفكراً وقال: «أظن أن هذا معناه أن الله حقاً هو الذي يستحق أعظم إكرام!»

«أنت على حقٍ، يا باخدير!»

«ولكن ماذا عن الأرواح؟ ألا يجب أن أكرم أسلافي أيضاً؟»

«من حقك أن تكرم أسلافك، ولكن لا ينبغي أن يأخذوا مكان الله. فالله خلق الناس ووضع الناس مكان الله بمثابة عبادة أصنام. قال إشعياء النبي: «وَإِذَا قَالُوا لَكُمْ: «اطْلُبُوا إِلَى أَصْحَابِ التَّوَابِعِ وَالْعَرَّافِينَ الْمُشَقْشِقِينَ وَالْهَامِسِينَ». «أَلاَ يَسْأَلُ شَعْبٌ إِلهَهُ؟ أَيُسْأَلُ الْمَوْتَى لأَجْلِ الأَحْيَاءِ؟»٢٣١ وبالمثل، قال موسى النبي إنه ينبغي ألا نتواصل مع أرواح الموتى. مكتوبٌ: «لاَ تَلْتَفِتُوا إِلَى الْجَانِّ وَلاَ تَطْلُبُوا التَّوَابِعَ، فَتَتَنَجَّسُوا بِهِمْ. أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ.»٢٣٢

«هل نتنجس أو نتسخ أو نتلوث عندما نسأل الموتى؟ هل هذا ما تقصده؟»

«نعم، فنحن نتلوث روحياً لو حاولنا التواصل مع أرواح الموتى. وهذا أحد الأسباب التي تجعل الناس متضررين من الأرواح «النجسة أو الشريرة.»

«عندما نذهبُ إلى المسجد نغسل أجسادنا، ولكني لا أعرف كيف يمكن أن نغسل أرواحنا. ومع ذلك، سمعتُ عن بعض الناس الذين يبدو أنهم تضرّروا من الأرواح الشريرة. فهل هذا بسبب أنهم سألوا الموتى؟»

«ربما يعود هذا أيضاً إلى أسبابٍ أخرى، ولكنه يرجع في المقام الأول إلى الخطية. ومع ذلك، فالأخبار السارة هي أن عيسى المسيح له السلطان على طرد الأرواح الشريرة وتطهيرنا من جديدٍ بروحه القدوس. فالذين يؤمنون بعيسى المسيح يمكنهم أيضاً أن يستخدموا هذا السلطان على الشياطين باسم وبسلطان عيسى المسيح.»٢٣٣

«رائعٌ! إذاً عيسى المسيح يمكنه أن يحرّر الناس من الشياطين!»

«نعم، ولكن عليهم أن يتوبوا عن خطاياهم ويدعوا روح الله القدوس إلى حياتهم كي يحول الظلمة إلى نورٍ.»٢٣٤

«هل هناك ممارسات متعلقة بالموتى يمكن أن تسمح بدخول الشياطين؟»

«هذا يعتمد إلى حدٍّ كبير على معنى ومغزى بعض الممارسات. على سبيل المثال، في زمان موسى النبي كان البعض يجرحون أجسامهم أو يضعون عليها الوشمات من أجل الموتى، أو يحلقون شعرهم بطرقٍ معينة من أجل الموتى.٢٣٥

لكن موسى النبي أدان هذه الممارسات لأن الشعب كان ينبغي أن يكون مقدساً لله: ولكنهم بدلاً من ذلك تدنسوا من خلال إكرام الموتى بالطريقة الخاطئة.»

«كيف يمكنني احترام وإكرام أسلافي بالطريقة الصحيحة إذاً؟ كيف يمكنني إكرام الموتى دون عبادتهم أو رفع الصلاة لهم كما لو كانوا مكان الله؟»

«علينا في الأساس أن ندرك ما يخص الله وألا نعطي الموتى ما يجب أن نخصصه لله. وهذا ينطبق على تقدمات الطعام أيضاً.٢٣٦ فليس المهم الشكل العام للعادة بل المعنى وراء هذه العادة. فالله ينظر إلى القلب.»

«نعم، الله ينظر إلى القلب، ولكن أقاربي وغيرهم من الناس ينظرون إلى ما أقوم به. فالمهم بالنسبة لأقاربي هو ذهابي إلى القبر وتأدية الطقوس الصحيحة هناك. إنهم غير مهتمين في الواقع بمعنى هذا.»

«لسوء الحظ، هذا موقفٌ شائع جداً في جميع أنحاء العالم. فالناس يعتقدون أن المهم هو عمل الشيء الصحيح بعد وفاة شخص ما: أي تأدية الطقوس التقليدية إلخ. ومع ذلك، من الأصعب بكثيرٍ احترام ورعاية أحد كبار السن من الأقرباء وهو لا يزال على قيد الحياة.»

«هذا صحيحٌ!»

«في الواقع، انتقد عيسى المسيح من كانوا يعتقدون أن تأدية الطقوس التقليدية تجعلهم يكرمون والديهم حق الإكرام انتقاداً لاذعاً. وفي زمانه كان البعض يستخدمون الدين ذريعةً لعدم إكرام والديهم إكراماً لائقاً.»

«حقاً؟ ماذا فعلوا؟»

«هل يمكنني أن أقرأ لك ما قاله عيسى المسيح حول هذا الموضوع؟»

«نعم، من فضلك!»

التقطتُ الإنجيل وقرأتُ الفقرة التالية التي قالها عيسى المسيح:

«حَسَنًا! رَفَضْتُمْ وَصِيَّةَ اللهِ لِتَحْفَظُوا تَقْلِيدَكُمْ! لأَنَّ مُوسَى قَالَ: أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَمَنْ يَشْتِمْ أَبًا أَوْ أُمًّا فَلْيَمُتْ مَوْتًا. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: إِنْ قَالَ إِنْسَانٌ لأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ، أَيْ هَدِيَّةٌ، هُوَ الَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي فَلاَ تَدَعُونَهُ فِي مَا بَعْدُ يَفْعَلُ شَيْئًا لأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ. مُبْطِلِينَ كَلاَمَ اللهِ بِتَقْلِيدِكُمُ الَّذِي سَلَّمْتُمُوهُ. وَأُمُورًا كَثِيرَةً مِثْلَ هذِهِ تَفْعَلُونَ»٢٣٧

كان باخدير يفكر في هذه المسألة ثم قال: «أعتقدُ أنه من الأسهل أن إكرام الموتى معناه أن تذهب إلى القبر وتؤدي الطقوس عند قبورهم مثلما فعلنا اليوم عند قبر عمي. ولكن الله وحده يعلم ما نفكر به في قلوبنا وما إذا كنا حقاً نحترم هذا الشخص ونكرمه.»

وبعد لحظاتٍ من الصمت قال باخدير: «ما الكلمة التي قرأتها بمعنى «هدية من الله»؟ هل هذه الكلمة تعنى «قربان»؟

«نقل عيسى المسيح الكلمة العبرية «قربان» والتي تعني «هدية» أو «تضحية» مقدمة إلى الله. لماذا تسأل؟»

«نحن لدينا نفس الكلمة! ففي جميع أنحاء آسيا الوسطى نحتفل بعيد الأضحى، وذلك عندما نقدم أحد الأغنام كأضحية. وبعض الرجال يحملون أيضاً اسم قربان!»

«نعم، ففي تركمانستان التقيتُ رجلاً يُدعى قربان. وفي تتارستان لي صديقٌ يُدعى قربانغالي.»

«أعتقدُ أننا بحاجة لتفكيرٍ أعمق في الأضحيات التي نقدمها! فأنت تقول إن الله ينظر إلى القلب، ولذلك ليس المهم شكل الطقوس بل معناها!»

«أوافقك الرأي!»

كان باخدير قد تذكر أننا كنا نتحدث عن زيارة القبور ونتذكر أولئك الذين ماتوا. فأراد أن يسأل سؤالاً آخر: «ما الممارسات التي يمكن أن تكون لائقة بخصوص تذكر أسلافي؟»

«لقد أخبرتني، يا باخدير، أنك لا تعرف من هو سلف عشيرتك. ماذا تعرف عن أجدادك أو آبائهم؟»

«أعرفُ القليل. أعرفُ أين كانوا يعيشون وماذا كانوا يعملون.»

«ربما يمكنك أن تحاول رسم شجرة العائلة كي تعرف جميع أفراد عائلتك. أعتقدُ أن هذا من شأنه أن يساعد أولادك أيضاً. وبعد ذلك يمكنك أن تحاول كتابة ما تتذكره عن كل سلفٍ من أسلافك في كتابٍ، وربما تضع أي صورٍ لديك أو حتى قصاصات جرائد أو كلمات كتبها الناس عنهم. في الكتب المقدسة هناك العديد من الأمثلة على أهمية الحفاظ على شجرة العائلة.٢٣٨ هذه إحدى الطرق الإيجابية بخصوص احترام الموتى وتذكرهم.»

«إنها فكرةٌ جيدة: فأنا لم يسبق لي التفكير من قبل على الإطلاق في عمل شجرة العائلة.»

«يمكنك أيضاً أن تضعها في موضعٍ خاص في منزلك تطلق عليه موضع التكريم.»

«هل هناك أي طريقةٍ أخرى أستطيع بها أن أتذكر أسلافي؟»

«ربما عليك عقد مناسبات أو احتفالات خاصة في بعض الأحيان كي تتذكرهم، ولكن في نفس الوقت عليك أن تتذكر بالأولى ما فعله الله من أجلك. فالله يخبرنا أن

نتذكر الأشياء المهمة وأن نحتفظ ببعض العلامات لتذكيرنا. على سبيل المثال، هل تعرف ما الحدث الذي يُذكّرنا به قوس قزح؟»

«لم يخطر ببالي مطلقاً أن قوس قزح يمكن أن يُذكّرنا بشيءٍ. أعتقد أنه مجرد منظرٍ جميل رغم أنه لسوء الحظ لا يستمر طويلاً.»

«وضع الله قوس قزح علامةً على ميثاقه مع نوح. وهو يُذكّرنا بوعد الله ألا تكون المياه طوفاناً يهلك كل ذي جسدٍ كما حدث في زمان نوح.٢٣٩ وأعتقدُ أن حقيقة عدم دوام قوس قزح تُذكّرنا أيضاً بأن عقوبة الطوفان لم تدم إلى الأبد.»

«لم أكن أعرفُ ذلك! والآن لن أفكر في قوس قزح بنفس الطريقة مرةً أخرى!»

«ربما يكون هذا مثالاً آخر على ما قلته حول الشكل والمعنى! فشكل قوس قزح لن يتغير ولكنك تراه الآن بمعنيٍ مختلف!»

«ولكن رغم أن الله سلفنا جميعاً، لا يزال لديَّ الكثير الذي أشكر والديَّ وأسلافي عليه، فقد قدموا لي الكثير.»

«بالتأكيد، ولكن الله صاحب الفضل كله لأننا نأتي إلى هذا العالم فارغين ونخرج منه فارغين. فالله خلق الأرض التي نعيش عليها والنباتات والحيوانات التي نأكلها، وبالتالي فإن كلّ ما تلقاه آباؤك وأسلافك إنما يعود حقاً إلى ما ائتمنهم الله عليه.»

«ولكنهم تركوا لي بعض الممتلكات ميراثاً، رغم أنه ليس بالميراث الكبير.»

«هل تعلم ما الميراث الذي يمنحنا الله إياه؟»

«لا، فأنا لم أكن أظن أننا يمكن أن نرث أي شيءٍ من الله!»

«مكتوبٌ في الإنجيل:

مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي حَسَبَ رَحْمَتِهِ الْكَثِيرَةِ وَلَدَنَا ثَانِيَةً لِرَجَاءٍ حَيٍّ، بِقِيَامَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ مِنَ الأَمْوَاتِ، لِمِيرَاثٍ لاَ يَفْنَى وَلاَ يَتَدَنَّسُ وَلاَ يَضْمَحِلُّ، مَحْفُوظٌ فِي السَّمَاوَاتِ لأَجْلِكُمْ، أَنْتُمُ الَّذِينَ بِقُوَّةِ اللهِ مَحْرُوسُونَ، بِإِيمَانٍ، لِخَلاَصٍ مُسْتَعَدٍّ أَنْ يُعْلَنَ فِي الزَّمَانِ الأَخِيرِ.»٢٤٠

«ما نوع الميراث الذي «لا يفنى أو يتدنس أو يضمحل»؟

«بما أنه محفوظ لنا في السماوات، فماذا تظن أن يكون؟»

«الحياة مع الله؟ العيش مع الله في السماء؟ شيءٌ من هذا القبيل؟»

«نعم. هذا هو القسم الأخير منه، ولكننا نحصل على الدفعة الأولى منه الآن، مثل عربون.»

«الآن؟ ما الذي نحصل عليه الآن؟»

مكتوبٌ في الإنجيل:

«الَّذِي فِيهِ أَيْضًا أَنْتُمْ، إِذْ سَمِعْتُمْ كَلِمَةَ الْحَقِّ، إِنْجِيلَ خَلاَصِكُمُ، الَّذِي فِيهِ أَيْضًا إِذْ آمَنْتُمْ خُتِمْتُمْ بِرُوحِ الْمَوْعِدِ الْقُدُّوسِ، الَّذِي هُوَ عُرْبُونُ مِيرَاثِنَا، لِفِدَاءِ الْمُقْتَنَى، لِمَدْحِ مَجْدِهِ.»٢٤١

«الروح القدس؟ من هو؟»

«الله قدوس، وبالتالي فإن الروح القدس هو روح الله. ومع ذلك، من الممكن أن يحلّ فينا وحضوره معناه أننا نعرف الله معرفةً شخصية.

مكتوبٌ في الإنجيل:

«ثُمَّ بِمَا أَنَّكُمْ أَبْنَاءٌ، أَرْسَلَ اللهُ رُوحَ ابْنِهِ إِلَى قُلُوبِكُمْ صَارِخًا: «يَا أَبَا الآبُ». إِذًا لَسْتَ بَعْدُ عَبْدًا بَلِ ابْنًا، وَإِنْ كُنْتَ ابْنًا فَوَارِثٌ لِلهِ بِالْمَسِيحِ.»٢٤٢

«ورثة لله؟ رائعٌ! لكنني أشعر أنني لا أستحق أن أكون وريثاً لله.»

«لقد قلتُ إن الله قدوس. نحن لا نستحق أن نعيش في محضره المقدس لأن الخطية صيرتنا جميعاً دنسين روحياً. وقد كان هناك وريثٌ شرعيٌ واحد وهو قدوس. ومع ذلك، فإن القدوس الذي استحق الميراث اختار أن يتخلى عنه من أجل أن يشاركه معنا.»

«حقاً؟ من هذا الشخص؟ ومن ذلك الوريث الشرعي الذي يمكن أن يشارك الميراث مع شخصٍ مثلي لا يستحقه؟»

«إنه وارث كل شيء. يقول الإنجيل:

«اَللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيمًا، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُق كَثِيرَةٍ، كَلَّمَنَا فِي هذِهِ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ فِي ابْنِهِ، الَّذِي جَعَلَهُ وَارِثًا لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي بِهِ أَيْضًا عَمِلَ الْعَالَمِينَ»٢٤٣

«لقد قلتَ إن آدم كان بشكلٍ ما ابناً لله لأن الله خلقه، ولكني متأكدٌ من أن الله لم يخلق الكون من خلال آدم لأن الكون خُلِقَ قبل آدم. ولذلك لا بدّ أن يكون شخصاً آخر. هل تقصد عيسى المسيح؟»

«كما قلتُ لك من قبل، يا باخدير، أنت حاد الإدراك جداً!»

«ولكنك قلتَ أيضاً إنه تخلى عن حقه في الميراث. فكيف يمكن أن يكون هذا؟»

«كان عيسى المسيح وسيطاً لوصيةٍ جديدة حتى أن من يُدعون يتلقون الميراث الأبدي الموعود، وقد مات عيسى المسيح فديةً كي يحررهم من الذنوب التي ارتكبوها في ظلّ الوصية الأولى. مكتوبٌ: «لأَنَّهُ حَيْثُ تُوجَدُ وَصِيَّةٌ، يَلْزَمُ بَيَانُ مَوْتِ الْمُوصِي. لأَنَّ الْوَصِيَّةَ ثَابِتَةٌ عَلَى الْمَوْتى، إِذْ لاَ قُوَّةَ لَهَا الْبَتَّةَ مَا دَامَ الْمُوصِي حَيًّا.»٢٤٤

«هل تقصد أن موته جعلنا نحصل على الميراث الذي كان يستحقه وحده؟»

«هذا صحيحٌ. فهو لم يكن بحاجةٍ للموت لكنه وضع نفسه حتى الموت من أجلنا. وقد قال:

«أَمَّا أَنَا فَإِنِّي الرَّاعِي الصَّالِحُ، وَأَعْرِفُ خَاصَّتِي وَخَاصَّتِي تَعْرِفُنِي، كَمَا أَنَّ الآبَ يَعْرِفُنِي وَأَنَا أَعْرِفُ الآبَ. وَأَنَا أَضَعُ نَفْسِي عَنِ الْخِرَافِ. وَلِي خِرَافٌ أُخَرُ لَيْسَتْ مِنْ هذِهِ الْحَظِيرَةِ، يَنْبَغِي أَنْ آتِيَ بِتِلْكَ أَيْضًا فَتَسْمَعُ صَوْتِي، وَتَكُونُ رَعِيَّةٌ وَاحِدَةٌ وَرَاعٍ وَاحِدٌ. لِهذَا يُحِبُّنِي الآبُ، لأَنِّي أَضَعُ نَفْسِي لآخُذَهَا أَيْضًا. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذُهَا مِنِّي، بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي. لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا وَلِي سُلْطَانٌ أَنْ آخُذَهَا أَيْضًا. هذِهِ الْوَصِيَّةُ قَبِلْتُهَا مِنْ أَبِي»٢٤٥

«ولكن إذا كان عيسى المسيح له سلطانٌ أن يسترد حياته مرةً أخرى، فلماذا لم يفعل ذلك؟»

«هذه هي الأخبار السارة: لقد فعل هذا! ففي اليوم الثالث بعد موته قام من القبر. وهذا يكشف أن له السلطان حتى على الموت نفسه. ولذلك لسنا بحاجة للخوف من الموت إذا كنا نؤمن بعيسى المسيح لأنه غلب الموت. ولهذا السبب يمكننا أيضاً أن نشترك معه في الميراث، أي الحياة الأبدية.»

«الحياة الأبدية؟ إنها بالتأكيد ميراثٌ أفضل بكثيرٍ من أي شيءٍ يمكن أن يتركه لي أسلافي من بني البشر.»

«بالتأكيد! وكما قلتُ، فنحن لدينا حتى عربون ميراث وهو الروح القدس الذي يعمل في حياتنا ليجعلنا أكثر استعداداً للحياة في السماء.»

«هل يمكنني قبول الروح القدس؟»

«نعم، عليك ببساطة أن تدعوه إلى حياتك كي يغيرك.»

«ولكني لا أعرف ماذا أقول!»

«الله ينظر إلى قلوبنا ويفهم ما نريد أن نقوله. ليس من المهم أن تحمل كلماتك صيغةً خاصة. الله يفهم أيضاً جميع اللغات، وبالتالي يمكنك أن تصلي باللغة الكاراكالباكية التي هي لغة قلبك. إذا كنتَ لا تعرف كيفية الصلاة، فيمكنك استخدام الصلوات الموجودة بالفعل في الكتب المقدسة كنموذجٍ كي تستلهم منها الأفكار، ولكن المهم هو التحدث إلى الله بأمانة.»

فتساءل قائلاً: «هل يمكنك أن تريني صلاة يمكن أن أستخدمها كنموذج؟»

فأجبته: «هناك الكثير من النماذج.» ثم فتحتُ الكتاب المقدس ووقعت عيناي على المقطع التالي وهو صلاة تذكر أيضاً الميراث الذي وعد به الله الذين يحبونه:

"لِتَسْلُكُوا كَمَا يَحِقُّ لِلرَّبِّ، فِي كُلِّ رِضىً، مُثْمِرِينَ فِي كُلِّ عَمَل صَالِحٍ، وَنَامِينَ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ، مُتَقَوِّينَ بِكُلِّ قُوَّةٍ بِحَسَبِ قُدْرَةِ مَجْدِهِ، لِكُلِّ صَبْرٍ وَطُولِ أَنَاةٍ بِفَرَحٍ، شَاكِرِينَ الآبَ الَّذِي أَهَّلَنَا لِشَرِكَةِ مِيرَاثِ الْقِدِّيسِينَ فِي النُّورِ.»٢٤٦

ثم اقترحتُ عليه قائلاً: «ربما يمكنك أن تجعل هذه الصلاة الواردة في الإنجيل أساس صلواتك وتعتبرها دعوةً لطلب الملء بروح الله القدوس.»

كان بوخادير يقرأ الصلاة ويفكر فيها ثم بدأ الحديث إلى الله بهذه الكلمات: «يا الله، أطلبُ إليك أن أسلك كما يحقّ لك. أريدُ أن أرضيكَ في كل عملٍ صالح، نامياً في معرفتك ومتقوياً بكل قوةٍ بحسب قدرة مجدك. أرسل لي روحك القدوس كي يمنحني تلك القوة حتى أتحلى بالصبر وطول الأناة وأشكرك فرحاً، أيها الآب السماوي. إني أريدُ أن أعرفك معرفةً أفضل حتى أتأهل بمعرفتك للمشاركة في ميراث القديسين في ملكوت النور.»

الفصل 12

كالميكيا: الأمثال

عندما توقف القطار في أستراخان، دخل رجلٌ وجاء إلى التخت الكائن بجواري. كانت لا تزال هناك عدة ساعات باقية في رحلة القطار الطويلة حول الشاطئ الشمالي لبحر قزوين. كان الراكب الجديد يبدو وكأنه من إحدى مقاطعات منغوليا أو شمال الصين، ولم يكن تخميني بعيداً عن الصواب. بدأتُ الدردشة معه وعلمتُ أنه من شعب الكالميك. كان أجداده قد هاجروا إلى هذه المنطقة من روسيا قبل حوالي أربعة قرونٍ قادمين مما يُعرف الآن باسم شينجيانغ في الصين. لم يكونوا صينيين ولكن من المنغوليين الغربيين المعروفين في الصين باسم الأويرات وفي روسيا الآن باسم الكالميك.

انتهزتُ الفرصة كي أسأل باتور عن شعب الكالميك وثقافتهم. وبعد فترةٍ من الوقت، بدأ الحديث عن بعضٍ من أمثالهم. قال لي إن هناك نمطاً معيناً من الأقوال يذكر ثلاثة أشياء مختلفة أو أربعة ثم يقارنها ويصاحب هذا مزحة خفيفة في كثيرٍ من الأحيان بخصوص طريقة المقارنة بينها. على سبيل المثال:

«ثلاثة أشياء رائعة:

رائعٌ هو البدر،

رائعةٌ هي زهرة السهوب البكر،

رائعةٌ هي نصائح الآباء والأمهات!»٢٤٧

ثم قال باتور: «هناك مثلٌ مشابه يقول:

«أربعة أشياء في العالم عظيمة المقدار:

لولا مباراة الرماية لكان هناك العديد من الرماة،

لولا مباراة المصارعة لكان هناك العديد من المصارعين،

لولا المعارضين لكان هناك العديد من الأبطال،

لولا الحدّاد لكان هناك العديد من السمكرية.»٢٤٨

فقلتُ له: «هذا رائعٌ! هل هذه الأقوال قديمة جداً بين أفراد شعبك أم أنها كُتبت في الآونة الأخيرة؟»

«هناك الكثير من هذه الأقوال، وبقدر ما أعرفُ فإن لها تاريخٌ طويل يعود إلى العصور القديمة.»

«يمكنني أن أصدّق هذا. هل تعلم أن هناك نوعاً آخر من الأمثال له نفس التركيبة يعود إلى الشرق الأوسط قبل نحو ثلاثة آلاف عاماً؟»

«لا، لم أكن أعرف ذلك. كنتُ أعتقد أن شعب الكالميك ينفرد بهذا.»

«ربما تكون الأمثلة الفعلية التي ذكرتها فريدةً من نوعها، ولكن هذا النمط من الأقوال الذي يذكر ثلاثة أو أربعة أشياء مشابهة قريبٌ جداً من الأمثال المكتوبة في الكتاب المقدس.»

«الكتاب المقدس؟ ولكن شعبنا يدين بالبوذية وليس بالمسيحية!»

«هذه الأمثال تعود إلى الكتب المقدسة اليهودية قبل زمن يسوع المسيح بفترةٍ طويلة.»

«ما نمط هذه الأقوال؟ اذكر لي بعضها.»

«ثَلاَثَةٌ عَجِيبَةٌ فَوْقِي، وَأَرْبَعَةٌ لاَ أَعْرِفُهَا:
طَرِيقَ نَسْرٍ فِي السَّمَاوَاتِ،
وَطَرِيقَ حَيَّةٍ عَلَى صَخْرٍ،
وَطَرِيقَ سَفِينَةٍ فِي قَلْبِ الْبَحْرِ،
وَطَرِيقَ رَجُل بِفَتَاةٍ.»٢٤٩

فذُهِلَ باتور قائلاً: «لا أستطيع أن أقول إنني أفهم هذا المثل! اذكر لي مثلاً آخر.»

«أَرْبَعَةٌ هِيَ الأَصْغَرُ فِي الأَرْضِ، وَلكِنَّهَا حَكِيمَةٌ جِدًّا:
النَّمْلُ طَائِفَةٌ غَيْرُ قَوِيَّةٍ، وَلكِنَّهُ يُعِدُّ طَعَامَهُ فِي الصَّيْفِ.
الْوِبَارُ طَائِفَةٌ ضَعِيفَةٌ، وَلكِنَّهَا تَضَعُ بُيُوتَهَا فِي الصَّخْرِ.
الْجَرَادُ لَيْسَ لَهُ مَلِكٌ، وَلكِنَّهُ يَخْرُجُ كُلُّهُ فِرَقًا فِرَقًا.
الْعَنْكَبُوتُ تُمْسِكُ بِيَدَيْهَا، وَهِيَ فِي قُصُورِ الْمُلُوكِ.»٢٥٠

«هذا المثل يذكر أربعةً كائنات تتمتع بالحكمة الفائقة. وهذا يذكرني بمثلٍ آخر يتحدث أيضاً عن الحكمة.»

فسألته قائلاً: «ماذا يقول المثل؟»

«ثلاثة أشياء بلا نهاية:

السماء المرصعة بالنجوم لا نهاية لها،

حكمة الإنسان لا نهاية لها،

غباء الإنسان لا نهاية له.»٢٥١

فسألته: «هل تعتقد ذلك؟»

«لا أستطيع أن أقول إن حكمة الإنسان لا نهاية لها، ولكن غبائه بالتأكيد لا حدود له!»

«نعم، أنا متأكدٌ من أنك على حقٍ. ما الذي كنتَ تفكر فيه عندما قلتَ هذا؟»

وفجأة صمت باتور. ثم تطلّع خارج النافذة لفترةٍ من الوقت. لم أستطع أن أرى وجهه بوضوحٍ ولكني كنتُ أعتقد أنه سيبدأ في البكاء. وأخيراً، التفتَ إليَّ وقال:

«كانت أكبر غباوة أعرفها عندما أُرسلَ والديَّ إلى سيبيريا. لم يكن والديَّ فقط ولكن كل شعبنا: الآلاف من الرجال والنساء والأطفال مساقين مثل الحيوانات في شاحنات الماشية ومطرودين بعيداً عن وطننا. مات العديد منهم على الطريق. ومات العديد من الآخرين في سيبيريا. كانت هذه مضيعة غبية للحياة وقسوة لا داعي لها.»

كان من الواضح أن باتور يشعر بالأسى إزاء ما يعرفه عن الأحداث رغم أنه لم يتعرض لها بل والداه. لم أكن متأكداً ما إذا كان ينبغي أن أسأله عن المزيد من التفاصيل، ولكن باتور نفسه بدأ في الحديث، كما لو أنه شعر بالرغبة في أن يفضي بهمومه.

«لم نكن خونة! لم يكن أيٌ منا خائن سوى حفنة من الناس الذين تعاونوا مع الألمان وخانوا وطننا. لا يمكنك أن تقول إن شعباً بأكمله مذنبٌ بالخيانة! ولكن هذا هو ما اتهمنا به ستالين، أي مساعدة الألمان عندما احتلوا وطننا لفترةٍ قصيرة خلال الحرب. لم يكن هذا عدلاً. جاء الروس وساقونا جميعاً مثل الحيوانات، بما فينا الأطفال الذين لا ذنب لهم. وقد طردوا والديَّ بعيداً في المنفى. لم يكن لديهما أي شيءٍ. وعلاوة على ذلك، تفوهوا علينا بالأكاذيب. وفي سيبيريا لم يقبلنا السكان المحليون لأنهم سمعوا أننا نتعرض للعقاب لأننا من أكلة لحوم البشر!»

«هذه مسألةٌ بشعة! تذكرتُ شامل في كازاخستان، حيث تم ترحيل والدي زوجته من منطقة القوقاز في عهد ستالين. لم يكن الكالميك فقط هم من عانوا من الترحيل، ولكن الشيء نفسه حدث مع شعوبٍ أخرى مثل الشيشان، والإنغوش، والكراشاي، والبلكار، والأتراك المسخيت، وغيرهم الذين صدر عليهم الحكم بالنفي إلى آسيا الوسطى. أما تتار القرم فقد تم ترحيلهم أيضاً من شبه جزيرة القرم وأُستخدمت

سياسات مماثلة مع الكوريين الذين يعيشون في الشرق الأقصى الروسي والفنلنديين من شمال روسيا الذين تعرضوا للترحيل أيضاً إلى آسيا الوسطى بعيداً عن المناطق الحدودية الحساسة.

«إنها ليست مسألةً بشعة فحسب، لكنها قتلٌ جماعي! لقد كنتُ طفلاً صغيراً عندما أرسلوا والديَّ إلى سيبيريا، وكان من حسن حظي أنني نجوتُ. ماتت أمي بسبب المجاعة أساساً. كانت تحاول تقديم الطعام لي ولم يكن لديها ما يكفي لنفسها. ولهذا السبب لم تكن تملك القوة الكافية لمقاومة العدوى.»

فوافقته قائلاً: «يا للفظاعة!» ولم أكن أعرف ماذا يمكنني أن أقول بعد ذلك. رغم أن باتور كان يبدو في الستينيات من عمره، كانت المعاناة الخاصة بذكريات طفولته لا تزال تصاحبه بصورةٍ واضحة.

كنتُ أتساءل ماذا يمكن أن أقول بعد ذلك. فمجرد قول «هذه مسألةٌ بشعة!» لم يساعد في تخفيف الألم في قلب باتور، ولكن كان يبدو أنه لا توجد كلمات كافية. فماذا يمكن للمرء أن يقول؟

لكن باتور نفسه كان قد كسر حاجز صمتي. فقد مدّ يداه إلى الكتاب المقدس الذي كنتُ أقرأ منه الأمثال اليهودية وبدأ يُقلّب صفحاته. وتساءل أخيراً: «ماذا يقول هذا الكتاب على أية حالٍ؟ هل يفسر لماذا يسمح الله بمثل هذه المعاناة؟»

ففكرتُ للحظات ثم أجبته: «هذا الكتاب يتحدث عن أحد الشعوب الرُحّل مثل أسلافك. إنه يصف كيف كانوا عبيداً في أرضٍ غريبة ولكن الله حررهم من العبودية. وقد حصلوا على الحرية لأن الله كان يحبهم ويريد أن تكون لهم علاقة وثيقة وحقيقية معه. ومع ذلك، عندما نسوا الله وتجاهلوا حكمته، أي عندما اختاروا أن يعيشوا الحياة وفقاً لمعاييرهم الخاصة بدلاً من معايير الله، انتهى بهم الأمر بترحيلهم إلى أرضٍ غريبة.»

«ترحيل؟ مثلنا نحن الكالميك؟ ألم يعودوا قط إلى أرضهم؟»

«بعد سبعين عاماً. والكثير منهم لم يعودوا على الإطلاق.»

«سبعون عاماً في المنفى؟ هذا معناه ثلاثة أجيال! وهذه مدةٌ أطول بكثيرٍ من الأعوام الثلاثة عشر التي قضيناها نحن الكالميك في المنفى.»

«نعم.»

«نحن الكالميك فقدنا الكثير من ثقافتنا عندما كنا في سيبيريا. والكثير من جيل الشباب الذين ولدوا في المنفى كبروا وهم لا يمكنهم حقاً أن يتحدثوا اللغة الكالميكية، وذلك لأنهم كانوا مضطرين للتحدث باللغة الروسية طوال الوقت. فهل حدث الشيء نفسه للشعب الذي تتكلم عنه؟»

«لقد كان الشعب اليهودي. إلى حدٍّ ما، ربما يكونوا قد فقدوا تواصلهم بعض الشيء مع اللغة العبرية لأنهم بعد عودتهم إلى أرضهم يبدو أن العديد من عامة الشعب كانوا يتحدثون غالباً اللغة الآرامية التي كانت تتحدثها الشعوب من حولهم. ومع ذلك، ربما يكون الأكثر أهمية هو أنهم تركوا أيضاً الكثير من الخرافات والمعتقدات والممارسات الخاطئة التي كانوا يمارسونها من قبل.»

«نعم، فنحن الكالميك نسينا أيضاً الكثير من التعاليم البوذية عندما كنا في المنفى. فهل ترك الشعب اليهودي دينهم أيضاً؟ هل أصبحوا ملحدين؟»

«لا، في الواقع أعادوا اكتشاف الإيمان السليم الذي كان يحمله أسلافهم. فقبل أكثر من ألف عامٍ من ترحيلهم، كان أسلاف الشعب اليهودي من الرُحّل الذين يعبدون إلهاً واحداً فقط. وكان هذا الإله هو الذي طلب من سلفهم أن يترك أرضه ويهاجر غرباً إلى الأرض التي سيريها إياه الله.»

فقال باتور متعجباً: «لقد هاجر أجدادنا أيضاً غرباً! وكانوا أيضاً من الرُحّل!»

«لم تكن الحياة بالنسبة للشعب اليهودي سهلة، مثلما كان الحال مع أسلافك. فذات مرةٍ، عندما كانت هناك مجاعة كبيرة، هاجروا مرةً أخرى واستقروا في مصر ولكن انتهى بهم الحال في العبودية هناك. ومع ذلك، كان الله وفياً في وعده لأسلافهم ومن خلال العديد من المعجزات حفظ الله الشعب من العبودية وأرسلهم إلى الأرض التي وعدهم بها.»

ولكنك قلتَ إنه في وقتٍ لاحق تم ترحيلهم من هناك. فلماذا كان ذلك؟»

«لقد نسوا الله الواحد الحقيقي الذي أنقذهم من العبودية وأرسلهم إلى تلك الأرض. وبدلاً من عبادة إلهٍ واحد، خالق الكون وجميع البشر في العالم، شرعوا في عبادة العديد من الأرواح الأخرى. وفي نهاية المطاف، سمح إله العدل والحق بترحيلهم حتى لا يعودوا يعبدوا العديد من الأرواح بل يعودوا إلى إيمان أجدادهم الأصلي. بالنسبة للشعب اليهودي، كانت فترة الترحيل عملية تنقية.»

«هذا مثيرٌ للاهتمام. فأجدادنا كانوا يعبدون في الأصل الإله تِنكر أو تِنكري وهو إله السماء العظيم. وكان أيضاً إله العدالة الذي يحكم بين الناس بالعدل. وهذا الإله هو الذي خلق الكون. يبدو أن إلهنا تِنكر أو تِنكري، أي السماء الخالدة، كان بالأحرى مثل الإله الذي تكلمني عنه.»

«هل ما زال شعبك يعبده؟»

«لا، أو على الأقل لا أعرف أي شخصٍ يعبده. فأسلافنا كانوا يعبدون أيضاً بعض الآلهة الأخرى، ثم أصبحوا بوذيين.»

«وما شعور تِنكري بخصوص ذلك في رأيك؟»

«يا له من سؤالٍ! لم يسبق لي التفكير في ذلك! أعتقدُ أنه سيشعر بالغضب. فعلى أي حالٍ، بما أن تِنكري هو الذي خلق الكون فعلينا أن نذكره.»

«كانت العديد من الشعوب الأخرى في جميع أنحاء العالم تعبد أيضاً في البداية إله السماء العظيم الذي كانوا يعتقدون أنه الخالق، أي الخيّر والعادل. كان هناك أستاذٌ ألماني يدعى فيلهلم شميت وثقّ بقدرٍ كبير من التفصيل مثل هذه المعتقدات من جميع أنحاء العالم.٢٥٢ ومع ذلك، في كثيرٍ من الحالات نسى الناس هذا الإله الخيّر والصالح أو فقدوا علاقتهم معه بسبب خطاياهم. وبالتالي بدأوا في عبادة العديد من الآلهة الأخرى أو الأرواح الشريرة.»

«لم أكن أعرف هذا! ومع ذلك، فإن ما أعرفه هو أن العديد من الشعوب التركية في آسيا الوسطى بدأوا في استخدام كلمة خوداي للإشارة إلى تنكري، حتى بعد دخول الإسلام، وأنهم كانوا يفضلّون هذا الاسم عند الحديث عن الله. أعتقدُ أنهم في تركيا يشيرون أيضاً إلى الله باسم تانري.»

«ماذا تعرف عن تِنكري؟»

«يبدو أنه كان هناك احتفالٌ كبير مرةً واحدة في العام عندما يجتمع كل الناس معاً لتقديم أضحية إلى السماء والصلاة من أجل بركته على الناس ومواشيهم. كانت أعدادٌ كبيرة من الناس تجتمع معاً وكان الخان نفسه يقود الحفل: لم يكن هناك شامان أو كاهن أو أي شخصٍ من هذا القبيل. وقد كانوا يعملون هذا مرةً واحدة كل عامٍ لمدة ألف وخمسمائة عاماً، حتى القرن الرابع عشر تقريباً في العصر الحالي.»

«رائعٌ! هذا يُذكّرني بالعادة القديمة في الصين، والتي استمرت حتى أوائل القرن العشرين، عندما كان الإمبراطور يصلى نيابةً عن الشعب الصيني في معبد السماء من أجل بركة الله على الشعب الصيني ومحاصيلهم. فكما تعلم، الكلمة الصينية التي ترادف «السماء» هي «تيان» (天)، وقد كان الإمبراطور يصلي إلى «تيان» الذي كان يُعتبر أيضاً خالق كل شيءٍ. ومن أقدم النقوش فصاعداً، هناك ذكرٌ للصلوات إلى الله الأسمى وخالق كل شيءٍ، والمعروف لدى الصينيين باسم «شانغ دي» (上帝) أي «الرب من أعلى».٢٥٤ ومع ذلك، كان هناك اسمٌ آخر شاع استخدامه لهذا الإله وهو «تيان». من الممكن أن يعني تيان ببساطة «السماء» ولكنه كان أيضاً لقب «رب السماء».٢٥٥ فهل الاسمان «تنكري» و»تيان» مرتبطين ببعضهما البعض أصلاً؟»

«إنهما يبدوان متماثلين بشكلٍ ما، أليس كذلك؟ كان أسلافي يستخدمون مصطلح تِنكر أو تِنكري للإشارة ليس فقط إلى السماء نفسها ولكن لرب السماء مثلما تقول إن الصينيين يستخدمون كلمة «تيان.»

وفجأة تغير أسلوب باتور. فقد فتح عينيه مندهشاً وصاح متعجباً: «ولكن الصينيين كانوا أعدائنا على الدوام! وقد كنا نحن المنغوليون نقاتلهم في كثيرٍ من الأحيان على مرّ القرون. والآن نقول بأننا نعبد نفس الإله!»

«في كثيرٍ من الأحيان كان الصينيون أيضاً ينسون شانغ دي، أو تيان، ويعبدون مكانه أرواحاً أخرى، تماماً مثلما فعل أسلافك. وهذا ما حدث أيضاً مع العرب واليهود الذين كانوا كثيراً ما يحتدمون في صراعٍ مع بعضهم البعض، ولكن كلاً منهما يدّعي أنه يعبد الله الذي قاد سلفهم كي يصبح من الرُحّل ويرحل غرباً من الأرض المعروفة اليوم باسم العراق. يشير العرب إلى هذا الرجل باسم إبراهيم ويحترمونه للغاية.»

«كم من البشاعة أن يتقاتلون الآن بسبب الدين إن كان كل طرفٍ يزعم أنه يعبد الله نفسه!»

«في الواقع، وحتى في القرن الخامس الميلادي، قبل فترةٍ طويلة من ظهور الإسلام، كان المسيحيون الناطقون بالعربية يدعون الإله باسم «الله».٢٥٦ وحتى اليوم في الشرق الأوسط، ما زال المسيحيون العرب يستخدمون كلمة «الله» في الإشارة إلى الإله. إنها ليست مسألة اسمٍ نستخدمه للإشارة إلى الله بل ما نعنيه بهذا الاسم.»

«ما نعنيه بهذا الاسم؟ ماذا تقصد؟»

«يمكن أن يعني الاسم الكثير من المعاني للعديد من الناس. فاسمك باتور يعني «بطل» في لغتك ولكن الآخرين لا يفهمون ما يعنيه. وبنفس الطريقة، عندما يشير الناس إلى «إله السماء» فقد يستخدمون أسماءً مثل تِنكر أو تِنكري أو تيان أو شانغ دي أو الله، ومع ذلك فهذه كلها أساساً ألقاب أو أوصاف. مشكلتنا هي أننا نتجادل بخصوص الاسم دون أن ندرك أن الأهم هو الدخول في علاقةٍ شخصية مع الله. فما الأهم: أن أعرف اسمك أم أن أفهم من أنت وأعرف صفاتك وأعتبرك صديقاً؟»

«إني أُفضّل أن يعاملني الناس كصديقٍ حتى إذا كانوا ما زالوا ينطقون اسمي نطقاً خاطئاً مثلك أنت!»

«يمكنني أن أتقبل هذا! ألا تظن أن الله يحمل نفس الشعور؟ إذا فكرتَ في ذلك، فإن الله بالتأكيد أعظم بكثيرٍ من أي اسمٍ بشري. علينا أن نستخدم ألسنتنا وأفواهنا لنطق أي اسمٍ، ولكن هل تعتقد أن الله أعظم بكثيرٍ من تلك الأصوات؟»

«لم أفكر في هذه المسألة على هذا النحو من قبلٍ.»

«أعتقدُ أن هذا هو السبب في أن الله لم يقل اسمه عندما سأله نبيٌ عظيم كيف يدعوه.»

«حقاً؟»

«نعم، فالنبي الذي يدعوه العرب موسى ويدعوه اليهود موشيه كان في الصحراء يرعى الأغنام، أي مثل الكثير من أسلافك الكالميك على ما أظن. ثم سمع الله يتحدث إليه أن يذهب ليحرر شعبه المستعبد في مصر.

«فَقَالَ مُوسَى لِلهِ: «هَا أَنَا آتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِلهُ آبَائِكُمْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. فَإِذَا قَالُوا لِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟»

فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ». وَقَالَ: «هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَهْيَهْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ».

وَقَالَ اللهُ أَيْضًا لِمُوسَى: «هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: يَهْوَهْ إِلهُ آبَائِكُمْ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. هذَا اسْمِي إِلَى الأَبَدِ وَهذَا ذِكْرِي إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ.»٢٥٧

«إني أحبُ هذا اللقب: «إله آبائكم»، فهو يبدو أسهل من أي اسمٍ!»

«نعم، هذا هو الإله الذي كان هناك في البداية. لم يقل الله إنه إله آباء أو أجداد الجيل الحالي الذين كثيراً ما نسوا الإله الأصلي الذي كان يعبده أسلافهم. ولكن الله عاد إلى أولئك الأسلاف الذي كانوا يعرفونه معرفةً حقيقية. لقد كان نفس الله بالنسبة لهم لأنه خارج الزمن، ولهذا السبب يقول في العبرية إنه «أَهْيَهْ». وهذا اسمٌ أو لقبٌ معبّر جداً في الإشارة إلى الله: الكائن الذي هو بلا بداية أو نهاية الذي كان والذي يكون. في الواقع، كان الشعب اليهودي يحسب هذا تعبيراً توقيرياً لله حتى أنهم كانوا يتجنبون قول هذه الكلمة عندما يقرءون الأسفار المقدسة العبرية ويستخدمون بدلاً منها مصطلح «الرب». في العبرية، كان هذا الاسم «أَهْيَهْ» يُنطق على الأرجح «يهوه»، ولكن بمرور الزمن حرفه بعض الناس مستخدمين صيغ نطق أخرى مثل «يهوي.»

«نعم، أتفقُ معك في أنه ليس المهم الاسم أو كيفية نطقه بل ما يفهمه المرء حول طبيعة الله. بالنسبة لي، أجدُ أنه من الأسهل أن أقول «إله آبائي» لأنني أعتقدُ أن هذا التعبير يحمل مدلولاً أكبر. فهو ليس فقط إله الشعب المنغولي ولكن إله العالم كله، بما في ذلك الشعوب الصينية والتركية.»

«هذا يبدو لي نوعاً من الحكمة!»

«نعم، في الواقع بدأتُ أعتقد أن قولنا المأثور القديم الذي يفيد بأن حكمة الإنسان لا نهاية لها قد يكون خاطئاً. فبالتأكيد حكمة الله فقط لا نهاية لها!»

«إني أتفقُ معك تماماً.»

الفصل 13

كراشاي-شركيسيا: إقامة الموتى

بعد وصولي إلى شمال القوقاز، ذهبتُ لزيارة عثمان وفاطمة، وهما من أصدقائي في كراشاي. كنتُ قد التقيتهما في مؤتمرٍ أكاديمي في نالتشيك منذ عدة أعوامٍ وأرغبُ في تجديد تواصلي معهما. دعواني للبقاء معهما في منزلهما في إحدى قرى جمهورية كراشاي-شركيسيا. ذات يومٍ سافرنا معاً إلى دومباي وغيرها من المناطق الجميلة في شمال القوقاز. وبعد نزهةٍ لتناول الغداء على سفح الجبل، ابتعد عثمان عنا مسافةً قصيرة وبسط سجادة الصلاة على العشب وأدى طقس الصلاة (نماز) المعتاد. كان من الواضح أن إيمانه يمثل له أهميةً كبيرة.

في صباح اليوم التالي، وبعد تناول إفطارٍ شهي، جلسنا حول طاولة المطبخ وفجأة بدأ عثمان مضيفي الحديث بخصوص ما كان يقرأه.

قال: «لقد كنتُ أقرأ مقطعاً مثيرٌ جداً للاهتمام في القرآن، وهناك شيءٌ ما أودُ أن أسألك عنه.»

فسألته: «ماذا يقول هذا المقطع؟»

فالتقط عثمان القرآن وبدأ يتلو من السورة الثالثة آل عمران:

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ

ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ

إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ

وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ

وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.٢٥٨

فقلتُ له: «هذه الفقرة مثيرةٌ جداً للاهتمام، يا عثمان. فماذا تريد أن تسألني عنه؟» كنتُ أتوقع منه التعليق على الآيات التي تشير إلى ولادة عيسى المعجزية، حيث وُلِدَ بغير زرع بشرٍ. ولذلك فاجأني سؤال عثمان قليلاً.

«يذكر القرآن أن عيسى المسيح كان «يبرئ الأكمة والأبرص ويحيي الموتى.» إذا كان يعمل هذا حين كان يعيش على هذه الأرض، فهل يعمل نفس هذه الأشياء اليوم؟»

«نعم، إنه يعمل هذا رغم أنني يجب أن أعترف أن هذا لا يحدث في كثيرٍ من الأحيان كما يبدو. وحتى عندما عاش عيسى المسيح في هذا العالم فإنه أقام فقط ثلاثة من بين الأموات، بقدر ما نعرف. يبدو أن الله يفعل المعجزة أحياناً كعلامةٍ على سلطانه أو للتأكيد على صحة الأخبار السارة عن عيسى المسيح. الله هو الشافي، ولكنه غالباً ما يستجيب الصلوات المرفوعة من أجل الشفاء عندما نصلي باسم عيسى المسيح وبسلطانه. وهذا يعود إلى أن عيسى المسيح نفسه صرح قائلاً: «دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ»٢٥٩. ولهذا السبب منح عيسى المسيح أتباعه «سُلْطَانًا عَلَى أَرْوَاحٍ نَجِسَةٍ حَتَّى يُخْرِجُوهَا، وَيَشْفُوا كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضُعْفٍ.»٢٦٠

كما أوصى أتباعه قائلاً: «اِشْفُوا مَرْضَى. طَهِّرُوا بُرْصًا. أَقِيمُوا مَوْتَى. أَخْرِجُوا شَيَاطِين»٢٦١ نعم، عيسى له السلطان على الشفاء اليوم أيضاً.»

فقال عثمان: «سمعتُ أن عيسى المسيح يمكن أن يشفي اليوم، ولكن ماذا عن إقامة الموتى؟ هل هناك أيٍ من الحالات، في الوقت الحاضر، التي أقام فيها عيسى المسيح الموتى؟»

«نعم، سمعتُ عن عددٍ من هذه الحالات، فهل تريد مني أن أحكي لك بعضاً منها؟»

فأجابني عثمان: «نعم، من فضلك، كلي آذانٌ صاغية!» كانت فاطمة تستمع أيضاً بانتباه، ولذلك بدأتُ أحكي لهما عن بعض الحالات التي قام فيها الموتى في العصر الحديث.

«على الرغم من أنني لم ألتقي أي شخصٍ قام بالفعل من بين الأموات، إلا أنني التقيتُ في سيبيريا أحد أتباع عيسى المسيح الذي حكى لي عن شخصين كان يصلي من أجلهما وقاما من بين الأموات.»

فتساءل عثمان: «ماذا حدث؟»

«وقع الحدثان في جمهورية التاي بجنوب سيبيريا. في الحالة الأولى سقط شخصٌ ما وكان ملقىً على الأرض بدرجة حرارة دون الصفر تقريباً لمدة نصف ساعة. كان الناس يعتقدون أنه تجمد حتى الموت. وكان الشخص الآخر يعمل على كابلات الكهرباء ذات الجهد العالي وتلقى صدمةً كهربائية قوية فسقط على الأرض وظن الجميع أنه مات. ومع ذلك، في كلتا الحالتين بدأ الرجل الذي التقيته في سيبيريا بالصلاة إلى الله في اسم عيسى المسيح فاستعاد هذان الرجلان حياتهما.»

«هل يتمتع بقوةٍ خاصة من نوعٍ ما إذاً؟»

«لا، إنه لا يملك السلطان بنفسه، رغم أنه ربما يتمتع بموهبة الإيمان وبالقدرة على تمييز ما يريد الله أن يعمله في حالةٍ معينة.»

«ما الأمثلة الأخرى التي تعرفها؟»

«أعرفُ مثالاً آخر عن إحدى حالات إقامة الموتى التي جاءتنا من تشيلي في أمريكا الجنوبية. كان أحد رجال الله، واسمه أندريس مونتوبيل، يزور منزلاً كانت فيه فتاةٌ في سن المراهقة المبكرة تعاني من المرض الشديد. وعندما اقترب إلى المكان سمع أمها تبكي بمرارةٍ على موت ابنتها. فصلى أندريس إلى الله بخصوص هذه المسألة، وبعد ذلك دخل المنزل. وفي احترامٍ طلب من أم الفتاة أن تذهب خارجاً، حيث كان البيت يطلّ على سلسلة جبال الأنديز الجميلة. فقال لها أندريس: «أبي صنع هذه الجبال. وهو أبوكِ أيضاً، وله القدرة على أن يقيم ابنتك التي ماتت، ونحن

ذاهبون للصلاة.» عندما عادوا إلى المنزل، كان جسد الفتاة الميتة بارداً متيبساً بالفعل. فصلى أندريس إلى الله وشاركه الآخرون في الصلاة. في البداية، لم يكن يحدث شيء ولذلك صلوا مرةً ثانية. وعندما صلوا للمرة الثالثة، قال أندريس: «يا رب، من أجل مجدك، وحتى يختبر هؤلاء الناس وجودك وسلطانك، أقم ابنتهم.» وفجأة سعلت الفتاة وتحركت. فطلب أندريس من الأسرة أن يعطوها شيئاً لتأكله فأحضروا لها بعض الحساء. وعندما جاء الجيران الذين سمعوا عن وفاة الفتاة لتعزية الأسرة، اندهشوا عندما رأوها على قيد الحياة.»٢٦٢

«هذا رائعٌ. هل كان عيسى المسيح يقيم الناس من الموت عندما كان يعيش في هذا العالم أيضاً؟»

«بالتأكيد! في الواقع، هذا المثال أقرب ما يكون إلى الطريقة التي أقام بها عيسى المسيح فتاةً في الثانية عشرة من عمرها من الموت. يخبرنا الإنجيل أن رجلا يدعى يايرس جاء وجثا عند قدمي عيسى راجياً منه أن يأتي إلى منزله لأن ابنته الوحيدة التي كانت في الثانية عشرة من عمرها كانت تحتضر. ومع ذلك، بينما كان عيسى المسيح في طريقه لرؤية الفتاة، جاء شخصٌ ما من بيت يايرس ينقل له الأخبار السيئة. التقطتُ الكتاب المقدس وقرأتُ من الإنجيل:

«وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ، جَاءَ وَاحِدٌ مِنْ دَارِ رَئِيسِ الْمَجْمَعِ قَائِلاً لَهُ: «قَدْ مَاتَتِ ابْنَتُكَ. لاَ تُتْعِبِ الْمُعَلِّمَ». فَسَمِعَ يَسُوعُ، وَأَجَابَهُ قِائِلاً: «لاَ تَخَفْ! آمِنْ فَقَطْ، فَهِيَ تُشْفَى».

فَلَمَّا جَاءَ إِلَى الْبَيْتِ لَمْ يَدَعْ أَحَدًا يَدْخُلُ إِلاَّ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا، وَأَبَا الصَّبِيَّةِ وَأُمَّهَا. وَكَانَ الْجَمِيعُ يَبْكُونَ عَلَيْهَا وَيَلْطِمُونَ. فَقَالَ: «لاَ تَبْكُوا. لَمْ تَمُتْ لكِنَّهَا نَائِمَةٌ».

فَضَحِكُوا عَلَيْهِ، عَارِفِينَ أَنَّهَا مَاتَتْ. فَأَخْرَجَ الْجَمِيعَ خَارِجًا، وَأَمْسَكَ بِيَدِهَا وَنَادَى قَائِلاً: «يَا صَبِيَّةُ، قُومِي!». فَرَجَعَتْ رُوحُهَا وَقَامَتْ فِي الْحَالِ. فَأَمَرَ أَنْ تُعْطَى لِتَأْكُلَ.»٢٦٣

أراد عثمان أن يعرف المزيد عن المعجزات اليوم. فقال: «لقد حكيتَ لنا مثالاً حديثاً، ولكن هل هناك أيٍ من الحالات الأخرى؟»

فأجبته: «نعم. هناك مثالٌ آخر حديث لإقامة الموتى يأتي إلينا من كوريا الجنوبية، حيث أكل صبيٌ يدعى صموئيل بعضاً من دود القز المقلي الذي اشتراه من أحد الباعة الجائلين. لم يكن يعرف أن المزارع الذي أحضر دود القز إلى البلدة استخدم أكياس تعبئة وتغليف سبق استخدامها لأحد المبيدات الحشرية. فمات الصبي من السم.

كان أبو صموئيل، واسمه بول يونجي تشو، من رجال الله المعروفين في كوريا. وبمجرد سماع الخبر، عاد إلى المنزل وصلى إلى الله بجوار الجثة كي يقيم الله ابنه إلى الحياة مرةً أخرى. ولعدة ساعات استمر في الصلاة حتى أعطاه الله موهبة الإيمان بأن صموئيل سوف يسترد حياته. ثم رفع الأب صوته ونطق اسم الصبي: «صموئيل!» وبينما كان يصفق بيديه، صرخ قائلاً: «صموئيل! باسم عيسى المسيح الناصري، قم وامشي!»

فنهض الصبي ثم تكوّم وسقط على الفراش وبدأ في التقيؤ. وبعدها أومأ بيده قائلاً: «قل مرحباً لعيسى، يا بابا». وقال مرةً أخرى: «قل مرحباً لعيسى، يا بابا. إنه هناك حقاً.» فانحنى والده نحو المكان الذي كان ابنه يشير إليه وقال بهدوءٍ: «مرحبا يا عيسى.»

ثم قال صموئيل لوالده: «ألم ترانا قادمين عبر المدخل؟... كان عيسى يحملني بين ذراعيه. كان يحملني إلى مكانٍ جميل: أكثر إشراقا من كل ما رأيته وهناك سمعتُ أجمل موسيقى سمعتها. لم أستطع التعرّف إلى اللحن، ولكننا كنا نقترب إليها شيئاً فشيئاً. ثم قال عيسى لي: «علينا أن نعود.» فقلت له: «لا». فقال: «نعم، علينا أن نعود، فأبوك لا يريدك أن ترحل.» وقد كان يعيدني إلى غرفة النوم. ألم ترانا قادمين عبر المدخل؟ لقد كنتَ تدعوني وأمرتني بالاستيقاظ. وحدث هذا عندما تركني عيسى. إنه هناك. لا، إنه ليس هناك، لا بدّ أنه عاد.»٢٦٤

فقال عثمان: «هذه قصةٌ رائعة. يقول القرآن إن عيسى يقيم الموتى إلى الحياة. ولكني لم أسمع قط عن أي نبيٍ آخر يمكنه أن يقيم الموتى.»

«الله وحده يمكنه أن يقيم الموتى، ولكنه يفعل ذلك استجابةً لصلواتنا. فهو يستجيب صلوات الناس العاديين فضلاً عن صلوات الأنبياء. ومع ذلك، استخدم الله نبياً آخر اسمه إيليا عاش قبل عيسى المسيح بحوالي ٨٥٠ عاماً من أجل إقامة الموتى. في الواقع، تتشابه الطريقة التي أقام بها الله صموئيل من بين الأموات في كوريا تشابهاً كبيراً مع الوضع الذي واجهه إيليا النبي. كان إيليا النبي يعيش في بيتٍ وحدث أن

«مَرِضَ ابْنُ الْمَرْأَةِ صَاحِبَةِ الْبَيْتِ وَاشْتَدَّ مَرَضُهُ جِدًّا حَتَّى لَمْ تَبْقَ فِيهِ نَسَمَةٌ. فَقَالَتْ لإِيلِيَّا: «مَا لِي وَلَكَ يَا رَجُلَ اللهِ! هَلْ جِئْتَ إِلَيَّ لِتَذْكِيرِ إِثْمِي وَإِمَاتَةِ ابْنِي؟».

فَقَالَ لَهَا: «أَعْطِينِي ابْنَكِ». وَأَخَذَهُ مِنْ حِضْنِهَا وَصَعِدَ بِهِ إِلَى الْعُلِّيَّةِ الَّتِي كَانَ مُقِيمًا بِهَا، وَأَضْجَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ، وَصَرَخَ إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهِي، أَأَيْضًا إِلَى الأَرْمَلَةِ الَّتِي أَنَا نَازِلٌ عِنْدَهَا قَدْ أَسَأْتَ بِإِمَاتَتِكَ ابْنَهَا؟» فَتَمَدَّدَ

عَلَى الْوَلَدِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، وَصَرَخَ إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «يَا رَبُّ إِلهِي، لِتَرْجعْ نَفْسُ هذَا الْوَلَدِ إِلَى جَوْفِهِ».

فَسَمِعَ الرَّبُّ لِصَوْتِ إِيلِيَّا، فَرَجَعَتْ نَفْسُ الْوَلَدِ إِلَى جَوْفِهِ فَعَاشَ. فَأَخَذَ إِيلِيَّا الْوَلَدَ وَنَزَلَ بِهِ مِنَ الْعُلِّيَّةِ إِلَى الْبَيْتِ وَدَفَعَهُ لأُمِّهِ، وَقَالَ إِيلِيَّا: «انْظُرِي، ابْنُكِ حَيٌّ»

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لإِيلِيَّا: «هذَا الْوَقْتَ عَلِمْتُ أَنَّكَ رَجُلُ اللهِ، وَأَنَّ كَلاَمَ الرَّبِّ فِي فَمِكَ حَقٌّ».»٢٦٥

«لا بدّ أن إيليا كان نبياً عظيماً من عند الله. ولكن هذه القصص كلها تحكي عن صغار السن الذين ماتوا فقاموا على الفور من الموت نتيجة استجابة الصلاة. والمشكك يمكن أن يقول إن هؤلاء الأطفال لم يموتوا حقاً ولكن كان يبدو فقط أنهم ماتوا. ولكن ما يقنعني بالأكثر قصةً تحكي عن شخصٍ ما يكون قد مات لعدة أيامٍ وجسده قد أنتن بالفعل!»

«أنت محقٌ يا عثمان. ولكن هناك أيضاً عدداً قليلاً من الحالات من هذا النوع. ترد لنا إحدى هذه القصص من جمهورية الكونغو الديمقراطية في وسط إفريقيا، حيث كان رجلٌ يدعى ألكسندر يدير اجتماعاً فحمل البعض إليه جثة امرأة شابة. وتحداه خطيبها قائلاً: «أنت تقول إن الله يقيم الناس من بين الأموات. إليك هذا الاختبار.» كانت المرأة قد ماتت بالفعل منذ أربعة أيامٍ وكانت رائحة الموت في تلك الغرفة الخانقة الصغيرة لا تُطاق. فدعا ألكسندر المؤمنين الآخرين من حوله ورفعوا أيديهم في الصلاة والتسبيح لله. وفجأة، بعد حوالي عشرين دقيقةٍ، شعر ألكسندر بشخصٍ ما يسحب سترته. ففتح عيناه ورأى أن الجثة اختفت. وفيما نظر من حوله، رأى المرأة التي كانت ميتة واقفةً بين المصلين وكانت عيناها مغلقتين ويداها مرفوعتان تسبحان الله!»٢٦٦

فتساءل عثمان: «هل أقام عيسى المسيح أيضاً أي شخصٍ من الموت كان جسده قد أنتن بالفعل؟»

فأجبته: «نعم، لقد فعل هذا. فالإنجيل يروي معجزةً مشابهة حدثت لرجلٍ ميت منذ بضعة أيامٍ أقامه عيسى المسيح.» ثم قرأتُ له هذه الفقرة:

«وَكَانَ إِنْسَانٌ مَرِيضًا وَهُوَ لِعَازَرُ، مِنْ بَيْتِ عَنْيَا مِنْ قَرْيَةِ مَرْيَمَ وَمَرْثَا أُخْتِهَا. وَكَانَتْ مَرْيَمُ، الَّتِي كَانَ لِعَازَرُ أَخُوهَا مَرِيضًا، هِيَ الَّتِي دَهَنَتِ الرَّبَّ بِطِيبٍ، وَمَسَحَتْ رِجْلَيْهِ بِشَعْرِهَا. فَأَرْسَلَتِ الأُخْتَانِ إِلَيْهِ قَائِلَتَيْنِ: «يَا سَيِّدُ، هُوَذَا الَّذِي تُحِبُّهُ مَرِيضٌ».

فَلَمَّا أَتَى يَسُوعُ وَجَدَ أَنَّهُ قَدْ صَارَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ فِي الْقَبْرِ. وَكَانَتْ بَيْتُ عَنْيَا قَرِيبَةً مِنْ أُورُشَلِيمَ نَحْوَ خَمْسَ عَشْرَةَ غَلْوَةً. وَكَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ قَدْ جَاءُوا

إِلَى مَرْثَا وَمَرْيَمَ لِيُعَزُّوهُمَا عَنْ أَخِيهِمَا. فَلَمَّا سَمِعَتْ مَرْثَا أَنَّ يَسُوعَ آتٍ لاَقَتْهُ، وَأَمَّا مَرْيَمُ فَاسْتَمَرَّتْ جَالِسَةً فِي الْبَيْتِ.

فَقَالَتْ مَرْثَا لِيَسُوعَ: «يَا سَيِّدُ، لَوْ كُنْتَ ههُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي! لكِنِّي الآنَ أَيْضًا أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنَ اللهِ يُعْطِيكَ اللهُ إِيَّاهُ».

قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «سَيَقُومُ أَخُوكِ».

قَالَتْ لَهُ مَرْثَا: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَقُومُ فِي الْقِيَامَةِ، فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ».

قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الأَبَدِ. أَتُؤْمِنِينَ بِهذَا؟»

قَالَتْ لَهُ: «نَعَمْ يَا سَيِّدُ. أَنَا قَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، الآتِي إِلَى الْعَالَمِ».

وَلَمَّا قَالَتْ هذَا مَضَتْ وَدَعَتْ مَرْيَمَ أُخْتَهَا سِرًّا، قَائِلَةً: «الْمُعَلِّمُ قَدْ حَضَرَ، وَهُوَ يَدْعُوكِ». أَمَّا تِلْكَ فَلَمَّا سَمِعَتْ قَامَتْ سَرِيعًا وَجَاءَتْ إِلَيْهِ. وَلَمْ يَكُنْ يَسُوعُ قَدْ جَاءَ إِلَى الْقَرْيَةِ، بَلْ كَانَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي لاَقَتْهُ فِيهِ مَرْثَا. ثُمَّ إِنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهَا فِي الْبَيْتِ يُعَزُّونَهَا، لَمَّا رَأَوْا مَرْيَمَ قَامَتْ عَاجِلاً وَخَرَجَتْ، تَبِعُوهَا قَائِلِينَ: «إِنَّهَا تَذْهَبُ إِلَى الْقَبْرِ لِتَبْكِيَ هُنَاكَ».

فَمَرْيَمُ لَمَّا أَتَتْ إِلَى حَيْثُ كَانَ يَسُوعُ وَرَأَتْهُ، خَرَّتْ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَائِلَةً لَهُ: «يَا سَيِّدُ، لَوْ كُنْتَ ههُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي!».

فَلَمَّا رَآهَا يَسُوعُ تَبْكِي، وَالْيَهُودُ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَهَا يَبْكُونَ، انْزَعَجَ بِالرُّوحِ وَاضْطَرَبَ، وَقَالَ: «أَيْنَ وَضَعْتُمُوهُ؟»

قَالُوا لَهُ: «يَا سَيِّدُ، تَعَالَ وَانْظُرْ».

بَكَى يَسُوعُ. فَقَالَ الْيَهُودُ: «انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ يُحِبُّهُ!». وَقَالَ بَعْضٌ مِنْهُمْ: «أَلَمْ يَقْدِرْ هذَا الَّذِي فَتَحَ عَيْنَيِ الأَعْمَى أَنْ يَجْعَلَ هذَا أَيْضًا لاَ يَمُوتُ؟».

فَانْزَعَجَ يَسُوعُ أَيْضًا فِي نَفْسِهِ وَجَاءَ إِلَى الْقَبْرِ، وَكَانَ مَغَارَةً وَقَدْ وُضِعَ عَلَيْهِ حَجَرٌ. قَالَ يَسُوعُ: «ارْفَعُوا الْحَجَرَ!».

قَالَتْ لَهُ مَرْثَا، أُخْتُ الْمَيْتِ: «يَا سَيِّدُ، قَدْ أَنْتَنَ لأَنَّ لَهُ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ».

قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَلَمْ أَقُلْ لَكِ: إِنْ آمَنْتِ تَرَيْنَ مَجْدَ اللهِ؟».

فَرَفَعُوا الْحَجَرَ حَيْثُ كَانَ الْمَيْتُ مَوْضُوعًا، وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ، وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ، لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي».

وَلَمَّا قَالَ هذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «لِعَازَرُ، هَلُمَّ خَارِجًا!» فَخَرَجَ الْمَيْتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلاَهُ مَرْبُوطَاتٌ بِأَقْمِطَةٍ، وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيلٍ.

فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ».٢٦٧

فقال عثمان وهو يلتقط أنفاسه: «رائعٌ! لا بدّ أنه من المستحيل عملياً تفسير القصص التي تحكي عن إقامة شخصٍ ما من بين الأموات بعد ثلاثة أو أربعة أيام.» ثم توقف وقال: «ومع ذلك، أعتقدُ أن المشككين يمكنهم أن يقولوا إن الشخص ربما لم يكن ميتاً «حقاً» لكنه استرد حياته بكل بساطةٍ في القبر. هل هناك أي حالاتٍ تحقق فيها أحد الأطباء من موت الشخص بالفعل؟»

«في أجزاءٍ كثيرة من العالم يكون السكان المحليون متعارفين تماماً على الموت وأعراضه حتى لو لم يتحقق الطبيب من الموت. ومع ذلك، في بعض الحالات يكون الطبيب قد أكد بالفعل أن جميع العلامات الإكلينيكية للحياة غائبة وأنه من المنظور الطبي يعدّ الشخص ميتاً. وكانت هذه قصة طفل اسمه كاتشيني مات في إحدى المستشفيات في إفريقيا وكتب له الأطباء حتى شهادة الوفاة. ولكن في وقتٍ لاحق من نفس اليوم، كان رجل الله ماهاش شافدا يلقي حديثاً في الساحة المركزية في المدينة أمام الجمهور عندما قال له الله إن أحد الرجال الحاضرين مات ابنه في صباح ذلك اليوم. في تلك اللحظة جاء أبو الطفل كاتشيني، وكان اسمه مولامبا، إلى الساحة وسمع رجل الله. فصلى رجل الله مع مولامبا طالبين من الله أن يقيم الصبي من بين الأموات. وفي تلك اللحظة بالذات، في مشرحة المستشفى، تحركت الجثة فجأةً، حيث عطس الصبي ثم جلس وطلب بعض الطعام.»٢٦٨

فقال عثمان: «إذا كان الشخص قد مات حقاً، فمن المستحيل بالطبع تفسير الشفاء بمصطلحات طبية تقليدية. لا نستطيع القول بأن الشخص الميت تحسنت حالته بسبب الأدوية أو أي شيءٍ من هذا القبيل!»

«نعم. الطريقة الوحيدة الممكنة لتفسير ذلك بمصطلحات بشرية هي التأكيد على أن الشخص لم يمت حقاً بل كان يبدو ميتاً. ومع ذلك، فهذا الموقف يشبه موقف النعامة التي ترفض النظر إلى الحقائق. فمن المنظور الطبيعي، كان أبطال هذه القصص إما من الموتى أو من المرضى بأمراضٍ خطيرة الذين لم يستردوا عافيتهم لدرجة إقناع المحيطين بهم بأن الله أقامهم من بين الأموات.»

كانت فاطمة تصغي في اهتمامٍ فتساءلت: «لماذا يقيم الله بعض الناس من الأموات ويترك البعض الآخر؟ لماذا لا يوجد سوى عددٍ قليل من هذه الحالات؟»

«هذا سؤالٌ جيد ولكن ليس من السهل الإجابة عليه، لأن الله وحده يعلم لماذا يختار أن يقيم بعض الناس من بين الأموات في هذا العالم بينما يذهب الآخرون إلى مصيرهم الأبدي. ومع ذلك، يمكننا القول إن جميع هؤلاء الناس الذين أقيموا من بين

الأموات استجابةً للصلاة قد نالوا المزيد من الوقت للعيش على هذه الأرض. ومع ذلك، فإنهم في نهاية المطاف ماتوا أيضاً أو سيموتون، حتى لو كان بسبب مرضٍ مختلف أو بسبب الشيخوخة. علينا أن نؤمن أن الله لديه غرضٌ محدد لهم لمواصلة العيش في هذه الحياة.»

فتساءل عثمان: «هل هؤلاء الناس الذين أقيموا من بين الأموات يقولون ما شاهدوه في العالم الآخر؟»

«أحياناً يقولون هذا مثلما فعل صموئيل في كوريا الذي قال إن عيسى المسيح حمله إلى مكانٍ جميل ومشرق تنبعث منه موسيقى رائعة. أما القصص الأخرى فلا تذكر التفاصيل. ومع ذلك، حتى لو عرفنا من هذه القصص ما شاهدوه خلال هذه النظرة الخاطفة على الحياة الأخرى، فالمسألة الأهم بكثيرٍ هي أننا أيضاً بحاجة للاستعداد للقاء الله بعد موتنا. ماذا سنقول لخالقنا؟»

فهتف عثمان: «أنت على حقٍ! ولهذا تكمن أهمية هذه الفقرة من القرآن. مكتوبٌ أن عيسى المسيح عاد إلى الله في السماء. لقد جاء من عند الله وعاد إلى السماء، ولذلك ينبغي أنه يعرف الطريق إلى هناك!»

«أنت رجلٌ بصيرٌ، يا عثمان. في الواقع، تحدث عيسى المسيح عن المكان الذي كان يعدّه في السماء للذين يحبونه ويتبعونه. وقال: «لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ. أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ فَآمِنُوا بِي. فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ، وَإِلاَّ فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ. أَنَا أَمْضِي لأُعِدَّ لَكُمْ مَكَانًا، وَإِنْ مَضَيْتُ وَأَعْدَدْتُ لَكُمْ مَكَانًا آتِي أَيْضًا وَآخُذُكُمْ إِلَيَّ، حَتَّى حَيْثُ أَكُونُ أَنَا تَكُونُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا.»٢٦٩

«مثلما فعل مع الصبي الصغير في كوريا!»

«نعم، ولكن عيسى المسيح قال أيضاً لأتباعه: «وَتَعْلَمُونَ حَيْثُ أَنَا أَذْهَبُ وَتَعْلَمُونَ الطَّرِيقَ.»٢٧٠

فقال عثمان: «ربما يكونوا قد عرفوا الطريق أما نحن فلا نعرفه!»

«في الواقع، كان هذا إلى حدٍّ ما رد فعل أحد أتباع عيسى المسيح أيضاً. فقد قال لعيسى المسيح: «يَا سَيِّدُ، لَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ، فَكَيْفَ نَقْدِرُ أَنْ نَعْرِفَ الطَّرِيقَ؟»٢٧١ فكيف أجابه عيسى المسيح في رأيك؟

فقال عثمان: «لا أعرف.»

التقطتُ الإنجيل ونقلتُ الفقرة التي تفيد رد عيسى المسيح. قال: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي.»٢٧٢

استمر عثمان يفكر للحظات ثم قال: «ليس أحد يأتي إلى الله إلا بعيسى المسيح؟ لم يصرّح أي نبيٍ آخر تصريحاً مثل هذا، ولا حتى نبينا الذي قال في سورة

الأحقاف: «قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ.»٢٧٣

فقالت فاطمة: «ولكن لم يقم أي نبيٌ آخر من بين الأموات أيضاً مثل عيسى المسيح! ولذلك فهو يعرف بطبيعة الحال الطريق إلى السماء!»

ثم سألني عثمان: «هل كانت قيامة عيسى المسيح مشابهةً لهذه القصص التي حكيتها لنا عن إقامة الموتى؟»

«لا، فهذه القصص عن إقامة الموتى مختلفة تماماً عن قصة عيسى المسيح بعدما مات وقام مرةً أخرى. كان جسد قيامته من نوعٍ مختلف تماماً. كان جسداً جديداً بهيئةٍ جديدة مختلفة. لم يعد محدوداً بجدرانٍ، ولكن جسد عيسى المسيح الجديد لم يكن مثل شبحٍ لأنه كان يأكل ويشرب مع تلاميذه ويعدّ لهم حتى وجبة الإفطار. كان جسداً ملموساً يمكنهم أن يلمسوه. فقد دعا عيسى المسيح أحد تلاميذه، الذين كان يشك في قيامته من الأموات، إلى أن يضع يديه في جروح المسامير كي يتحقق من أنه عيسى المسيح بالفعل. أما الاختلاف فهو أن هذا الجسد الجديد لن يموت مرةً أخرى. فبعد أربعين يوماً صعد عيسى المسيح إلى السماء ولكنه سيعود يوماً ما إلى هذا العالم ليدينه. ومع ذلك، فقد جاء أولاً لخلاص العالم من خلال إعطاء كل واحدٍ منا فرصة الإيمان به كي يحررنا من الجحيم ويعطينا الحياة الأبدية في السماء.»

نظر عثمان إلى فاطمة ثم قال: «لم أكن أفهم هذه الفقرة من القرآن من قبل، ولكني أفهمها تماماً الآن. أدركُ أنه من الأهمية بمكانٍ معرفة المزيد عن عيسى المسيح، لأنه القرآن يقول: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي... جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.» أما أنا فأريد أن أؤمن بعيسى المسيح يوم القيامة.»

الفصل 14

كيسلوفودسك: الرياضة في القوقاز

في وقتٍ مبكر في صباح أحد الأيام، ذهبتُ للركض في تلال الغابات بجوار مدينة كيسلوفودسك الشهيرة بالمنتجعات. كان الخروج إلى التلال برفقة البعض فرصةً رائعة للتمتع بجمال خليقة الله. كان المنظر الطبيعي لا يزال يكتنفه ضباب الصباح الباكر، ولكن في هذا الوقت في الصباح هناك الكثير من الكنوز الأخرى التي يمكن النظر إليها والتي من المرجح أن تختفي عندما تستمد الشمس قوتها. على سبيل المثال، تتشكل خيوط العنكبوت الجميلة الممتدة عبر المسار على هيئة عملٍ فني. التصميم في حدّ ذاته معقدٌ بحيث يشير إلى يد الخالق في تشكيل العنكبوت بمثل هذه المهارة. في هذه الحالة، أضاف الخالق نفسه قطرات الندى في الصباح الباكر كي يجعل خيوط العنكبوت هذه تلمع في ضوء الشمس. وبعد نحو ساعةٍ، ربما يكون هذا الجمال قد اختفى وخيوط العنكبوت قد تلفت بسبب مرور شخصٍ ما من خلالها.

كلما ننظر من حولنا، نرى الخالق يصمم أعمالاً فنية جديدة ربما لا يذكرها فيما بعد من كثرتها! الله يبتهج بالتنوع: فأعماله تحمل ختم فنانٍ. فالفنان قد ينتج العديد من الصور المماثلة، ولكن كل واحدٍ منا مختلفٌ بشكلٍ ما عن الآخرين، ولهذا يصنع الله كل إبداعٍ من إبداعاته فريداً من نوعه. يمكننا أن نرى هذا التفرد في كل واحدٍ منا: في بصمات أصابعنا، وشكل القزحية في عيوننا، وحتى شكل آذاننا. كما أن كل نمرٍ له نمطٌ فريد من الخطوط على وجهه. ومعظم ندف الثلج مختلفة. والنجوم متنوعة. إن خليقة الله بأكملها تشير إلى لمسةٍ فنية تبتهج بالتفرد.

بينما كنتُ أركض عائداً عبر التلال نحو «المصحة» التي كنتُ أقيم فيها، لاحظتُ رجلاً يراقبني. كنتُ قد التقيتُ رامزا في اليوم السابق وقضيتُ الأمسية معه. كان رجلاً من الشيشان وفقد منزله خلال الحرب في غروزني ويعيش الآن في مدينةٍ أخرى، خارج الشيشان نفسها. استمتعتُ بالحديث معه، ولكن حديثنا توقف فجأةً بمجرد بداية عرض المصارعة على شاشة التلفزيون.

اندهش رامزا عندما رآني أركض وقال: «مجهودٌ رائع!»

«أعتقد أنه لا يوجد الكثير من الأجداد الذين يخرجون للركض في هذه المنطقة، أليس كذلك؟» (كنتُ قد قلتُ له من قبل أن لديَّ اثنين من الأحفاد.)

«لا، فنحن نفضّل أنواعاً أخرى من الرياضة، أما كبار السن فيتفرجون فقط.»

«نعم، أهل القوقاز يحبون مشاهدة المصارعة، أليس كذلك؟»

«والمشاركة فيها، على الأقل عندما كنا أصغر سناً.»

«أعتقد أنه كانت هناك فرحةٌ عارمة خلال دورة الألعاب الأولمبية عندما حصد مصارعون من داغستان مرةً أخرى ميداليات ذهبية، ليس فقط في أثينا ولكن بعد ذلك في بكين.»

«هل تقصد مافلت باتيروف وبوفايساك سايتييف؟ هل تعلم أنهما وُلِدَا في خاسافيورت في داغستان؟»

«لم أكن أعرف ذلك. كان هناك مصارعٌ آخر وُلِدَ في نالتشيك. ما اسمه؟»

«أنت تقصد أصلان بك خوشتوف. لقد حصد أيضاً ميدالية ذهبية في بكين.»

«سمعتُ أن المصارعين الداغستانيين حصدوا ثلاث ميداليات ذهبية وميدالية فضية في بكين. لا أعرف جنسيات كل المصارعين، ولكن يبدو لي أن شعب القوقاز هيمنوا على المصارعة مرةً أخرى.»

«نعم، فحتى اللاعب الحاصل على ميداليات ذهبية الذي يمثل أوزبكستان، أرتور تايمازوف، وُلِدَ بالفعل في فلاديكافكاز!»

«ولكن هل حصدت كازاخستان وقرغيزستان وأذربيجان بعض الميداليات الفضية والبرونزية؟»

«نعم، وطاجيكستان أيضاً. ولكن هل تعلم أين وُلِدَ لاعبهم الحاصل على الميدالية الفضية في المصارعة، يوسوب أبدوسالموف؟»

«لا. يبدو أنه من القوقاز أيضاً!»

«محج قلعة»!

«داغستاني آخر إذاً! ولكن المصارعة شائعةٌ في جميع أنحاء القوقاز، وليس فقط في داغستان، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد، فحتى الجورجيون بارعين فيها. فقد حصدوا بعض الميداليات أيضاً منها ميداليتان ذهبيان.»

«في دورة الألعاب الأولمبية كان الناس يركزون كثيراً على جنسية كل منافسٍ ولكن كلاً منهم أدى دوره ببراعةٍ كبيرة. كانوا جميعاً يستحقون ميدالياتهم. فالمهم ليس جنسيتهم بقدر ما هو طباعهم وانضباطهم.»

«الانضباط مهمٌ بالنسبة لهم، ولكن ماذا تقصد بطباعهم؟»

«إنهم ملتزمون بالانضباط. فيوماً بعد يوم يمضون ساعات طويلة في التدريب وممارسة مهاراتهم. ونجاحهم لا يأتي بدون انضباط. هناك ضريبةٌ على كل مكافأة. وفي هذه الحالة، من الممكن حساب الضريبة على أساس ما تخلوا عنه في سبيل الانضباط والالتزام بمسيرتهم. ربما يودون قضاء وقتهم في عمل شيء أقل مجهوداً مثل مشاهدة التلفزيون أو زيارة الأصدقاء أو حتى مجرد النوم لفترةٍ أطول! ومع ذلك، اختاروا أن يتخلوا عن بعض الأنشطة أو يقللوها، الأمر الذي ربما يكون مفيداً، حتى يتمكنوا من التركيز على ما هو أكثر أهمية بالنسبة لهم.»

«لم يسبق لي التفكير بخصوص ما يكونوا قد تخلوا عنه.»

«هناك ضريبةٌ على كل شيءٍ في الحياة. في الواقع، الله نفسه يريدنا أن نعيش حياتنا بنفس النوع من الانضباط الذي نراه في حياة الرياضيين من الرجال والنساء.»

«حقاً؟ كنتُ أظن أن الله لا يحب الرياضة!»

«لماذا تعتقد ذلك؟»

«لا يذكر القرآن الكثير عن الرياضة، ولكن ما يقوله يبدو انتقاصاً.»

«ماذا يقول؟»

«على سبيل المثال، تقول إحدى الآيات: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ.»٢٧٤ وفي موضعٍ آخر يذكر القرآن أولئك «الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا.»٢٧٥ وتقول آيةٌ أخرى: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.»٢٧٦

«لكن القرآن لا يقول إن الرياضة خطية! وإنما يؤكد على أهمية الحياة الروحية. وفي هذا اتفاقٌ بين القرآن والإنجيل الذي يقول: «لأَنَّ الرِّيَاضَةَ الْجَسَدِيَّةَ نَافِعَةٌ لِقَلِيلٍ، وَلكِنَّ التَّقْوَى نَافِعَةٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، إِذْ لَهَا مَوْعِدُ الْحَيَاةِ الْحَاضِرَةِ وَالْعَتِيدَةِ.»٢٧٧

«لماذا قلتَ إذاً إن الله نفسه يريدنا أن نعيش حياتنا مثل الرياضيين؟»

«أقصد أنه يريد أن يكون لدينا الانضباط نفسه الذي نراه في حياتهم وفي حياة الناس الذين يشاركون في العديد من الرياضات الأخرى، بما في ذلك الألعاب البارالمبية (ذوي الاحتياجات الخاصة). عندما قلتُ هذا كان يدور في بالي بعض الميزات الإيجابية للرياضة التي أشاد بها الإنجيل أيضاً. على سبيل المثال، يخبرنا الإنجيل أن الله يدربنا بنفس الطريقة التي يتدرب بها الرياضيين. ويقدم لنا مثالاً على الركض في سباقٍ. فكما أن العدّاء يحتاج ملابس خفيفة كي يركض أسرع، فنحن أيضاً بحاجة للتخلص من الأشياء الخاطئة في حياتنا التي تعيق تقدمنا الروحي.

مكتوبٌ: «لِنَطْرَحْ كُلَّ ثِقْل، وَالْخَطِيَّةَ الْمُحِيطَةَ بِنَا بِسُهُولَةٍ، وَلْنُحَاضِرْ (لنركض) بِالصَّبْرِ فِي الْجِهَادِ (السباق) الْمَوْضُوعِ أَمَامَنَا.»٢٧٨

«هل تعني أن الحياة مثل سباقٍ؟»

«نعم، أو مثل أي نوعٍ آخر من الرياضات حقاً. ومع ذلك، تشير هذه الفقرة في الإنجيل فيما بعد إلى مثالٍ أعظم للثبات والصبر في مواجهة المشقة: أي عيسى المسيح. فالكلمات التي تأتي بعد النص السابق تقول: «نَاظِرِينَ إِلَى رَئِيسِ الإِيمَانِ وَمُكَمِّلِهِ يَسُوعَ، الَّذِي مِنْ أَجْلِ السُّرُورِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَهُ، احْتَمَلَ الصَّلِيبَ مُسْتَهِينًا بِالْخِزْيِ، فَجَلَسَ فِي يَمِينِ عَرْشِ اللهِ. فَتَفَكَّرُوا فِي الَّذِي احْتَمَلَ مِنَ الْخُطَاةِ مُقَاوَمَةً لِنَفْسِهِ مِثْلَ هذِهِ لِئَلاَّ تَكِلُّوا وَتَخُورُوا فِي نُفُوسِكُمْ.»٢٧٩

«ذات مرةٍ شاهدتُ فيلماً عن عيسى المسيح واندهشتُ كثيراً إزاء مدى معاناة عيسى المسيح من الجلد والصلب. ربما يمكنك القول إنه عانى أكثر بكثيرٍ من معاناة أيٍ من الملاكمين أو المصارعين: فعلى الأقل تخضع مباريات الرياضيين للقواعد ولا تنتهي في الغالب بالموت.»

«هذا صحيحٌ. ولذلك فإن مثال عيسى المسيح يمكن أن يلهمنا للاستمرار في العيش كما يريد الله لنا، على الرغم من سوء الفهم أو المقاومة من قِبل أولئك الذين لا يريدون أن تكشف حياتنا النقية عن مقدار الرجاسة والظلام في حياتهم. مكتوبٌ في الإنجيل:

«وَهذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ: إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ، وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ، لأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شِرِّيرَةً. لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ السَّيِّآتِ يُبْغِضُ النُّورَ، وَلاَ يَأْتِي إِلَى النُّورِ لِئَلاَّ تُوَبَّخَ أَعْمَالُهُ. وَأَمَّا مَنْ يَفْعَلُ الْحَقَّ فَيُقْبِلُ إِلَى النُّورِ، لِكَيْ تَظْهَرَ أَعْمَالُهُ أَنَّهَا بِاللهِ مَعْمُولَةٌ».٢٨٠

«ما علاقة هذا بالرياضة؟ لا أفهم ما تقصده.»

«في السباق، يمكن أن نحصل على الإلهام للذهاب إلى خط النهاية من خلال رؤية أولئك الذين تحملوا إلى النهاية وأكملوا السباق. وبنفس الطريقة، في هذا العالم الفاسد المليء بالإغراءات لعمل الشر، ليس من السهل أن تعيش حياةً نقية صادقة. فإذا أردتَ أن تعيش حسب معايير الله في الاستقامة والطهارة، فمن المرجح أن تكون ضحية سوء الفهم. وإذا رفضتَ الاستسلام للمعايير الفاسدة التي يتبعها الآخرون، فربما يعارضونك لأن حياتك الصادقة الصالحة تكشف زيف وخداع حياتهم. أما الرياضيون الذين يريدون الفوز بميدالية ذهبية في دورة الألعاب الأولمبية فليس عليهم فقط أن يخضعوا للانضباط والتدريب ولكنهم بحاجة أيضاً للتغلب على المعارضة. ونحن أيضاً لدينا خصمٌ روحي، وهو الشيطان وجنوده. في تلك المعركة الروحية ضد قوى الظلام، علينا أيضاً أن نتسلح بالانضباط والتدريب الصحيح.»

«أين ينتهي هذا؟ هل نحصل على ميدالية للصراع ضد الشيطان؟»

«بشكلٍ ما، نعم. في دورة الألعاب الأولمبية في الوقت الحاضر يحصل المنتصرون على الميداليات، أما في الألعاب الأولمبية الأصلية، عندما بدأت لأول مرةٍ في اليونان القديمة، كان المنتصرون يحصلون على إكليلٍ من أغصان الزيتون.٢٨١ كان الرومان يستخدمون أكاليل الغار للإشارة إلى النصر. ومن هنا جاءت عادة الملوك في ارتداء التيجان على رؤوسهم.٢٨٢ يشير الإنجيل إلى هذه الأكاليل أو التيجان في عدة مواضع ويذكر أن الله سيكافئ المؤمنين بعيسى المسيح. مكتوبٌ على سبيل المثال: «طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي يَحْتَمِلُ التَّجْرِبَةَ، لأَنَّهُ إِذَا تَزَكَّى يَنَالُ «إِكْلِيلَ الْحَيَاةِ» الَّذِي وَعَدَ بِهِ الرَّبُّ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ.»٢٨٣ ولهذا السبب كتبَ أحد أتباع عيسى المسيح المخلصين في أواخر حياته: «أَكْمَلْتُ السَّعْيَ، حَفِظْتُ الإِيمَانَ، وَأَخِيرًا قَدْ وُضِعَ لِي إِكْلِيلُ الْبِرِّ، الَّذِي يَهَبُهُ لِي فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، الرَّبُّ الدَّيَّانُ الْعَادِلُ، وَلَيْسَ لِي فَقَطْ، بَلْ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ ظُهُورَهُ أَيْضًا.»٢٨٤

«هل تقصد أن من يكملون السعي يحصلون على المرادف الروحي للميداليات الذهبية أو الفضية؟ أعتقدُ أن معظمنا ليست لديه الفرصة.»

«في الواقع، هذا التاج أو إكليل الغار، أي ما يعادل «الميدالية الذهبية الأولمبية»، يُقدّم للمؤمنين بصرف النظر عن المحنة أو المشقة. ومثل الرياضيين اليوم، علينا أن نكون مستعدين لتحمل المشاق من أجل الفوز بالجائزة. وبخلاف الأولمبياد، هناك مكافأة لجميع من يكملون المضمار، وليس فقط لصاحب المركز الأول. فالله يكافئ الذين لا يستسلمون. وعيسى المسيح وعد بعض الناس الذين يعيشون في تركيا الآن قائلا: «كُنْ أَمِينًا إِلَى الْمَوْتِ فَسَأُعْطِيكَ إِكْلِيلَ الْحَيَاةِ.»٢٨٥

«حتى الموت؟ هذه مسألةٌ صعبة!»

«لكن الموت ليس سوى المدخل للحياة الأبدية! ففي ضوء الحياة الأبدية، على كلٍ منا اتخاذ قرار بشأن الطريقة التي نعيش بها حياتنا الآن. هل نحن على استعدادٍ لخوض سباق الحياة بالطريقة التي يريدها الله؟ هل نحن على استعدادٍ لتحمل المشاق حتى نتمكن من الحصول على تلك المكافأة الأبدية التي يمنحها الله لمن يتحملون إلى النهاية؟»

«نعم، التحمل مطلوب، ولكن هل هو الشرط الوحيد للوصول إلى السماء؟»

«لا، فالرياضي لا يحصل على الجائزة إلا عن طريق الالتزام بالقواعد. من الممكن استبعاد الرياضيين إذا استخدموا أنواعاً معينة من المنشطات أو العقاقير لتحسين الأداء. وحتى إذا كانوا قد فازوا في السباق، فإنهم يخسرون الجائزة بسبب خداعهم. وبنفس الطريقة، نحن بحاجة أيضاً لاتباع قواعد الحياة التي صممها الله لمصلحة الجميع. وهذه القواعد مشروحة في كتب الله المقدسة.»

«ولكن من الصعب جداً العيش حسب جميع القواعد في كتب الله! افعل هذا ولا تفعل ذاك! هذا مستحيلٌ تقريباً!»

«لهذا السبب نحن بحاجة لمدربٍ روحي! فالرياضيون لا يحصلون على ميدالياتهم بمجرد مراعاة القواعد في الكتب! إنهم بحاجة لمدربٍ يأتي إليهم ويساعدهم على تحسين الأداء. المدرب يشجع الرياضي على اتباع العادات الجيدة وفي الوقت نفسه يصحح أخطاء الرياضي. بنفس الطريقة، يرسل الله روحه القدوس لمساعدتنا على العيش بالطريقة التي يريدها الله: كي نكون مثل الرياضي الذي يركض حسب القواعد ويكون مؤهلاً للحصول على الجائزة.»

«لم أسمع من قبل أن الله يمكن أن يساعدنا حقاً في أن نعيش حياتنا بشكلٍ أفضل.»

«قبل عدة قرونٍ من زمان عيسى المسيح، قال إرمياء النبي الكلمات التالية من الله:

«بَلْ هذَا هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَقْطَعُهُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ بَعْدَ تِلْكَ الأَيَّامِ، يَقُولُ الرَّبُّ:
أَجْعَلُ شَرِيعَتِي فِي دَاخِلِهِمْ وَأَكْتُبُهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ،
وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهًا وَهُمْ يَكُونُونَ لِي شَعْبًا.
وَلاَ يُعَلِّمُونَ بَعْدُ كُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ، وَكُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ، قَائِلِينَ:
اعْرِفُوا الرَّبَّ، لأَنَّهُمْ كُلَّهُمْ سَيَعْرِفُونَنِي مِنْ صَغِيرِهِمْ إِلَى كَبِيرِهِمْ، يَقُولُ الرَّبُّ،
لأَنِّي أَصْفَحُ عَنْ إِثْمِهِمْ، وَلاَ أَذْكُرُ خَطِيَّتَهُمْ بَعْدُ.»٢٨٦

فاعترضني رامزا قائلاً: «هل تقصد هذا حقاً؟ هذا وعدٌ مدهش! هل تقصد أن الله يعد بغفران خطايا الناس ونسيانها؟!»

«هذا ما تقوله الآية! يمكنك أن تصلي الآن وتطلب إلى الله أن يطهرك ويغفر ذنوبك أو حتى ينسى خطاياك. ومع ذلك، هناك المزيد. فالله يعد بأن يضع ناموسه في عقولنا ويكتبه على قلوبنا. كيف يفعل هذا؟ أوضح عيسى المسيح كيف يحدث هذا. وعد عيسى المسيح بإرسال روحه القدوس كي يعيش معنا ويعلمنا طرق الله. قال: «وَأَمَّا الْمُعَزِّي، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ.»٢٨٧

وعد عيسى المسيح بأن يرسل لنا الروح القدس كمدربٍ لحياتنا الروحية. أما السؤال الذي على كلٍ منا التفكير فيه فهو ما إذا كنا على استعدادٍ لدعوة روح الله القدوس كي يصبح مدربنا أو معلمنا الروحي. إذا كان هذا هو ما نريده، فمن الممكن أن نتحدث إلى الله الآن بكلماتنا الخاصة وندعوه لمساعدتنا في هذا.»

«لا أعرفُ حقاً ماذا أقول له. أعرفُ فقط كلمات الصلوات التي درستها. فهل يمكن ان تعطيني مثالاً على ما يجب أن أفعله أو أقوله؟»

«يمكنكَ أن ترفع هذه الصلاة:

«أيها الله القدوس، أنتَ تدعونا كي نعيش حياةً منضبطة مقدسة، ولكني لستُ مثل الرياضي الأوليمبي المنضبط. لقد خذلتكَ ولم أعش حياتي حسب وصاياك. فاغفر لي. أرسل لي روحك القدوس كي يعيش فيَّ ويعلمني طرق القداسة والحق والمحبة. أريدُ أن أعيش حسب معاييرك وحسب حقك حتى لو كان الأمر مؤلماً أو حتى إذا أصبحتُ ضحية سوء فهم الآخرين. خذ حياتي وغيرها حتى أعيش حسب طريقتك وليس حسب طريقتي.»

الفصل 15

داغستان: الملائكة

من نالتشيك في جمهورية قبردينو بلقاريا، تمكنتُ من دخول حافلةٍ سياحية متجهة جنوباً إلى قلب جبال القوقاز. كان الطريق جميلاً يتصاعد تدريجياً إلى مستويات أعلى. وأخيراً، توقفنا في موقف سيارات يمكن للمرء أن يأخذ فيه مصعداً هوائياً إلى أعلى الجبل. دفعتُ الرسوم المقررة وصعدتُ إلى المستوى الأول، حيث تمتعتُ بمشاهدة المناظر الجبلية المحيطة مشاهدةً جيدة. ثم صعدت امرأةٌ تجاهي كي تعرض للبيع بعض السترات الصوفية يدوية الصنع. وقد كانت بالتأكيد رائعة وتبعث على الدفء، وهي كل ما يحتاجه المرء لمثل هذه الارتفاعات. فقلتُ لها إنني سأفكر في ذلك وربما سألقي نظرةً عليها مرةً أخرى في طريقي للنزول.

كان هناك مصعدٌ هوائي ثانٍ يصل إلى ارتفاعٍ أعلى من ذلك. لكن سائق الحافلة أوصى الركاب بضرورة الحذر من داء المرتفعات وعدم الصعود إلى المستوى الثاني إذا لم يكونوا معتادين على مثل هذه الارتفاعات. فشعرتُ بالرغبة في عدم تفويت هذه الفرصة لرؤية هذا المشهد الرائع! فقد اعتدتُ، على أي حالٍ، على العيش على علوٍ مرتفع نسبياً ولذا قررتُ الصعود إلى مستوىٍ أعلى.

من القمة كان هناك منظرٌ طبيعي حتى جبل إلبروس، وهو أعلى قمة في القوقاز. كان الجوهرة الرئيسية في إكليلٍ من قمم الجبال الرائعة.

كنتُ أشعر بالسعادة لأنني حظيتُ بفرصة إلقاء نظرة خاطفة على هذه القمة المهيبة رغم أن الغيوم كانت تلفها وتحجبها في كثيرٍ من الأحيان. أحياناً ما تكون خبرتنا في العالم الروحي من هذا القبيل. فنحن نلقي نظرةً خاطفة على الحقائق الروحية ولكن سرعان ما تغطيها «غيوم» الحياة اليومية. ومع ذلك، تظل لحظات البصيرة والرؤية من وراء الغيوم المعتمة ذكريات ثمينة يمكن أن تغير نظرتنا الإجمالية للحياة.

ذات مرةٍ، حدثت لحظة البصيرة هذه لواحدةٍ من صديقاتي اسمها إيرينا. وهي باشقيرية الجنسية رغم أن الروس يشيرون إلى شعبها باسم البشكيريين، أما من ناحية الدين فكانت تعتبر نفسها ملحدةً.

في أحد الأيام اتصلت بي إيرينا وقالت لي إنها صارت تؤمن بوجود الله الآن لأنها رأت أحد الملائكة. كان الملاك يحوم من فوقها أثناء مرضها. شعرت إيرينا أن الملاك يحميها ويعزيها. في البداية كانت تخشى إخبار بعض أصدقائها بخصوص تجربتها خوفاً من سخريتهم أو اعتقادهم بأنها مغرورة. ولهذا قررت أن تتصل بي لأنها أرادت أن تتحدث مع شخصٍ ما يفهمها ويأخذ الموضوع على محمل الجدية.

من خلال هذه التجربة آمنت إيرينا بوجود الله، ولكنها لم تكن تعرف بماذا يجب أن تؤمن أيضاً. وقد أعربت عن هذا بالقول بأنها لم تكن تعرف هل يجب أن تكون «بوذية أو معمدانية!» ومع ذلك، ساعدتها التجربة على الرغبة في قراءة الكتب المقدسة والتفكير في هذه المسائل بعقلٍ مفتوح. وفي نهاية المطاف بدأت علاقةً شخصية مع الله واختبرت معنى الغفران ونقاوة الروح.

اعترفت إيرينا أن ما رأته كان ملاكاً لأنه كان يشبه الصور الكلاسيكية للملائكة التي لها أجنحة. هناك أنواعٌ مختلفة من الملائكة ويبدو أنها تختلف في مظهرها. رأى إشعياء النبي ملائكة بستة أجنحة ووصف رؤيته على النحو التالي:

رَأَيْتُ السَّيِّدَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ عَالٍ وَمُرْتَفِعٍ، وَأَذْيَالُهُ تَمْلأُ الْهَيْكَلَ. السَّرَافِيمُ وَاقِفُونَ فَوْقَهُ، لِكُلِّ وَاحِدٍ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ، بِاثْنَيْنِ يُغَطِّي وَجْهَهُ، وَبِاثْنَيْنِ يُغَطِّي رِجْلَيْهِ، وَبِاثْنَيْنِ يَطِيرُ. وَهذَا نَادَى ذَاكَ وَقَالَ: «قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ رَبُّ الْجُنُودِ. مَجْدُهُ مِلْءُ كُلِّ الأَرْضِ».

فَاهْتَزَّتْ أَسَاسَاتُ الْعَتَبِ مِنْ صَوْتِ الصَّارِخِ، وَامْتَلأَ الْبَيْتُ دُخَانًا.

فَقُلْتُ: «وَيْلٌ لِي! إِنِّي هَلَكْتُ، لأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسُ الشَّفَتَيْنِ، وَأَنَا سَاكِنٌ بَيْنَ شَعْبٍ نَجِسِ الشَّفَتَيْنِ، لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ رَأَتَا الْمَلِكَ رَبَّ الْجُنُودِ».٢٨٨

الملائكة الموصوفة هنا قريبةٌ من الله ومشتركة في العبادة الدائمة. من المثير للاهتمام أن كلاً منها كان «يغطي وجهه» باثنين من الأجنحة. قالت لي امرأة قرغيزية كانت تتأمل هذه الفقرة الكتابية إن هذا يشبه عادةً منتشرة في آسيا الوسطى مفادها وضع المرء يده على وجهه بعد الصلاة. وكانت تتساءل ما إذا كانت العادة قد جاءت من نفس المصدر.

ومع ذلك، ليست كل الملائكة تظهر لنا بهذا الشكل. فعندما سافرتُ إلى داغستان حكى لي رجلٌ من عامة الشعب عن أحد المواقف التي ظهر فيها ملاكٌ بلا أجنحةٍ. قابلتُ هناك رجلاً من شعب اللاك اسمه نور الدين حكى لي عن شخصٍ غريب قدم

له المساعدة وقت الحاجة على نحوٍ غير متوقع ثم اختفى في ظروفٍ غامضة. ويسرد قصته على النحو التالي.

قال نور الدين: «في إحدى الليالي سقط ابني سعيد الدين سقوطاً خطيراً وانكسر ظهره. فحاول الوقوف ولكن بلا جدوى... أصيبت قدماه بالشلل. حدث هذا عندما كان في السادسة أو السابعة من العمر.»

«رقد في المستشفى وكانت زوجتي معه... كنتُ عاطلاً عن العمل فيما عدا القيام ببعض الوظائف المؤقتة، وكانت زوجتي تعمل في تصفيف الشعر وبالتالي لم يكن لدينا دخلٌ كبير. كان علينا بيع شقتنا لدفع رسوم المستشفى. فقال لي صديقٌ إنه سيصلي من أجل سعيد الدين في مكان اجتماعهم. ذهبتُ إلى هناك مساء أحد أيام الخميس. كان هناك حوالي أربعين إلى خمسين شخصاً وقدمني صديقي إلى الراعي. وعندما أخبرته عن مشكلتي، قال: «هل تؤمن أن عيسى المسيح هو خالق كل شيء؟» فشعرتُ بتجاسره وسألته لماذا سألني هذا السؤال. ثم ذهبتُ إلى المسلمين وطلبتُ منهم مساعدة سعيد الدين ولكن بلا جدوى أيضاً.

«بعد الذهاب إلى المسجد، عدتُ إلى الكنيسة. فقال الراعي إنه سيصلي في اسم عيسى المسيح. لم أعرف ماذا سيحدث ولم أفهم الأمر. لم أكن أريده أن يضع يديه عليَّ أثناء الصلاة ولكنني تحملتُ الموقف صابراً لأنه كان يقدم لنا المساعدة. وفيما كانوا يصلون، عاينتْ امرأةٌ رؤيا كشفت لها أنني أنا، وليس ابني، تحت تأثير اللعنة. وفي حالة وجود رؤيا من الله يجب الصلاة من أجل هذا الموضوع. فقالوا إنهم سوف يصلّون من أجلي ومن أجل ابني أيضاً. ثم قال الراعي لي: «عليك أن تطلب من الله أيضاً». فأجبته: «إني لا أعرف صلواتكم. فكل ما أعرفه هو الصلوات الطقسية باللغة العربية.» فقال لي: «الله ليس بحاجةٍ لكلماتٍ خاصة، ولكنه يحتاج الإخلاص والصدق في قلبك.» وفي وقتٍ لاحق، عندما كنت لوحدي لأول مرةٍ في المنزل، صليتُ إلى الله القدير. لم أكن أعرف كيف أصلي. لكنني بكل بساطةٍ ركعتُ على ركبتيّ وبدأتُ أقول الكلمات الموجودة في قلبي، وهي صرخة يأس: «يا الله، في اسم عيسى المسيح، لستُ أريد أن يكون ابني عاجزاً. إذا كنتَ تسمعني، ففي اسم عيسى المسيح أطلبُ أن تنقذ ابني.»

«في المستشفى، كان الموظفون يقبلون هدايا الشوكولاتة أو الشمبانيا أو المال إذا كانوا يعتقدون أن هناك بعض الأمل على الأقل من تعافي المريض، ولكنهم لم يقبلوا هدايانا. وكان هذا معناه أنهم كانوا يظنون بعدم وجود أي أملٍ بخصوص حالته. لم يكن هناك أي شيءٍ يمكنهم عمله لسعيد الدين. بحلول ذلك الوقت، كنتُ محطم الوجدان وشعرتُ بأن قوتي قد خارت أيضاً.

«بعد هذا قال الجراح إن بإمكانهم محاولة إجراء عملية جراحية للورم الدموي وتنظيفه. ومع ذلك، سوف يتعين علينا أن ننتظر وقتاً طويلاً. الطريقة الوحيدة لإجراء العملية هي الحصول على توقيع وزير الصحة وبعض كبار المسؤولين للحصول على العلاج بنظام الأولوية. ثم قدموا لي قطعةً من الورق بها تفاصيل العملية المطلوبة. وفيما كنتُ أقرأ الورقة في المستشفى اقترب مني فجأةً رجلٌ عجوز يرتدي زياً من الطراز القديم مثل الأزياء المنتشرة في وقت الحرب العالمية الأولى. فانتزع الورقة من يدي بغتةً ورحل بعيداً قبل أن أتمكن من القيام بأي ردّ فعل. لم أعرف ما يجب عمله. لم أعلم أين ذهب هذا الشخص، ولهذا ظننتُ أنه ربما يكون من الأفضل الانتظار حيث كنتُ في الممر بجانب السلالم. بعد فترةٍ قصيرة، جاءني الشخص نفسه ووضع الورقة مرةً أخرى في يدي. ثم رحل عبر الممر. فنظرتُ إلى الورقة وإذ بي أجد عليها توقيعات وزير الصحة وكبار الأطباء! فالتفتُ إلى صديقي قائلاً: «هذا هو الرجل الذي أخذ ورقتي.» ومع ذلك، عندما نظرتُ عبر الممر لم يكن هناك أحدٌ! كانت هناك ثلاثة أبواب في نهاية الممر، ولكن عندما حاولنا أن نفتحها وجدنا أنها مغلقة!

«في وقتٍ لاحق، عندما سلمتُ الورقة لموظفي المستشفى، قالوا إنه من الواضح أنني أتمتع بعلاقاتٍ شخصية على أعلى مستوى أو أنني من أقرباء أحد الأشخاص في الحكومة، ولكن هذا غير صحيح! فلم يساعدني أي أقرباء، ولكنني رجعتُ بعدها إلى اجتماع أتباع عيسى المسيح وشكرتهم على صلواتهم. ثم صلوا من جديدٍ من أجلي ومن أجل ابني.

«في اليوم السابق للميعاد الذي حدده الأطباء لإجراء العملية لسعيد الدين، كانت أبواب الجناح مغلقة ولكنه رأى شخصاً ما يأتي إليه. كان هناك نورٌ ساطع مصدره ملابس هذا الشخص. لم يتمكن سعيد الدين من رؤية وجه الرجل إذ كان ساطعاً جداً. عندما نظر سعيد الدين إلى الرجل، لم يشعر بأي ألمٍ. قال له الزائر: «لا تقلق. أنا أشفيك.» ثم خرج الزائر. وفي اليوم التالي كان ميعاد العملية ولكنه قال: «لا تزعجوني، فأنا شُفيتُ!» وفجأةً حرك رجليه ونهض واقفاً. فأجل الطبيب ميعاد العملية لأنه لم يستطع أن يجريها على شخصٍ في مثل هذه الحالة.

«قبل اليوم المحدد لميعاد تأجيل العملية، كانت التورمات في العمود الفقري لابني قد اختفت. وبعدها أجرت المستشفى الأشعة السينية مرةً أخرى على العمود الفقري لابني ولكنهم لم يجدوا أي كسرٍ! أخذوا ثمانية صور في اليوم نفسه، رغم أن هذا ممنوعٌ في المعتاد، فمن الطبيعي أن تكون هناك فترة ستة شهور بين الصور. شعرت زوجتي بالغضب تجاههم وتساءلت لماذا أخذوا هذا العدد الكبير من الأشعة السينية. فأجابوها بأنهم كانوا يريدون العثور على الكسر ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوه: لم يكن هناك أي كسرٍ!

«حكيتُ هذه القصة لأعضاء الاجتماع. فابتهج كثيرون منهم. أما ابني سعيد الدين فطلب مني أن أشتري له بعض المعدات الرياضية. ورغم أنها كانت مكلفة إلا أنني وافقتُ على ذلك وأحضرتها له بنفسي. فشعر سعيد الدين بسعادةٍ غامرة. وبعد نحو شهرٍ ونصف، ذهبت إلى المستشفى لإحضار الطعام لزوجتي ولابني وطلبتُ من أحد موظفي المستشفى استدعاء زوجتي إلى منطقة الزيارة. وفي النهاية جاءت وكان بصحبتها أحد الأشخاص. في البداية اعتقدتُ أنها كانت تعتني بأحد الأطفال الآخرين أيضاً: فأنا شخصياً لم أتعرف على ابني! أما زوجتي فكانت تبتسم وتقول بصوتٍ هادئ: «انظر: إنه يمشي!»

«بعد ذلك، بدأ ابني يتحسن في المشي ورفع الأرجل بالتدريج. في البداية كانت عضلاته ضعيفة ولكنه الآن يستطيع الركض والقفز. وقال الأطباء إن رجليه طبيعيتين الآن.»

بعدما انتهى نور الدين من قصته سألته عن الرجل الذي أخذ ورقته وجمع عليها كل هذه التوقيعات قائلاً: «هل تعتقد أنه كان ملاكاً؟»

فأجابني: «نعم، أعتقد ذلك.»

في هذه الحالة، خرج الملاك عن شكله المألوف ككائنٍ يلبس اللون الأبيض وله أجنحة. ومع ذلك، من الواضح من الكتب المقدسة أنه في بعض الأحيان يرسل الله ملائكة تبدو تماماً مثل البشر العاديين. على سبيل المثال، هناك قصة في التوراة لإبراهيم وهو يستقبل زواراً كانوا يبدون مثل البشر ولكن اتضح أنهم ملائكة. ذهب اثنان من هؤلاء الزوار لإنقاذ ابن أخي إبراهيم أي لوط وعائلته من مدينة سدوم قبل تدميرها.٢٨٩ وفي نظر لوط وأهل سدوم كان هؤلاء الزوار يبدون مثل الرجال العاديين ولكنهم في الواقع كانوا ملائكة لها قوى خارقة للطبيعة وسلطة من الله حتى يتمكنوا من مساعدة لوط.٢٩٠

يعلن الإنجيل: «أَلَيْسَ جَمِيعُهُمْ أَرْوَاحًا خَادِمَةً مُرْسَلَةً لِلْخِدْمَةِ لأَجْلِ الْعَتِيدِينَ أَنْ يَرِثُوا الْخَلاَصَ!»٢٩١ الملائكة عبيد الله يخدمون بمختلف الطرق وكثيراً ما يكونوا غير منظورين من قِبل البشر العاديين. ومع ذلك، ربما يفتح الله أعيننا في بعض الأحيان كي نعاين حضور ملائكته المجيدة من حولنا. وفي أحيانٍ أخرى، ربما يرسل الله ملائكة يبدون مثل البشر كي يقدمون لنا المساعدة بطرقٍ معينة.

ومع ذلك، فإن الملائكة من حقها أن تختار مثل البشر. فهي ليست مثل الإنسان الآلي. فمحبة الله عظيمة لدرجة أنه يسمح لكلٍ من البشر والملائكة أن يختاروا ما إذا كانوا يريدون عبادة الله وخدمته أو لا. اختار بعض الملائكة التمرد ضد الله فطُرِحَوا خارج السماء. وزعيمهم هو الشيطان وجنوده المعروفين في لغاتٍ مختلفة

باسم الشياطين، أو الجن، أو الأرواح الشريرة، أو الأرواح الدنسة. مكتوبٌ في الإنجيل:

«وَحَدَثَتْ حَرْبٌ فِي السَّمَاءِ: مِيخَائِيلُ وَمَلاَئِكَتُهُ حَارَبُوا التِّنِّينَ، وَحَارَبَ التِّنِّينُ وَمَلاَئِكَتُهُ وَلَمْ يَقْوَوْا، فَلَمْ يُوجَدْ مَكَانُهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي السَّمَاءِ. فَطُرِحَ التِّنِّينُ الْعَظِيمُ، الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ، الَّذِي يُضِلُّ الْعَالَمَ كُلَّهُ، طُرِحَ إِلَى الأَرْضِ، وَطُرِحَتْ مَعَهُ مَلاَئِكَتُهُ.»٢٩٢

في العالم الروحي غير المنظور، هناك أيضاً صراعٌ يدور بين قوى الخير والشر. وهذا الصراع نفسه ينعكس في عالمنا المرئي. فنحن أيضاً نتمتع بحرية الاختيار. فهل نحن على استعدادٍ لإخضاع أنفسنا لسلطان الله أم أننا نتمرد على طرق الله؟ هل نختار الانضمام لتمرد الشيطان ضد الله أم الانضمام إلى الله وملائكته المقدسة؟ الخيار يعود لنا.

من الممكن أن تؤثر علينا الشياطين أو «الأرواح الدنسة» بالعديد من الطرق، بما في ذلك التسبّب بالمرض البدني أو العقلي. يريدنا الشيطان أن نخدمه في الجحيم بدلاً من التمتع بالشركة مع الله في السماء. ولهذا السبب يريدنا الشيطان أن نموت دون اختبار علاقة حقيقية مع الله ودون غفران الخطايا.

ومع ذلك، لم يتركنا الله عزل ضد الشيطان. فمن لديه السلطان في هذا العالم على طرح الأرواح الدنسة خارجاً أو على شفاء الأمراض التي تسببها الشياطين؟ من ذا الذي يستطيع إقامة الموتى إلى الحياة؟ عيسى المسيح وحده له هذا السلطان، ولكنه يتشاركه أيضاً مع أولئك الذين يؤمنون به. باسم عيسى المسيح يمكن إخراج الشياطين من الناس. يأتي عيسى المسيح كي يأتينا بملكوت السماوات هنا.

جاء عيسى المسيح ليهدم أعمال الشرير.٢٩٣ فكر في القصة التي رواها نور الدين عن شفاء ابنه. من يا تُرى زار ابن نور الدين ومن كانت ملابسه تسطع بنورٍ براق؟ هل كان هذا ملاكاً أيضاً؟ تكشف لنا الكلمات التي قالها هذا الزائر لسعيد الدين: «أنا أشفيك» مفتاحاً لحل اللغز. فالله يمكن أن يرسل الملائكة لمنح الناس الراحة والسلام، ولكن الشافي هو الله وليس الملائكة. يقول الله: «فَإِنِّي أَنَا الرَّبُّ شَافِيكَ.»٢٩٤ وبالتالي، فإن هذا الزئر لا بدّ أنه أعظم من ملاك. يذكرنا وصف سعيد الدين لهذا الزائر بهذه الفقرة في الإنجيل:

«... أَخَذَ يَسُوعُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا أَخَاهُ وَصَعِدَ بِهِمْ إِلَى جَبَل عَال مُنْفَرِدِينَ. وَتَغَيَّرَتْ هَيْئَتُهُ قُدَّامَهُمْ، وَأَضَاءَ وَجْهُهُ كَالشَّمْسِ، وَصَارَتْ ثِيَابُهُ بَيْضَاءَ كَالنُّورِ. وَإِذَا مُوسَى وَإِيلِيَّا قَدْ ظَهَرَا لَهُمْ يَتَكَلَّمَانِ مَعَهُ.»٢٩٥

في المعتاد كان عيسى المسيح يبدو مثل رجلٍ عادي ولكن في هذه المناسبة حظى بعض أتباعه بامتياز إلقاء نظرة خاطفة على طبيعته الحقيقية. كان يتحدث مع

اثنين من عظماء الأنبياء، أي موسى وإيليا، الذين عاشا قبل قرونٍ من زمان عيسى المسيح. ومع ذلك، لم تكن ثيابهما بيضاء كالنور مثل ثياب عيسى المسيح.

لم يكن عيسى المسيح ملاكاً ولكنه كان في الواقع أعظم من الملائكة. مكتوبٌ: «بَعْدَ مَا صَنَعَ بِنَفْسِهِ تَطْهِيرًا لِخَطَايَانَا، جَلَسَ فِي يَمِينِ الْعَظَمَةِ فِي الأَعَالِي، صَائِرًا أَعْظَمَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ بِمِقْدَارِ مَا وَرِثَ اسْمًا أَفْضَلَ مِنْهُمْ.»٢٩٦

عيسى المسيح في السماء الآن، جالساً عن يمين الله، ولكنه لفترةٍ من الزمان صار إنساناً وعاش بيننا. وخلال هذه المدة كان لديه السلطان لاستدعاء آلاف الملائكة لمساعدته إذا أراد أن يفعل ذلك. ٢٩٧ ومع ذلك، اختار ألا يستخدم هذا السلطان! لماذا؟ لأنه كان يفكر في الأساس لخيرنا: فلأجلنا اختار أن يذهب إلى مملكة الشيطان!٢٩٨ وحتى الجحيم نفسه لم يقبض على عيسى المسيح القدوس الذي هو بلا خطية.

يشرح الإنجيل هذه الحادثة قائلاً:

«فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضًا كَذلِكَ فِيهِمَا، لِكَيْ يُبِيدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ، وَيُعْتِقَ أُولئِكَ الَّذِينَ خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ كَانُوا جَمِيعًا كُلَّ حَيَاتِهِمْ تَحْتَ الْعُبُودِيَّةِ. لأَنَّهُ حَقًّا لَيْسَ يُمْسِكُ الْمَلاَئِكَةَ، بَلْ يُمْسِكُ نَسْلَ إِبْرَاهِيمَ.»٢٩٩

أقام الله عيسى المسيح وهو الآن «مُكَلَّلاً بِالْمَجْدِ وَالْكَرَامَةِ، مِنْ أَجْلِ أَلَمِ الْمَوْتِ، لِكَيْ يَذُوقَ بِنِعْمَةِ اللهِ الْمَوْتَ لأَجْلِ كُلِّ وَاحِدٍ.»٣٠٠

جاء عيسى المسيح ليحررنا من نتائج عمل الشيطان في حياتنا حتى يمكن أن نعيش حسب خطة الله. فإذا كنا نريد أن نكون إلى جانب الله وأن نحيد عن أولئك الذين يعيشون تحت تأثيرات الشيطان وجنوده، فيمكننا أن نصلي هذه الصلاة:

«أيها الإله القدوس، أنت الله القدير خالق الكون والملائكة. أعترفُ لك بأنني سمحتُ لنفسي بالإصغاء إلى إغراءات وخدع الشيطان وجنوده. حررني من أكاذيب الشيطان حتى أستطيع أن أسمع صوتك. إني أريدُ أن أخدمك وأكون في صف ملائكتك المقدسين. أشكرك لأن الرب عيسى المسيح غلب قوى الظلام عندما مات وغلب الموت عندما قام من الموت. أشكرك لأنه بسلطان عيسى المسيح يمكن أن أتحرر من العبودية للشياطين والخوف من الموت. اغفر لي على كل ما أخطأتُ به في حياتي وحررني بسلطانك كي أعيش من أجلك ومن أجل مجدك.»

الفصل 16

أذربيجان: النبي ذو الثياب البيضاء

أثناء سفري جنوباً من محج قلعة، مررتُ بمدينة دربند، وهي مدخل القوقاز من الجنوب، والتي كانت منذ العصور القديمة تحرس الشريط الأرضي الضيق بين البحر والجبال. وفيما كنتُ على وشك الانتهاء من سياحتي الروحية، كنتُ حريصاً على الوصول إلى وجهتي. ومع ذلك، فإن السياحة الروحية ليس معناها الوجهة النهائية بقدر ما معناها رحلة الحياة نفسها. فالناس أكثر أهمية من الأماكن. ولهذا السبب أردتُ أن أترك الطريق الرئيسي على طول السهل الساحلي لبعض الوقت لزيارة رجل تاباساري كنتُ قد التقيته في كيسلوفودسك وكان قد دعاني لزيارته إذا سنحت لي الفرصة. كان يعيش في قريةٍ جبلية ولكنه قابلني بعد وصولي إلى دربند وأخذني بسيارته إلى قريته.

كنا نسير المسافة الأخيرة التي تساوي خمسين كيلومتراً أو أكثر على طريقٍ وعر غير مُعبّد. وعند إحدى النقاط كان علينا التوقف حتى يتحرك أمامنا قطيعٌ من الخراف. كانت الخراف تسدّ الطريق ولكنها كانت تتبع الراعي في طاعةٍ.

بينما كنا في انتظار مرور الخراف، التفت إليَّ صديقي التاباساري وقال: «هذا يذكرني دائماً بالأنشودة الرائعة في سفر المزامير التي كتبها داود النبي، والتي تقول إن الله راعينا.

وقبل أن تتاح لي الفرصة للتعليق، بدأ يتلو الأنشودة من الذاكرة:

«الرَّبُّ رَاعِيَّ فَلاَ يُعْوِزُنِي شَيْءٌ.

فِي مَرَاعٍ خُضْرٍ يُرْبِضُنِي. إِلَى مِيَاهِ الرَّاحَةِ يُورِدُنِي.

يَرُدُّ نَفْسِي. يَهْدِينِي إِلَى سُبُلِ الْبِرِّ مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ.

أَيْضًا إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لاَ أَخَافُ شَرًّا، لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي. عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي.

تُرَتِّبُ قُدَّامِي مَائِدَةً تُجَاهَ مُضَايِقِيَّ. مَسَحْتَ بِالدُّهْنِ رَأْسِي. كَأْسِي رَيَّا.

إِنَّمَا خَيْرٌ وَرَحْمَةٌ يَتْبَعَانِنِي كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِي، وَأَسْكُنُ فِي بَيْتِ الرَّبِّ إِلَى مَدَى الأَيَّامِ.»٣٠١

كنتُ أعرف أن صديقي التاباساري يحب الكتاب المقدس ولكني لم أكن أتذكر هذه الآيات مثلما تذكرها هو بوضوحٍ. فتحتُ الإنجيل وقرأتُ منه بعض الكلمات التي قالها عيسى المسيح عن نفسه:

«أَنَا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ، وَالرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ. وَأَمَّا الَّذِي هُوَ أَجِيرٌ، وَلَيْسَ رَاعِيًا، الَّذِي لَيْسَتِ الْخِرَافُ لَهُ، فَيَرَى الذِّئْبَ مُقْبِلاً. وَيَتْرُكُ الْخِرَافَ وَيَهْرُبُ، فَيَخْطَفُ الذِّئْبُ الْخِرَافَ وَيُبَدِّدُهَا. وَالأَجِيرُ يَهْرُبُ لأَنَّهُ أَجِيرٌ، وَلاَ يُبَالِي بِالْخِرَافِ. أَمَّا أَنَا فَإِنِّي الرَّاعِي الصَّالِحُ، وَأَعْرِفُ خَاصَّتِي وَخَاصَّتِي تَعْرِفُنِي، كَمَا أَنَّ الآبَ يَعْرِفُنِي وَأَنَا أَعْرِفُ الآبَ. وَأَنَا أَضَعُ نَفْسِي عَنِ الْخِرَافِ.»٣٠٢

مثل الذهاب لقضاء بعض الوقت مع صديقي التاباساري، فإن السياحة الروحية ليست مجرد رحلةٍ إلى أحد الأماكن المقدسة الخاصة. ولكنها السير مع الله. ومع ذلك، فإن صديقي ليس معي في كل وقتٍ في حين أن الله معنا دائماً. يجب أن يكون سيرنا مع الله مثل سير الخراف مع راعيها في رحلتها السنوية إلى المراعي المرتفعة في الجبال. إن رحلتها جزءٌ معتاد من الحياة، وليست مجرد جولة خاصة ربما مرةً واحدة في العمر. كل يومٍ فرصة للسير مع الله. وهذا معناه أن كل يومٍ يمكن أن يكون سياحة روحية.

في النهاية آن لي أوان العودة إلى الطريق الساحلي في طريقي نحو أذربيجان. وبينما كنتُ أودع صديقي، سألني إذا كانت معي خريطة فأجبته بالإيجاب.

فقال: «نعم، كنتُ أعتقد أنها معك مثلما تحمل معك خريطتك الروحية أيضاً!» كان حبه للكتاب المقدس واضحاً وكنتُ أحترم الطريقة التي يستخدم بها كتب الله المقدسة كدليلٍ أو كخريطة في رحلة الحياة لئلا يضيع روحياً أو أخلاقياً. كان من الواضح أن قراءة كتب الله المقدسة ساعدته على فهم معنى الحياة وكيفية السير في طرق الله.

كنتُ أشعر بالحزن عندما تركته وتركتُ أسرته، مع العلم أنني سأكون بمفردي في الجزء الأخير من رحلتي. ومع ذلك، لم أكن بمفردي تماماً، فقد كان لا يزال معي الدليل الذي كنتُ أتحدث عنه مع جمشيد في طاجيكستان.

ومع ذلك، أعدّ لي الله رفاقاً آخرين على طول الطريق، وهم أناسٌ التقيتُ بهم على متن الحافلة. دعاني رجلٌ أذريٌ اسمه واصف لقضاء الليلة في منزله. كان منزله يقع في إحدى مناطق شمال أذربيجان التي يحمل فيها العديد من السكان المحليين الجنسية اللزجينية، ولكن واصف كان يعتبر نفسه أذرياً.

عندما وصلنا إلى منزل واصف، كانت زوجته تجلس أمام نول نسيج وتنسج سجادةً تقليدية. لاحظتُ أن الشكل العام كان ثلاثة صلبان مرتبين في صفٍ واحد.

قدمني واصف إلى زوجته بصفتي سائحاً روحياً.

فسألتني قائلةً: «إذا كنتَ في سياحةٍ روحية، فإلى أين أنت ذاهبٌ؟»

فأجبتها: «إني أسيرُ على طريق رحلة إبراهيم الروحية.»

فاستفسرتْ قائلةً: «أين كان ذاهباً؟»

«في الأصل، كان إبراهيم يعيش في مدينةٍ ما فيما يُعرف الآن باسم العراق ولكن الله دعاه للانتقال إلى أرضٍ أخرى لا يكون له فيها مسكنٌ دائم، ولكنه بدلاً من ذلك كان يعيش في خيامٍ مثل الرُحّل. أما أنا فلا أعيش في خيمةٍ لأنكما تفضلتما عليَّ بضيافتي في منزلكما. ومع ذلك، كان إبراهيم يعيش بقلب السائح الروحي. فقد كان على استعدادٍ للغربة في هذا العالم لأنه كان يعلم أن الله لديه مسكنٌ أعظم بكثيرٍ معدّ له في السماء. مكتوبٌ في الكتاب المقدس:

«بِالإِيمَانِ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا دُعِيَ أَطَاعَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ عَتِيدًا أَنْ يَأْخُذَهُ مِيرَاثًا، فَخَرَجَ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ يَأْتِي. بِالإِيمَانِ تَغَرَّبَ فِي أَرْضِ الْمَوْعِدِ كَأَنَّهَا غَرِيبَةٌ، سَاكِنًا فِي خِيَامٍ مَعَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ الْوَارِثَيْنِ مَعَهُ لِهذَا الْمَوْعِدِ عَيْنِهِ. لأَنَّهُ كَانَ يَنْتَظِرُ الْمَدِينَةَ الَّتِي لَهَا الأَسَاسَاتُ، الَّتِي صَانِعُهَا وَبَارِئُهَا اللهُ.»٣٠٣

وإذ كان واصف محباً للاطلاّع تساءل قائلاً: «أين هذه المدينة التي صنعها الله؟»

فأوضحتُ له الأمر قائلاً: «كان إبراهيم يعلم أن رحلته الروحية لا تنتهي في هذه الحياة. فالوجهة النهائية للرحلة المقدسة هي السماء، أي مدينة الله. وهذا أيضاً المكان الحقيقي للرحلة الروحية بالنسبة لنا جميعاً. فالله يدعو كل واحدٍ منا كي يكون سائحاً روحياً في هذا العالم، لكن الرحلة الروحية الحقيقية للروح أصعب بكثيرٍ من الرحلة الجسدية إلى بلدٍ آخر. فرحلتنا الروحية تتطلب انضباط أذهاننا ومثابرة أرواحنا. يوصينا الله قائلاً: «اهْتَمُّوا بِمَا فَوْقُ لاَ بِمَا عَلَى الأَرْضِ.»٣٠٤ يريد الله أن يكون موقفنا من الدنيويات مثل موقف السائح الروحاني الذي يمرّ في طريقه إلى المدينة المقدسة. لا ينبغي أن ننشغل بالأمور الزمنية في هذا العالم التي تموت وتتلاشى. ولكن بدلاً من ذلك علينا أن نكون مثل السائحين الروحانيين في هذا العالم وأن نضع نصب عيوننا الحقائق الأبدية للمدينة التي يدعو الله إليها. هذا هو المعنى الحقيقي للسياحة الروحية.»

فقال واصف: «يسرنا للغاية الترحيب بسائحٍ روحاني مثلك في منزلنا!»

فقلتُ: «السلام لهذا المنزل.»

كان واصف وزوجته يتميزان بكرم الضيافة. كما لاحظتُ كيف كان واصف متديناً للغاية ويبذل الجهد للصلاة أثناء النهار في الأوقات المعتادة رغم أنه اعترف أنه كان في بعض الأحيان يفوّت بعض أوقات الصلاة.

فسألته: «هل تكلم الله معك من قبل أثناء الصلاة؟»

فاستغرب واصف من السؤال.

وقال لي: «لا، لماذا يتكلم مع شخصٍ مثلي؟ فأنا لستُ نبياً!»

نظرتُ إلى ابن واصف الصغير الذي كان يلعب في هدوءٍ على السجاد.

فسألته: «هل تحب أن يتكلم ابنك صادق معك؟»

«بالطبع! فأنا أحب الدردشة معه بخصوص الأشياء المهمة بالنسبة له. وكم يكون من الرائع أن يسألني أسئلة وأستطيع أن أوضح له الأمور.»

«ألا تعتقد أن الله يفكر بالطريقة نفسها بخصوص علاقتنا معه؟ فالله خلق البشر كي تكون لهم علاقة معه. في البداية، كان آدم وحواء يتمتعان بصداقةٍ وثيقة مع الله عندما كانا يسيران معاً ويتبادلان أطراف الحديث في الجنة، ولكن هذه العلاقة ضاعت للأسف بسبب الخطية. ومع ذلك، يريد الله من كلٍ منا قضاء الوقت في الحديث إليه والإصغاء له أيضاً.»

فاعترف واصف قائلاً: «لم يسبق لي التفكير في هذه المسألة من قبل على هذا النحو. ولكن كيف نسمع صوت الله؟ هل يتحدث بصوتٍ عال أم ماذا؟»

«يستطيع الله أن يكلمنا بمختلف الطرق. والأهم من ذلك كله من خلال الكتب المقدسة. فإذا قرأنا كتب الله المقدسة كلها، بما في ذلك التوراة، والمزامير، والإنجيل، يمكننا التعرف على صوت الله يتحدث إلى قلوبنا. إني أطلب من الله على الدوام أن يكلمني من خلال الكتب المقدسة كلما أبدأ في قراءتها. من الجيد قراءة جزء من الكتب المقدسة بصفة يومية، حتى لو كان أصحاحاً واحداً أو صفحةً واحدة.»

«بالطبع تكلم الله من خلال الأنبياء، وأعتقدُ أنه من المهم جداً قراءة ما قاله من خلالهم، ولكني كنتُ أظن أنك كنتَ تقصد الجانب الشخصي عندما سألتني إذا كان الله يتكلم معي.»

«نعم، كنتُ أقصد أيضاً الطرق التي يستطيع أن يكلمنا بها الله بصفةٍ مباشرة. ما الطرق الأخرى التي يمكن أن يكلمنا بها الله في رأيك؟»

«لستُ متأكداً. في بعض الأحيان، تحدث أشياءٌ في حياتي أعتقدُ أنها لا بدّ أن تكون من ترتيب الله، وهي أشياء لا يمكن أن تأتي بمجرد الصدفة.»

«ولكن الله يكلمنا أيضاً بطرقٍ أخرى.»

«مثل ماذا؟»

«هل شعرتَ يوماً بأن الله قريبٌ منك بصفةٍ خاصة؟»

«نعم، فأحياناً عندما أكونُ في حضن الطبيعة، وخصوصاً عندما أكونُ في الجبال، أنظرُ إلى النجوم في الليل فأشعرُ بعظمة الله ومهابته.»

«هذا رائعٌ. بالتأكيد الله يتكلم من خلال الطبيعة. فخليقته تشير لحقيقة الخالق الذي أبدع كل شيءٍ. هل تكلم معك الله بأي طريقةٍ أخرى؟»

«همم... هناك شيءٌ ما، ولكن من الصعب أن أشرحه.»

«هل يمكنك المحاولة؟»

«لم أخبر أي أحدٍ عن هذا من قبل، ولا حتى زوجتي، وذلك لأنني لا أفهم معناه حقاً. ومع ذلك، هناك حلمٌ ما يراودني باستمرارٍ أرى فيه نبياً يرتدي لباساً على الطراز القديم ولكن لباسه يلمع كالنور. ويبدو في الحلم أنه يومئ لي كما لو كان يريدني أن أتبعه.»

«هذا مثيرٌ للاهتمام جداً. بالتأكيد الله يكلمك من خلال أحلامك.»

«هذا النبي يبدو طيباً وكريماً للغاية، ولكني لا أعرف من هو.»

«ربما يمكن أن تساعدنا الكتب المقدسة. هل يمكنني أن أقرأ لك وصفاً لنبيٍ عظيم رآه رجلٌ آخر في رؤيا؟»

«نعم، من فضلك.»

فتحتُ الكتاب المقدس وبدأتُ القراءة:

«فَالْتَفَتُّ لأَنْظُرَ الصَّوْتَ الَّذِي تَكَلَّمَ مَعِي. وَلَمَّا الْتَفَتُّ رَأَيْتُ سَبْعَ مَنَايِرَ مِنْ ذَهَبٍ، وَفِي وَسْطِ السَّبْعِ الْمَنَايِرِ شِبْهُ ابْنِ إِنْسَانٍ، مُتَسَرْبِلاً بِثَوْبٍ إِلَى الرِّجْلَيْنِ، وَمُتَمَنْطِقًا عِنْدَ ثَدْيَيْهِ بِمِنْطَقَةٍ مِنْ ذَهَبٍ...»٣٠٥

فقاطعني واصف قائلاً: «نعم! كان النبي في الحلم مُتَمَنْطِقًا عِنْدَ ثَدْيَيْهِ بِمِنْطَقَةٍ مِنْ ذَهَبٍ! من هذا النبي؟»

فأجبته: «اسمح لي أن أقرأ فقرةً أخرى وتحقق من وجود تفاصيل أخرى تطابق ما رأيت: «وَأَمَّا رَأْسُهُ وَشَعْرُهُ فَأَبْيَضَانِ كَالصُّوفِ الأَبْيَضِ كَالثَّلْجِ، وَعَيْنَاهُ كَلَهِيبِ نَارٍ. وَرِجْلاَهُ شِبْهُ النُّحَاسِ النَّقِيِّ، كَأَنَّهُمَا مَحْمِيَّتَانِ فِي أَتُونٍ. وَصَوْتُهُ كَصَوْتِ مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ. وَمَعَهُ فِي يَدِهِ الْيُمْنَى سَبْعَةُ كَوَاكِبَ، وَسَيْفٌ مَاضٍ ذُو حَدَّيْنِ يَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ، وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ وَهِيَ تُضِيءُ فِي قُوَّتِهَا.»٣٠٦ ما رأيك في هذا الوصف؟»

«هذا الوصف مطابقٌ بالإجمال وخصوصاً ما يتعلق بلباسه الأبيض، باستثناء الفقرة التي تتحدث عن السيف الخارج من فمه.»

«أعتقدُ أن هذه الفقرة رمزية وليست حرفية، وهي تشير إلى كلمة الله. مكتوبٌ في موضعٍ آخر من الكتاب المقدس: «لأَنَّ كَلِمَةَ اللهِ حَيَّةٌ وَفَعَّالَةٌ وَأَمْضَى مِنْ كُلِّ سَيْفٍ ذِي حَدَّيْنِ، وَخَارِقَةٌ إِلَى مَفْرَقِ النَّفْسِ وَالرُّوحِ وَالْمَفَاصِلِ وَالْمِخَاخِ، وَمُمَيِّزَةٌ أَفْكَارَ الْقَلْبِ وَنِيَّاتِهِ. وَلَيْسَتْ خَلِيقَةٌ غَيْرَ ظَاهِرَةٍ قُدَّامَهُ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ عُرْيَانٌ وَمَكْشُوفٌ لِعَيْنَيْ ذلِكَ الَّذِي مَعَهُ أَمْرُنَا.»٣٠٧

«يمكنني أن أفهم أن السيف رمزٌ لكلمة الله، ولكن ما قرأته فيما بعد «كُلُّ شَيْءٍ عُرْيَانٌ وَمَكْشُوفٌ لِعَيْنَيْ ذلِكَ الَّذِي مَعَهُ أَمْرُنَا» يدعوني للتفكير العميق في عيني النبي الذي رأيته في حلمي. لا أستطيع أن أصف عينيه ولكن يبدو لي أنه كان يستطيع النفاذ إلى أعماق قلبي.»

«وكيف كان شعورك عندما تصوّرتَ أنه يستطيع النفاذ إلى أعماق قلبك؟»

«من الغريب أنني شعرتُ بالحب والقبول. كان الأمر يبدو وكأن هذا النبي يفهمني ويحبني رغم الرجاسة والظلام بداخلي.»

«ربما يقدم لك هذا مفتاح اللغز لمعرفة هذا النبي.»

«النبي الوحيد الذي سمعتُ أنه يحب الناس ويقبلهم بالفعل هو عيسى المسيح.»

«هل تعرف شيئاً آخر؟ مكتوبٌ عن عيسى المسيح أنه «لَمْ يَكُنْ مُحْتَاجًا أَنْ يَشْهَدَ أَحَدٌ عَنِ الإِنْسَانِ، لأَنَّهُ عَلِمَ مَا كَانَ فِي الإِنْسَانِ.»٣٠٨ أما الوصف الذي قرأته لك للتو من الإنجيل فكان يخص عيسى المسيح بعد أن عاد إلى السماء.»

فقال واصف: «دعني أخبرك شيئاً آخر. في حلمي كان يبدو أنني لا أسمع كلمات منطوقة ولكني كنتُ أشعر في قلبي أن الكلمات تُنقَل لي، وكأن النبي يقول لي: «أنا هو الطريق. اتبعني.»

«من المؤكد، يا واصف، أن عيسى المسيح يدعوك كي تتبعه. دعني أقرأ لك بعض الكلمات الأخرى التي قالها عيسى المسيح. قال: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي.»٣٠٩

«إذا كان عيسى المسيح يتكلم معي من خلال الأحلام، فماذا أفعل سوى أن أعمل ما يقول؟ إنه النبي الذي يعرف كل شيءٍ عني ولا يزال يحبني ويقبلني. فإذا كان يومئ إليَّ وكان هو الطريق، فبالتأكيد ينبغي عليَّ اتباعه.»

الفصل 17

جبل الله

في الفناء خارج منزل واصف، كان هناك خروفٌ مربوط في شجرة قبالة الباب الأمامي. وقد أوضح لي واصف أنهم اشتروه استعداداً للعيد الكبير الذي يذبحون فيه خروفاً ويتشاركون لحم الأضحية مع الجيران أو الفقراء.

«نعم، أليس هذا العيد هو ما يُسمى عيد القربان؟»

«هذا صحيحٌ. في اللغة الأذرية وغيرها من اللغات تُسميه عيد القربان، وكذلك يسميه التتار بنفس الاسم. أما في اللغة العربية فأعتقدُ أنهم يسمونه عيد الأضحى.»

«هل يمكنك أن تخبرني المزيد عن معنى هذا العيد؟»

«كل ما أعرفه هو أن إبراهيم كان على وشك تقديم ابنه كذبيحة. ومع ذلك، في اللحظة الأخيرة كلمه الله ألا يمدّ يده إلى ابنه لأن الله نفسه كان يقدم له بديلاً. وبعدها رفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كَبش ممسكاً في الغابة بقرنيه فأصعده مُحرقة عوضاً عن ابنه. ولهذا السبب نتذكر الآن هذا الحدث من خلال تقديم خروف كذبيحة.»

«من الواضح أنك تعرف الكتب المقدسة معرفةً جيدة. فلماذا تعتقد أن هذا الحدث مهمٌ جداً لدرجة أن ملايين الناس لا زالوا يحتفلون به بعد مرور آلاف السنين؟»

«أعتقدُ لأن الله لا يريد أضحيات بشرية مثلما كانت تفعل الشعوب الوثنية.»

«ربما تكون على حقٍ في هذه النقطة، ولكني أعتقد أن هناك معنى أعمق.»

«ما هو؟»

«الحقيقة المهمة هي أن الله قدم بديلاً. وهذا معناه أن ابن إبراهيم لم يكن عليه أن يموت. وهذه الحقيقة مهمة للغاية لكل واحدٍ منا لأننا جميعاً مثل ابن إبراهيم.»

«ما معنى أننا مثل ابن إبراهيم؟»

«هل تعرف أي شخصٍ لم يخطئ قط؟»

«لا، كلنا خطاة بشكلٍ أو بآخر.»

«بالضبط! ولكن الخطية تؤدي إلى الموت. عندما أخطأ الإنسان الأول، أي آدم، كان هذا معناه أنه أصبح فانياً وسوف يموت يوماً ما. مكتوبٌ في الكتاب المقدس «أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ».٣١٠ وهذا ليس معناه الموت الجسدي فقط بل أيضاً الانفصال الأبدي عن الله في الجحيم. ولهذا السبب فإن الموت مصيرنا كلنا، مثلما كان ابن ابراهيم على وشك أن يموت بينما قدّم الله بديلاً.

«ولكن من أو ماذا يمكن أن يكون بديلاً عن خطايانا؟ هل يمكن أن يمحو هذا الخروف خطيتي؟»

«إذا كان هذا الخروف يمكنه أن يمحو خطيتك، فلماذا تقدمه كأضحيةٍ في كل عام؟»

«لأنني أستمر في الخطية عاماً بعد عام!»

«كلنا نفعل هذا! ولهذا السبب لا يمكن أن يكون أي حيوانٍ أضحيةً كاملة كافية في كل زمانٍ. فالحيوان لا يمكنه أن يمحو خطية إنسان. ولا يستطيع أي إنسانٍ ناقص خاطئ أن يموت نيابةً عن إنسانٍ آخر لأن كل واحدٍ منا خاطئ. المياه القذرة لا يمكن أن تغسل الأوساخ: نحن بحاجة للمياه النظيفة!»

«أين يمكننا إذاً أن نجد أضحيةً طاهرة كاملة؟»

«الإنسان الذي هو بلا خطية يمكنه فقط أن يصبح أضحيةً طاهرة نيابةً عن الإنسان الشرير.»

«هل من الممكن أن تكون هذه الأضحية موجودة حتى؟ من يمكنه أن يكون بلا خطية؟ وحتى لو كان هناك إنسانٌ ما بلا خطية، فمن سيكون من شأنه أن يرتئي أن يصبح أضحيةً من أجل الآخرين؟»

«إنسانٌ واحد فقط كان بلا خطية، وهو عيسى المسيح. فعيسى المسيح هو الأضحية الكاملة لأنه هو الوحيد الذي كان بلا خطية. نحن بحاجة إلى أضحيةٍ حقيقية إلى الأبد! تقول الآية الكتابية التي نقلتها للتو إن أجرة الخطية هي موت، ولكن النصف الثاني منها يوّصل لنا رسالة رجاء: «وَأَمَّا هِبَةُ اللهِ فَهِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا.»٣١١

«هل الأمر هكذا؟ هل تعني أنه أصبح أضحيةً مثل الشاة لأن الإنسان الذي هو بلا خطية يمكنه وحده أن يمحو خطية إنسان قلبه ملوث مثلي أنا؟»

«بالضبط. ولكن علينا أن نطلب منه أن يمحو خطايانا. كان لإبراهيم حق الاختيار: إما أن يكمل طريقه ويمدّ يده إلى ابنه أو يقبل الأضحية التي قدمها له الله. وهذا معناه أن يحلّ ابنه ويأخذ الكبش كبديلٍ. ونحن أيضاً لنا حق الاختيار: إما أن

نحاول عمل الأشياء بطريقتنا الخاصة أو قبول العطية المجانية للحياة الأبدية التي يقدمها الله من خلال عيسى المسيح.»

«عطية مجانية؟ ألا تعتمد على الصالحات أو السيئات؟»

«إنها مجانية مثل الأضحية التي قدمها الله لإبراهيم.»

«هذا خبرٌ رائع! أود الحصول على هذه العطية المجانية.»

«كل ما عليك هو أن تطلبها من الله. أسأل الله أن يغفر ذنوبك وقل له إنك تريد الحصول على الأضحية الكاملة التي قدمها الله نفسه في عيسى المسيح.»

في موعد الإفطار صباح اليوم التالي سألني واصف سؤالاً آخر.

«بالأمس كنا نتناقش عن الأضحية التي قدمها الله. فأين كان هذا؟ سمعتُ أن هذا حدث فوق أحد الجبال في مكانٍ ما ولكن سمعتُ أيضاً أنه حدث في أورشليم (القدس). ما الصواب؟»

«تنصّ التوراة على أن هذا حدث على جبل في «أَرْض الْمُرِيَّا».٣١٢ ونحن نعرف مكان هذا الجبل لأن سليمان شرع في بناء بيت الرب في وقتٍ لاحق في «جَبَل الْمُرِيَّا».٣١٣ هل كنتَ تعرف أن سليمان بنى هيكلاً لله؟»

فأجاب واصف: «كنتُ أعتقد أنه كان في أورشليم.»

«هذا صحيحٌ! ولذلك فإن المكان الذي كان إبراهيم على وشك تقديم ابنه كذبيحةٍ وقدم له الله بديلاً كان في منطقة أورشليم. وفي هذا الموقع نفسه قدم الله أضحيةً أخرى. فالله سمح أن يجوز عيسى المسيح الموت كذبيحةٍ لنا في المكان ذاته الذي وفر فيه كبشاً كبديلٍ عن ابن إبراهيم.»

«في نفس المكان! وهكذا كما صار ابن إبراهيم طليقاً لأن الكبش مات مكانه، يمكننا أيضاً أن نخلص بفضل موت عيسى المسيح!»

«بالضبط! ولهذا السبب عندما رأى النبي يحيى عيسى المسيح قال عنه: «هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ!»٣١٤

فكر واصف في هذه الكلمات لفترةٍ من الوقت ثم قدّم تعليقاً عميقاً.

«هذا يعني أن جبل الْمُرِيَّا، أي أورشليم، كان جبل الخلاص. يبدو لي أننا كثيراً ما نفكر في جبل الناموس الذي أعطى عليه الله وصاياه لموسى النبي. ولكننا بالتأكيد بحاجة للتركيز أكثر على جبل الخلاص. فنحن نضحي بأغنامنا في كل عامٍ ولكننا لا نفهم ما نحن فاعلين.»

«كان هذا يحدث أيضاً في زمان عيسى المسيح! كان اليهود يقولون إن شعب السامرة لم يكونوا يسجدون لله على الجبل ‹الصحيح›. ولهذا قالت امرأةٌ سامرية لعيسى المسيح: «آبَاؤُنَا سَجَدُوا فِي هذَا الْجَبَلِ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ فِي أُورُشَلِيمَ الْمَوْضِعَ

الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ فِيهِ.»٣١٥ فكيف كان جواب عيسى المسيح على هذه المسألة في رأيك؟»

«لا أعرف. لو حدثت هذه المسألة هنا في الشرق الأوسط لتطورت إلى نزاعٍ في اعتقادي!»

«كان عيسى المسيح يرى أن المهم ليس ما نعمله أو أين نعمله، وإنما موقف قلوبنا. فالله ينظر إلى القلب. ولهذا أجابها عيسى المسيح: «يَا امْرَأَةُ، صَدِّقِينِي أَنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ، لاَ فِي هذَا الْجَبَلِ، وَلاَ فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلآبِ.»٣١٦ كان عيسى المسيح يعتبر أن مكان السجود ليس مسألةً مهمة.»

فتساءل واصف: «ما هو المهم إذاً؟»

«كشف عيسى المسيح عن الحقيقة الأكثر أهمية قائلاً: «وَلكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ، وَهِيَ الآنَ، حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ، لأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هؤُلاَءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. اَللهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا.»٣١٧

فكر واصف في هذه الكلمات ثم قال: «هل تقصد أن السجود الحقيقي لله ليس مسألة قواعد بخصوص الأمور المادية مثل المكان المناسب للسجود؟ هل تقصد أنها مسألة متعلقة بالقلب، أي ما إذا كان قلب المرء مكرساً أو خاضعاً بالكامل لطرق الله؟ المسألة مسألة علاقة وليست مجموعة من القواعد.»

في المساء، بعد يومٍ حافل، تجمعنا حول المدفأة ثم بدأ واصف يطرح المزيد من الأسئلة.

«إذا كان جبل الْمُرِيَّا في إسرائيل هو جبل الخلاص، فلماذا أعطى الله وصاياه لموسى النبي على جبل سيناء؟»

كنتُ أنظر إلى الطفل صادق الذي كان يلعب بالقرب من المدفأة.

«كم مرة قلتَ لصادق ألا يلمس النار أو يلعب بها؟»

فأجابني واصف: «مرات كثيرة! في المعتاد يكون في المكان المناسب ولكنه في بعض المرات كان يقترب للغاية من النار.»

«ربما يكون هذا هو الجواب على سؤالك. الله يحبنا مثلما تحب أنت صادق، ولكن لهذا السبب تعطي صادق قواعد مفيدة حتى لا يضر نفسه. على جبل سيناء أعطى الله نواميسه الخاصة لموسى النبي، وأشهرها الوصايا العشر. تحثنا هذه الوصايا على إكرام الله وكيفية احترام الآخرين والحياة الأسرية والممتلكات. وعلى جبل سيناء أعطى الله موسى النبي العديد من النواميس الأخرى. ومع ذلك، لخص عيسى المسيح جوهر هذه النواميس عندما سُئِلَ عن أعظم الوصايا. «إِنَّ أَوَّلَ كُلِّ

الْوَصَايَا هِيَ: اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ. الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. وَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ. هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى. وَثَانِيَةٌ مِثْلُهَا هِيَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. لَيْسَ وَصِيَّةٌ أُخْرَى أَعْظَمَ مِنْ هَاتَيْنِ».٣١٨

فعلّق واصف: «هذا ما قلته هذا الصباح. فالأهم هو العلاقة مع الله.»

«أنت على حقٍ، يا واصف. هذا يشبه العلاقات داخل الأسرة: بين الآباء والأبناء، أو حتى بين الزوج والزوجة. ولهذا السبب تتحدث الكتب المقدسة أحياناً عن علاقتنا مع الله كعلاقة العروس في انتظار العريس. يبدو الأمر أن الله سدّد المهر في اسم عيسى المسيح أما الآن فإن الله يعدّ العروس لتكون معه إلى الأبد. الهدف النهائي لخطة الله هي الجماعة. هذه الجماعة هي «الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ أُورُشَلِيمَ الْجَدِيدَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُهَيَّأَةً كَعَرُوسٍ مُزَيَّنَةٍ لِرَجُلِهَا.»٣١٩

«هل تقصد أن الجبل الذي قدم عليه إبراهيم ذبيحته والجبل الذي مات عليه عيسى المسيح من أجل خطايانا ليس هو النهاية بل البداية؟»

«أعتقدُ أنه يمكنك التعبير عن هذا بهذه الطريقة. نعم، فالمكان النهائي للخلاص، أي المدينة السماوية، هو جماعة الشعب الذين يعرفون الله ويعرفهم الله.»

«هل هذا هو المكان الذي تقصده في سياحتك الروحية؟»

«بشكلٍ ما، نعم، ولكننا مدعوون جميعاً للذهاب في سياحةٍ روحية إلى المدينة الأبدية.»

«ألم تقل لي أيضاً إنك كنتَ في طريقك إلى الجبل المقدس؟ كنتُ أعتقد أنك تعني أحد جبال القوقاز هنا.»

«في الواقع، هناك جبلٌ مقدس في مكانٍ ما هنا ولكني غير متأكدٍ بخصوصه.»

«ماذا تعني؟»

«مع نهاية الطوفان العظيم، استقر الفلك الذي كان يحمل نوح وعائلته على أحد الجبال في مكانٍ ما في هذا الجزء من العالم.»

«أعتقدُ أن هذا جبل أَرَارَاط الذي يقع الآن على الحدود الشرقية لتركيا.»

«كثيرٌ من الناس يعتقدون ذلك، وربما يكون هو هذا الجبل. ومع ذلك، تقول التوراة إن الفلك الكبير استقر على «جِبَالِ أَرَارَاط».٣٢٠

«هل قلتَ «جبال» بالجمع وليس «جبل»؟ إني أعرف مكان جبل أَرَارَاط، ولكن أين تقع «جبال أَرَارَاط»؟

«ربما ليست بعيدة عنا الآن! فتحتُ كتابي المقدس وقرأتُ من أحد الأسفار التي تسرد الأحداث التاريخية قصة موت الملك الآشوري سنحاريب في القرن الثامن قبل الميلاد. مكتوبٌ: «ضَرَبَهُ أَدْرَمَّلَكُ وَشَرَآصَرُ ابْنَاهُ بِالسَّيْفِ، وَنَجَوَا إِلَى أَرْضِ

أَرَارَاط.»٣٢١ ثم شرحتُ لواصف قائلاً: «لم يكن العبرانيون يطلقون اسم «أَرَارَاط» على مجرد جبلٍ فقط، ولكنه كان أيضاً مصطلحاً سياسياً لمملكة كان اسمها في السجلات الآشورية أورارتو. كما يشير النبي إرمياء إلى مملكة أَرَارَاط التي كانت جبارة لدرجة أنها تسبّبت في تدمير مدينة بابل.»٣٢٢

فقال واصف: «لقد سمعتُ عن أورارتو. كانت تقع في هذا الجزء من القوقاز، رغم أنني كنتُ أعتقد أنها واقعة في المنطقة التي يقع بها جبل أَرَارَاط في الوقت الحاضر.»

«المشكلة هي أن الطوفان العظيم حدث قبل النبي إرمياء بفترةٍ طويلة، وبالتالي ربما لم تكن حدود أورارتو في أيامه مثلما كان يُعرف باسم «جبال أَرَارَاط» في أيام نوح. في القرن التاسع قبل الميلاد توسعت مملكة أورارتو القديمة شمالاً إلى منطقة القوقاز، ولكن نوح كان يعيش قبل ذلك بفترةٍ طويلة. لا تقدم لنا التوراة النطق الدقيق للمنطقة التي استقر فيها فلك نوح، لأن اللغة العبرية القديمة (مثل اللغة العربية) لم تستخدم حروف العلة بل الحروف الساكنة فقط. تقول التوراة إن اسم المنطقة في العبرية هو «rrt» وهو ما يمكن أن يكون صيغةً أخرى لكلمة «أَرَارَاط» أو لكلمة «أورارتو». تستخدم ملحمة جلجامش (وهي ملحمة سومرية قديمة تسرد أيضاً قصة الطوفان العظيم) نفس الحروف الساكنة «rrt» للإشارة إلى الجبال الموصوفة بأنها مسكن الآلهة.٣٢٣ ولذلك لا يمكن أن نكون على يقينٍ تام بأن الفلك قد استقر على ما يُسمى في الوقت الحاضر بجبل أَرَارَاط، ولكن ربما حدث هذا في مكانٍ ما في هذا الجزء من العالم.»

«ولكن جبل أَرَارَاط هو بالتأكيد أكبر الجبال وأكثرها إثارةً للإعجاب هنا. ولذلك من المرجح أن يكون هذا قد حدث على هذا الجبل على أي حالٍ! فالاسم معناه الاستقرار الأصلي أو مكان النزول حيث استقر نوح وعائلته أولاً عند خروجهم من الفلك.»٣٢٤

«إذا كان هذا صحيحاً، فهذا معناه أن النبي عاش في إحدى مناطق أذربيجان اليوم!»

«لم أفكر في الأمر على هذا النحو من قبل!»

«غالباً ما نعتقد أن نوح كان بطلاً عظيماً ولكن التوراة واقعية حتى في سردها عن رجال الله العظماء وتذكر أيضاً بعض نقائصهم. فالكثير من الناس لا يعرفون أن نوح شرب من الخمر وسَكِرَ!»٣٢٥

«هل تظن أنه كان أول من زرع كروم العنب في جورجيا؟»

«ربما. ففي المنطقة المحيطة هنا، جورجيا هي المنطقة الأكثر شهرة لإنتاج النبيذ. ورغم أن الكلمات التي تقابل كلمة «نبيذ» في العديد من اللغات تستند إلى

الكلمة اللاتينية vinum أو اليونانية oinos، أخبرني أحد الأشخاص في جورجيا أن بعض الدارسين يرون أن الرومان والإغريق استمدوا المقابل اللاتيني واليوناني لكلمة «النبيذ» من الكلمة الجورجية ğvino. علاوةً على ذلك، «تشير الأدلة الأثرية أن أقدم إنتاج للنبيذ، عن طريق تخمير العنب، حدث في إسرائيل وجورجيا وإيران.»»[٣٢٦]

«إذا كان نوح قد عاش أيضاً في جورجيا، فربما استقر فلكه في جبال شمال القوقاز بدلاً مما نسميه اليوم جبل أَرَارَاط؟»

«ربما، ولكن هذا مجرد تخمين. قد يكون من المستحيل في الوقت الحاضر أن نعرف هذا على وجه اليقين. ومع ذلك، ليس المهم موقع الجبل ولكن أهميته الروحية. وهذا ما كنا نناقشه في الصباح.»

«ما الأهمية الروحية للجبل الذي استقر عليه فلك نوح؟»

«لقد كان بدايةٌ جديدة. فرغم أن العالم القديم دمره الطوفان العظيم، أنقذ الله ما يكفي من الناس والحيوانات للبداية من جديد.»

«لم أفكر في الأمر على هذا النحو من قبل: أن جبل نوح كان جبل البدايات الجديدة. إذاً هناك جبل الناموس في شبه الجزيرة العربية: وهو جبل سيناء أو جبل موسى.[٣٢٧] وإلى الشمال هناك جبل الخلاص في إسرائيل، وفي أورشليم تحديداً: وهو جبل إبراهيم أو جبل عيسى المسيح. ومع ذلك، إلى الشمال أيضاً، هنا في منطقة القوقاز، لدينا جبل نوح، أي جبل البدايات الجديدة!»

فأشرتُ قائلاً: «لم أفكر في الأمر على هذا النحو من قبل أيضاً!»

فتحمس واصف إزاء سلسلة الأفكار الجديدة التي راودته وقال: «في عالمنا المعاصر يقول كثيرون إننا بحاجة للتركيز على جبل الناموس. ويقول آخرون إنه يتعين علينا التركيز على جبل الخلاص. ربما حان الوقت بالنسبة لنا جميعاً لخوض بداية جديدة في علاقاتنا مع بعضنا البعض ومع الله. ففي حياتنا الروحية نكون جميعاً بحاجة للانطلاق في سياحةٍ روحية، على نحوٍ تصويري، إلى جبل البدايات الجديدة.»

«أعتقدُ أنك على حقٍ، يا واصف. فكلٌ منا بحاجة لخوض بداية جديدة في الحياة. ولكن المشكلة هي أننا لا نستطيع تغيير أنفسنا من الداخل. فالقوة الخارجية، أي قوة الله نفسه، تستطيع وحدها أن تهيئ لنا بدايةً جديدة.»

فكر واصف للحظات حول هذا الموضوع. يبدو أنه كان متحمساً لفكرة جبل البدايات الجديدة ولكنه بدأ يتساءل كيف يمكن أن تتحقق البداية الجديدة من الناحية العملية. وأخيراً سألني: «كيف يمكن أن يهيئ لنا الله بدايةً جديدة؟ كيف يمكن أن يغيرنا الله من الداخل؟ ما الذي ينطوي عليه هذا؟»

رداً على سؤاله، نقلتُ له كلمات عيسى المسيح الذي قال: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللهِ.»٣٢٨

فتساءل واصف: «كيف يمكن أن يولد المرء من فوق؟»

«لم يكن الزعيم الديني الذي قال له عيسى المسيح هذه الكلمات يفهم ما يقصده عيسى المسيح أيضاً! وسأل عيسى المسيح: «كَيْفَ يُمْكِنُ الإِنْسَانَ أَنْ يُولَدَ وَهُوَ شَيْخٌ؟»٣٢٩ فأجابه: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ. اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ، وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ.»٣٣٠

«هل تقصد الآية القرآنية التي تصف كيف وُلِدَ عيسى المسيح من عذراءٍ اصطفاها الله على نساء العالمين؟٣٣١ أم أن هذه علاقة جديدة مع الله يمكن أن يختبرها كل واحدٍ منا؟ كيف يمكن أن نولد من الروح، أي من فوق؟»

«هذه عطيةٌ ممنوحة لنا جميعاً، أو على الأقل لجميع الراغبين في قبولها. صحيحٌ أن عيسى المسيح وُلِدَ بالجسد ولادةً خاصة وفريدة من نوعها. فالملاك الذي بشر مريم العذراء أم عيسى المسيح بهذا الخبر أوضح لها كيف يكون هذا. قال لها: «اَلرُّوحُ الْقُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكِ، وَقُوَّةُ الْعَلِيِّ تُظَلِّلُكِ.»٣٣٢ وبهذه الطريقة، كان عيسى المسيح يتمتع بعلاقةٍ خاصة مع الله. ومع ذلك، قال عيسى المسيح أيضاً إن كل واحدٍ منا يحتاج أن يولد من فوق في أرواحنا من أجل دخول ملكوت الله. المولود من الروح هو روح.»

فسأل واصف: «من هو هذا الروح؟»

«إنه روح الله القدوس. إنه الروح الذي كان يعمل في خلق الكون.٣٣٣ إذا قبلنا الآن روح الله القدوس في حياتنا، يمكننا أن نصبح خليقةً جديدة وكأننا نولد من فوق. إنه يمنحنا ميزةً جديدة في علاقتنا مع الله. مكتوبٌ أنه عندما نقبل عيسى المسيح يمكننا أيضاً قبول روح الله القدوس كي يعيش فينا ويجعلنا على علاقةٍ خاصة مع الله، مثل علاقة الأباء والأبناء. يقول الكتاب المقدس: «وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللهِ، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ. اَلَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُل، بَلْ مِنَ اللهِ.»٣٣٤

فقال واصف: «إني أريدُ أن أصبح ابناً لله. أريدُ أن أقبل الروح القدس هذا.»

«في هذه الحالة، كل ما عليك هو أن تتحدث إلى الله بطريقتك الخاصة وتطلب منه أن يجدّد روحك. يمكنك أن ترفع هذه الصلاة:

«أيها الله القدوس، أريد أن أبدأ من جديدٍ في حياتي الروحية. أدركُ أنني كنتُ أحاول عمل الأشياء بطريقتي الخاصة فتزداد حماقاتي. أريدك أن تتولى أمري وتجعلني أحد أبنائك حتى أستطيع أن أسمع ما تقول وبهذه الطريقة أعيش حياتي

حسب خطتك، وليس بطريقتي الخاصة. سامحني على جميع أخطائي. أشكرك لأن عيسى المسيح مات عني كذبيحةٍ كاملة مقدسة. ومثل ابراهيم الذي قَبِلَ الكبش الذي قدمته له، فإني أقبل البديل الذي قدمته لي كذبيحةٍ عن خطيتي. إني قادمٌ الآن إلى مكان البدايات الجديدة. كنتُ أحاول أن أعيش فقط حسب نظام جبل الناموس أما الآن فأريد أيضاً قبول ما تمنحه على جبل الخلاص. أرسل روحك القدوس كي يطهرني من الداخل ويعطيني بدايةً جديدة في حياتي.»

٢١ :١ ىتم :ليجنلإا ١

:رظنا ٢
http://www.china.org.cn/english/kuaixun/74860.htm
http://en.wikipedia.org/wiki/Mogao_Caves; http://www.chinamuseums.com/dunhuang_mogao.htm; http://en.wikipedia.org/wiki/Buddhas_of_Bamyan; http://weekly.ahram.org.eg/2001/565/11wa1.htm
(تم الدخول إلى المواقع في ٤ إبريل ٢٠٠٩)

ناتسناغفأ يف ةيذوبلا نع ةيخيراتَ ةيفلخ ٣
http://www.4ui.com/eart/144eart1.htm; see also http://www.britannica.com/EBchecked/topic/83184/Buddhism/68669/Central-Asia-and-China
(٢٠٠٩ ليربإ ٤ تم الدخول إلى الموقعين في)

ناك يذلا يدوهيلا عيباسلأا ديع يف حاحصلأا اذه ثادحأ ترج .٩ :٢ لسرلا لامعأ :ليجنلإا ٤ ماق هنكل حيسملا ىسيع بَلِصُ ليلقب حصفلا ديع لبقو .حصفلا ديع نم عيباسأ ةعبس دعب هب لفتحيُ ،ةعساشلا اهتعقرب ايثراب ةنيدمل ةطيرخ ىلع روثعلل .ديعلا اذه دعب تاوملأا نيب نم ىرخا ةَّرم ١٦ تم الدخول إلى الموقع في)، http://www.parthia.com/map_extent.htm رظنا نيلوسرلا نأب ديفت ةميدق ديلاقت اًضيأ كانه» ،ليجنلإا نم ةلدلأا هذه بناج ىلإ .(٢٠٠٩ ربمتبس كلذ يف امب ،ةيسرافلا ةيروطاربملإا يف ةميقملا ةميدقلا بوعشلا فلتخم يف ارشب سوارادنأو اموت نيينايدقوسلاو ،نييثيكسلاو ،نييريتكابلا لثم ىطسولا ايسآ يف شيعت تناك يتلا بوعشلا ضعب (كرام زنكيد: ةيحيسملا ةيروطسنلا يف آسيا الوسطى)، http://www.oxuscom.com/Nestorian_Christianity_in_CA.pdf (١ ةحفص ،٢٠٠٩ ربمتبس).

ةحفص ،http://www.visions.az/history ،ةيزاقوقلا اينابلأ يف ةيحيسملا ،افوديمام ةديرف ٥ (٢٠١١ ليربإ) ١٥٠

نم :نويراساباتلا :فـوزيزع ديشر] Рашид Азизов Табасаранцы: кто они? ٦ ١٠ ةحفص (٢٠٠٢ ،ناماز رشنرا د :نازاك) [؟هم

Udins Today ةلجم ،فيشنانوك باروز ٧
http://azer.com/aiweb/categories/magazine/ai113_folder/113_articles/113_udins_konanchev.html
(٢٠١١ ليربإ ٢٢ تم الدخول إلى الموقع في)

ىرخأ نكامأ يف ةيحيسملا ،٨ لصفلا ،بيليف .ف .ت ،ايسآ يف ةركبملا ةيحيسملا :تارافلا قرش ٨ ؛(٢٠٠٩ ربمتبس ١٦ تم الدخول إلى الموقع في) ،ايسآ يف

http://www.newworldencyclopedia.org/entry/Nestorian_Christianity
تم الدخول إلى الموقع في **١٩ سبتمبر ٢٠٠٩)؛)**
http://www.touchstonemag.com/archives/article.php?id=20-03-030-f
ايسآ يفةيروطسنلا ةيحيسملا :زنكيد كرام ؛(٢٠٠٩ ربمتبس ١٩ تم الدخول إلى الموقع في)
ىطسولا
(http://www.oxuscom.com/Nestorian_Christianity_in_CA.pdf
(٢٠٠٩ ربمتبس ١٩ تم الدخول إلى الموقع في) ٦ – ١ ةحفص

٩ Манарбек Байеке История Христианства в Центральной Азии и в Казахстане
١٣١ ةحفص ،(٢٠٠٩ ،يتاملأ) [ناتسخازاكو ىطسولا ايسآ يفةيحيسملا خيراتـ :يكيابـ كبرانام]

ىطسولا ايسآ يفةيروطسنلا ةيحيسملا :زنكيد كرام ١٠
٥ ةحفص ،http://www.oxuscom.com/Nestorian_Christianity_in_CA.pdf
(٢٠٠٩ ربمتبس ١٩ تم الدخول إلى الموقع في)

١١
http://en.wikipedia.org/wiki/Sogdiana
http://east-asian-history.suite101.com/article.cfm/the_sogdians
(تم الدخول إلى الموقعين في ١٩ سبتمبر ٢٠٠٩)

ىطسولا ايسآ يفةيروطسنلا ةيحيسملا :زنكيد كرام ١٢
http://www.oxuscom.com/Nestorian_Christianity_in_CA.pdf
(صفحة ٥ (تم الدخول إلى الموقع في ١٩ سبتمبر ٢٠٠٩

– ٤٧ ةحفص ،(٢٠٠٠ ،كرانوم رشنـ راد :ندنلـ) Steppe by Step ،بميكـ .ب ويهـ ١٣
ىطسولا ايسآ يفةيروطسنلا ةيحيسملا :زنكيد كرام ؛١١٨
٨ ةحفص ،http://www.oxuscom.com/Nestorian_Christianity_in_CA.pdf
(٢٠٠٩ ربمتبس ١٩ تم الدخول إلى الموقع في) ١٠ –

نييلوغنملا نيبـ ةيحيسملا ١٤
تم الدخول) http://en.wikipedia.org/wiki/Christianity_among_the_Mongols
(٢٠٠٩ ربمتبس ٩ إلى الموقع في

ىطسولا ايسآ يفةيروطسنلا ةيحيسملا :زنكيد كرام ١٥ ،http://www.oxuscom.com/
٢٢ تم الدخول إلى الموقع في) ١٤ – ١٢ ةحفص ،Nestorian_Christianity_in_CA.pdf
(٢٠١١ ليربإ

١٦ Манарбек Байеке История Христианства в Центральной Азии и в Казахстане [ناتسخازاكو ىطسولا ايسآ يفةيحيسملا خيراتـ :يكيابـ كبرانام] ،يتاملأ)

http://www.oxuscom.com/Nestorian_Christianity_in_CA.pdf- ؛(٢٠٠٩، ص٣٠٤ – ٣٠٠) زنكيد كرام: ةيحيسملا ةيروطسنلا يطسولا ايسآ يف ةحفصلا تاقيلعتلا عم http://www.oxuscom.com/graves.htm (في الموقع إلى الدخول تم ٢٢ ليربإ ٢٠١١) ؛ةحفصلا ،صنلا ىلع تاعجارملا ؛(في الموقع إلى الدخول تم ٤ ربمتبس ٢٠٠٩) http://www.archive.org/stream/MN41565ucmf_1/MN41565ucmf_1_djvu.txt (في الموقع إلى الدخول تم ٤ ربمتبس ٢٠٠٩).

١٧ ظنا روصقلا ةيحيسملا ةعومجملا ىلع ربقلا دهاشم http://en.wikipedia.org/wiki/Christianity_among_the_Mongols (في الموقع إلى الدخول تم ٩ ربمتبس ٢٠٠٩).

١٨ موسرلا ةدوجوملا ةينفلا لامعلأا هذه ىلع ةدوجوملا ةينفلا ةيكابكرانام باتك يف ناونعب
История Христианства в Центральной Азии и в Казахстане [تاريخ ةيحيسملا ايسآ يف يطسولا ناتسخازاكو] (تاملأ، ٢٠٠٩)، ةحفصلا ١٣٤، ١٧٣، ١٧٨، ٢٩١.

١٩ Манарбек Байеке История Христианства в Центральной Азии и в Казахстане، [ناتسخازاكو يطسولا ايسآ يف ةيحيسملا تاريخ: يكيابكرانام تاملأ، ٢٠٠٩)، ةحفصلا ،افوديمام ةديرف ؛ةيحيسملا يف اينابلأ ةقيزاقوقلا ،ةيحيسملا ةيقرشلا ناهلا يف روبقلا دهاوش يف ةيحيسملا تامصتلا ،http://www.visions.az/history) Рашид Азизов Традиционная духовная культура Табасарана XIX-XX вв. [ةيديلقتلا ةفاقثلا: فوزيزع ديشر ةعلق جحم) [نيبراساباتلا ىدل ةيحورلا ،٢٠٠٧) ١٥٠ (في الموقع إلى الدخول تم ٢٢ ليربإ ٢٠١١)

٢٠ http://www.crc-internet.org/CCR/2009/77-Saint-Thomas_China.php (في الموقع إلى الدخول تم ٦ ونيوي ٢٠١١)

٢١ http://www.christianityinchina.org/Common/Admin/showNews_auto.jsp?Nid=304؛ http://www.chinaartnetworks.com/news/show_news.php?id=1369 (في الموقع إلى الدخول تم ٢٠ ليربإ ٢٠١١)

٢٢ ةيحيسملا ةيروطسنلا يف ةللاسلا غناتا، http://www.orthodox.cn/localchurch/jingjiao/nest1.htm؛ http://ricci.rt.usfca.edu/hist3.html (في الموقع إلى الدخول تم ٢٠ ليربإ ٢٠١١)

٢٣ يف كلذ كتقولا كتناك ةيدملا كتناك ةمصاعلا كتناكو نآغناشتي مستة ةنيدملا كتناك ةللاسلا غناتا .ةحولا ةيؤر نكمي ةيروطسنلا ةيراكذتلا يف ةفرغلا يف ٢ مقر فحتم نم «تلاسملا ةباغ» يف ناينشي http://www.absoluteastronomy.com/topics/Nestorian_Stele#encyclopedia، ديزملا نم ةلوعملا تامولعملا ظنا رظنأ:
http://www.aina.org/articles/dasotns.pdf; http://www.cf.ac.uk/clarc/projects/chinesenestorian/index.html; http://www.statemaster.com/

encyclopedia/Nestorianism-in-China; http://www.usfca.edu/ricci/christianity/index.htm; http://wapedia.mobi/en/Nestorian_Stele; http://www.reference.com/browse/wiki/Nestorian_Stele; http://www.statemaster.com/encyclopedia/Nestorian-Stele; http://en.wikipedia.org/wiki/Nestorian_Stele
(٢٠٠٩ ربمتبسد ١٩ تم الدخول إلى المواقع في)

٢٤ http://www.crystalinks.com/chinacaves.html
http://en.wikipedia.org/wiki/Dunhuang
(٢٠١١ لـيربإ ٢٠ تم الدخول إلى الموقعين في)

٢٥ ،س،اكوف نـايتسيركـ رشذ راد :ادنلتكسا ،نـريف) دقتعت امم ربكأ ةسينكلا ،نـوتسنوج كـيرتاب ن،ابايلا تـلصو ةيحيسملا نأ مسلاا سفذ لـمحيـ يذلا ةنباو فـيزوج يـنيك نـمؤيـ .٧٣ ةحفصـ ،(١٩٩٨ [نـوهيذ -يـنوكـ وذ اكيجوج] امهباتكـ يـفـ ةينابايلا ةغللابـ ةلدلأا نـامدقيو :ةرتفلا سفذ يـفـ أضيأ
(٢٠٠٠ ،نـيتوش اموكوت :ويكوط)

٢٦ قـرشلا يـفـ ماع فـلأ ةدملـ يـبهذلا ةسينكلا رصعـ :دوقفملا ةيحيسملا خيراتـ :زنيكنيجـ بـيليفـ
:دوقفملا ةيحيسملا خيراتـ ؛(٢٠٠٨ ،نـاو ربراهـ رشذ راد) ىـهتنا فـيكو ايسآو ايقيرفإو طسولأا
.ف .ت ؛http://www.aina.org/ata/20090429174105.htm ةلمهـ ةقلحـ ةداعتسا
بـيليفـ :قـرشـ ةـرافلا :ةيحيسملا ةيـركـبملا ةـيـفـ ايسآ http://www.religion-online.org/showchapter.asp?title=1553&C=1368
(٢٠٠٩ ربمتبسد ٤ تم الدخول إلى المواقع في)

٢٧ Рашид Азизов Традиционная духовная культура Табасарана [فـوزيزعـ ديشر :ةفاقثلا ةديلقتلا ةيحورلا ةيدلـ ىـدلـ ةيـراساباتلا نـينرقلا يـفـ نـيبـ ةعاتلا XIX-XX вв. نـيرشعلاو رشعـ] (٢٠٠٧ ،ةعلقـ جحم) ،١٢٠ ةحفصـ

٢٨ ةغيصبـ دّريـ Halah ةغيصبـ ةيزيلجنلإا ةغللا ىـلإ مجرتملا مسلاا] ١٢٣ ةحفصـ ،قـباسـ عـجرمـ
ىـلـعـ فـوزيزعـ ديشر قـلطيـ .سـدقملا بـاتكـلا نـمـ Synodal ةيسورلا ةخسنلا يـفـ Khalakh
Khalag] يـراساباتلا مسلاا ةيوستلا

٢٩
http://www.bethelcog.org/church/the-origin-of-our-western-heritage/the-captivity-and-deportation-of-israel; http://en.wikipedia.org/wiki/Assyrian_captivity_of_Israel; http://www.ucgstp.org/lit/booklets/usbbp/ch٣nkingdom.html; http://www.ucg.org/booklets/US/northernkingdom.asp
(٢٠٠٩ ربمتبسد ١٠ تم الدخول إلى المواقع في)

٣٠ ديشر امهسبتقيـ ردامصلـ أقفوـ كـلذو ،أضيأ ةيدوهيـ روذجـ هـلـ يـراساباتلا نـاتسغادـ بـعشـ نـأ دقتعيُ

(٢٠٠٢، ناماز رشنراد :نازاك)) ؟مهنم :نويراساباتلا هبيتكنم ٧ – ٦ يتحفصفوزيزع
رظنا Рашид Азизов Табасаранцы: кто они? (Казань: Издательство «Заман» (يقتبس ٢٠٠٢ Г.-Э. Авкарди Ассари Дагестан (Махачкала، ١٩٢٩ Очерк Кайтаго-Табасаранского округа (Кавказ، ومؤلف كتاب ١٨٦٧، رقم ٧)

٣١ Манарбек Байеке История Христианства в Центральной Азии и в Казахстане [ناتسخازاكو ىطسولا ايسآ يفةيحيسملا خيراتـ :يكيابكبرانام، ٣٤؛ – ٣٣ ةحفص، (٢٠٠٩
http://www.britannica.com/EBchecked/topic/٥٣٠٣٦١/Scythian; http://en.wikipedia.org/wiki/Scythians; http://en.wikipedia.org/wiki/Sakas; http://www.livius.org/sao-sd/scythians/scythians.html
(٢٠١١ ليربإ ٢٢ تم الدخول إلى المواقع في)

٣٢
http://en.wikipedia.org/wiki/Khazars#Khazar_religion; http://www.khazaria.com/khazar-history.html; http://www.doingzionism.org.il/resources/view.asp?id=140; Paul Meerts Assessing Khazaria (I.I.A.S. Newsletter, number ٣٤, July ٢٠٠٤) http://www.iias.nl/nl/34/IIAS_NL34_15.pdf
(٢٠٠٩ ربمتبس ٢٢ تم الدخول إلى المواقع في)

٣٣
http://en.wikipedia.org/wiki/Khazars#Khazar_religion; http://www.khazaria.com/khazar-history.html;
Paul Meerts Assessing Khazaria (I.I.A.S. Newsletter, number ٣٤, July ٢٠٠٤) http://www.iias.nl/nl/34/IIAS_NL34_15.pdf
(٢٠٠٩ ربمتبس ٢٣ تم الدخول إلى المواقع في)

٣٤ ةاروتلا :جورخلا ٣: ٦

٣٥

http://en.wikipedia.org/wiki/Nasreddin;
http://www.allaboutturkey.com/nasreddin.htm
(٢٠٠٩ ربمتبس ٥ تم الدخول إلى الموقعين في)

٣٦
http://en.wikipedia.org/wiki/Nasreddin
.ـه .و ،ندنلا) نويفوصلا :هاشسيردإ سابتقا عم، (٢٠٠٩ ربمتبس ٥ تم الدخول إلى الموقع في)

(١٩٦٤، نيلأ

٣٨ :١٨ اقول :ليجنلإا ٣٧

٤١ :١٨ اقول :ليجنلإا ٣٨

٣ :٨ ةينثتلا :ةاروتلا ٣٩

٤ :٤ اقول ؛٤٤ :٤ ىتم :ليجنلإا ٤٠

http://etext.virginia.edu/toc/modeng/public/HolKora.html نآرقلل ركاش .ـه .م ةمجرت نع ةسبتقم ،٩٤ :(سنوي) ١٠ ةروس نآرقلا ٤١ (تم الدخول إلى الموقع في ١٧ رياني ٢٠٠٩). [ناك يلع يفرعي نأ ةيلآا ةدوجوم هنكل مل عطتسي نأ اهولتي ةملك ةًملك كلذلو ةدمتُ اهنا ةدراو يف ليجنلإا ريمازملاو ةاروتلا نم ةعونتم تاسابتقا كاناه ،ةقيرطلا سفنب .لماكلا صنلا اهتغيصب ةلماكلا.]

٢ :٣ سوثنروك ٢ :ليجنلإا ٤٢

٤٣非常好，非常好

٧ :٩ سوثنروك ٢ :ليجنلإا ٤٤

٤٤ – ٤١ :١٢ سقرم :ليجنلإا ٤٥

٤٦ Taicang yi su（太仓一粟）

٢٧ :١ بوقعي :ليجنلإا ٤٧

١٢ – ١١ :٢٢ نيوكتلا :ةاروتلا ٤٨

٢٩ :١ انحوي :ليجنلإا ٤٩

٥ :٣ انحوي ١ ؛٢٢ :٢ سرطب ١ :ليجنلإا ٥٠

٤٦ :٨ انحوي :ليجنلإا ٥١

.ماندأ ةدراو ليجنلإا تايآو .هللا ةملك حيسملا ىسيع ىمسيُ (٤٥ :٣) نآرقلا يف ٥٢

٤ – ١ :١ انحوي :ليجنلإا ٥٣

١٤ :١ انحوي :ليجنلإا ٥٤

١٣ – ١٠ :١ انحوي :ليجنلإا ٥٥

٣٢ – ٣١ :٨ ةيمور :ليجنلإا ٥٦

٢١٥ - ٢١٤ ةحفصـ ،(٢٠٠٦ ،جديلتور :كرويوينو ندنل) كيملاكلا :افونيشتوغ ريبـ-ازلإ ٥٧

:لاثملا ليبسـ ىلع رظنا ،ةرازهلا بـعشـ نع تامولعملا نم ديزملـ ٥٨
http://en.wikipedia.org/wiki/Hazara_people; http://www.hazara.net; http://www.britannica.com/EBchecked/topic/257908/Hazara. Some information on the Mongolians of Yunnan province is available at: http://english.cnyntour.com/printpage.asp?ArticleID=3810; http://en.wikipedia.org/wiki/Yunnan_Mongols; http://www.paulnoll.com/China/Minorities/min-Mongolian.html; http://www.hamagmongol.narod.ru/splinters/myunnan_e.htm
(٢٠١٠ ريانيـ ٢٦ تم الدخول إلى المواقع في)

١١ :١ ةعماجلا ٥٩

٦ - ٥ :٥ انحوي :ليجنلإا ٦٠

١٦ :٦ ىتم :ليجنلإا ٦١

٢ :٤ اقولـ :ليجنلإا ٦٢

٤ :٤ ىتم :ليجنلإا ٦٣

٧ – ٣ :٥٨ ءايعشإ ٦٤

٤٠ – ٣٧ :٢٢ ىتم :ليجنلإا ٦٥

٣٢ – ١١ :١٥ اقولـ :ليجنلإا ٦٦

٦ – ٥ :٦ نيوكتلا :ةاروتلا ٦٧

٨ – ٣ :٢ يبليفـ :ليجنلإا ٦٨

١٤ :٤ انحوي :ليجنلإا ٦٩

٣٩ – ٣٧ :٧ انحوي :ليجنلإا ٧٠

٤١ نيوكتلا :ةاروتلا ٧١

١٩ :٢٧ ىتم :ليجنلإا ٧٢

١٣ - ٩ :٦ ىتم :ليجنلإا ٧٣

٣٠ - ٢٦ :١٧ اقولـ :ليجنلإا ٧٤

٣٢ – ٣٠ :٢ ليئوي ٧٥

٢٩ – ٢٨ :٢ ليئوي ٧٦

٢ لسرلا لامعأ :ليجنلإا ٧٧

٦ – ٥ :٢ سواثوميت ١ :ليجنلإا ٧٨

٧٩
http://www.newworldencyclopedia.org/entry/Nestorian_Christianity; http://www.statemaster.com/encyclopedia/Nestorian-Stele; http://www.absoluteastronomy.com/topics/Assyrian_Church_of_the_East_in_China; http://www.touchstonemag.com/archives/article.php?id=20-03-030-f
(٢٠٠٩ ربمفون ٢٨ تم الدخول إلى المواقع في)

٨٠ برعلا راجتلا نم أساسأ اوناك ،غناتة رسأ دهع للاخ نيصلا يف نيملسملا ضعب دوجو مغر ،نآغناشتوأ ،وشتغناهوأ ،وشتغناوقلثم ىربكلا ندملا يف نوشيعي نيذلا سرفلاو http://en.wikipedia.org/wiki/Islam_in_China
(٢٠٠٩ ربمفون ٢٨ تم الدخول إلى الموقع في)

٨١
ناميإ :غنوثي كناشت ؛(٢٠٠٨ ويلوي ١) ،http://en.wikipedia.org/wiki/Shangdi
ةينيصلا ةعومجملا يف قرشلا تاسارد زكرم :نيصلا ،ياهغنش) ةميدقلا نيصلا يف هللا :انئابآ
١٠٦ – ٧٩ ةحفص ،(٢٠٠٦ ،رشنلل

١٦ – ١ :٢٠ ىتم :ليجنلإا ٨٢

١٣ :١٢ ةيمور :ليجنلإا ٨٣

٩ :٤ سرطب ١ :ليجنلإا ٨٤

٢ :١٣ نيبناربع :ليجنلإا ٨٥

١٤ – ١ :١٨ نيوكتلا :ةاروتلا ٨٦

٣٥ ،٣١ – ٢١ ،١٨ – ١٣ ،٥ – ٤ :١٦ جورخلا :ةاروتلا ٨٧

١٣ – ١ :٦ انحويِ :ليجنلإا ٨٨

٤٠ – ٢٦ :٦ انحويِ :ليجنلإا ٨٩

٦ :٢٥ ءايعشإ ٩٠

١١ :٨ ىتم :ليجنلإا ٩١

٢٠ :٣ ايؤرلا :ليجنلإا ٩٢

٥ :١٥ نيوكتلا :ةاروتلا ٩٣

اهلا ةداعلا هذه نإ لوقيِ رخآ أريسفتك يمكلا نم لُجر مدّق نا تسغاد يف تُنك امدنع ةرم تاذ ٩٤ .ةيحصِ ضارغأ

سفن نمضتيِ كان هنكل لصفلا اذه يف هتضرعتسا امم أزاجيإ رثكأ ةبسانملا هذه يف يباطخ كان ٩٥ .رثكأ لِيصافتي فضوخلاو طاقنلا ضعب حرش يف اذه تُعسوتف .ةيسيئرلا طاقنلا

مويلا فرعتُ روأ نأ يه رضاحلا تقولا يف لأوبق رثكلأا ةيرظنلا ٣١ :١١ نيوكتلا :ةاروتلا ٩٦ شوقنلا يف وروأ قحلا تِقو يف مث اميروأ وأ اموروأ ىعدتُو ،لبابب بونج ريقملا مساب طبارلا ىلع ةحاتم ةطيرخ ىلع حضوم مويلا قارعلا يف اهعقومو http://bibleatlas.org/ur.htm. http://www.traveljournals.net/explore/iraq/map/m4398374/ur_of_the_chaldees.html.

اهنأ باتكلا ضعب ىرِي .ةيرثلأا روأ ةنيدملِ عقاوم نوكت امبر ةلمتحم ىرخأ عقاوم هناك ،كلذ عم (http://members.bib-arch.org/search.asp?PubID=BSBA&Volume=3&Issue=2&ArticleID=5&UserID=0&) «ةيروسلا دودحلا برق ،ايكرت طسو بونج» مساب مويلا فرعيِ اميف عقت وأ (http://home.clara.net/arlev/genabraham.htm)، امبر ةقطنم يف عقت تالاحلا عيمج يف هنأ باتكلا ءلاؤه ىرِي .اينيمرأو ايكرت نيب ةيلاحلا ةيدودحلا قطانملا يف نلأا فرعيُ امم نيعم نِاكم يف شاع دق ميهاربإ نوكيِ امبرو .قارعلا ىلإ ةديعب ةِفاسم ىلع (٢٠٠٩ ربمفوذ ٣٠ تم الدخول إلى الموقع في) .ىطسولا ايسآ وأ زاقوقلا ةقطنمب

٣ – ١ :١٢ نيوكتلا :ةاروتلا ٩٧

قرشبونجيفةثيدحلا افروأةنيدمنمبرقلابنارا حتناك .٣١ :١١ نيوكتلا :ةاروتلا ٩٨
:لأثمرظنا .ايكرت
http://www.bible-history.com/maps/patrarch_wanderings.html; http://
www.traveljournals.net/explore/turkey/map/m١٠٧٥٣٠٨/haran.html;
http://www.greek-language.com/bible/palmer/٠٤geohist.html
(٢٠٠٩ ربمفون ٣٠ تم الدخول إلى الموقع في)

٧ – ٤ :١٢ نيوكتلا :ةاروتلا ٩٩

٥ – ٢ :١٥ نيوكتلا :ةاروتلا ١٠٠

٦ :١٥ نيوكتلا :ةاروتلا ١٠١

٤ – ١ :١٦ نيوكتلا :ةاروتلا ١٠٢

١٥ :١٦ نيوكتلا :ةاروتلا ١٠٣

٢ – ١ :١٧ نيوكتلا :ةاروتلا ١٠٤

٨ – ٤ :١٧ نيوكتلا :ةاروتلا ١٠٥

٩ – ٨ :٢ سسفأ :ليجنلإا ١٠٦

١٦ – ٩ :١٧ نيوكتلا :ةاروتلا ١٠٧

١٨ - ١٧ :١٧ نيوكتلا :ةاروتلا ١٠٨

٢١ - ١٩ :١٧ نيوكتلا :ةاروتلا ١٠٩

٢٧ - ٢٣ :١٧ نيوكتلا :ةاروتلا ١١٠

٢٦ :٢٥ :٩ ءايمرإ ١١١

١١ :٢ يسولوك :ليجنلإا رظنا ١١٢

١٢ - ١١ :٤ ةيمور :ليجنلإا ١١٣

١٩ :٧ سوثنروك ١ :ليجنلإا ١١٤

١٥ :٦ ةيطلاغ :ليجنلإا ١١٥

٢٠ :٢٨ ىتم :ليجنلإا ١١٦

٧ :١٦ انحوي :ليجنلإا ١١٧

١٨ ـ ١٦ :١٤ انحوي :ليجنلإا ١١٨

٧ :١٦ لسرلا لامعأ :ليجنلإا ١١٩

٢٦ :١٤ انحوي :ليجنلإا ١٢٠

١٢١ http://members.tripod.com/~khorasan/Miscellaneous/aspand.html طابارلا ىلع http://www.luckymojo.com/aspand.html (٢٠٠٨ ويلوي ١٥). طابارلا ىلع أيضاً ةحاتم ةلاصلا .(يلصلأا عقوملا ىلإ لوخدلا عطتسأ مل) http://tajikam.com/index.php?option=com_content&task=view&id=56&Itemid=37 (تم قطنلا نكلو 'aspand' مسا حرتقت رداصملا هذه .(٢٠١١ ربمسيد ٢١ الدخول إلى الموقع في يف ةفورعم يهو Peganum harmala ةينيتلالا اهمسا .ispand بتكيُ испанд يكيجاطلا http://en.wikipedia.org/ رظنا ،ليصافتلا نم ديزمل :عئاشلا لمرحلا مساب ةيزيلجنلإا ةغللا wiki/Harmal (تم الدخول إلى الموقع في ٢١ ربمسيد ٢٠١١).

١٢٢ http://www.luckymojo.com/aspand.html (تم الدخول إلى الموقع في ١٥ ويلوي ٢٠٠٨)؛ http://herb-magic.com/aspand.html (تم الدخول إلى الموقع في ٢١ ربمسيد ٢٠١١)

٢٥ :٣ بويأ ١٢٣

٥ ـ ٤ :١ بويأ ١٢٤

٦ ـ ١ :٤٢ بويأ ١٢٥

٣٤ ـ ٢٥ :٦ ىتم :ليجنلإا ١٢٦

١٠ :١١١ ريمازملا ١٢٧

١٠ :٩ لاثملأا ١٢٨

٧ :١ لاثملأا ١٢٩

١٥ :٣ نيوكتلا :ةاروتلا ١٣٠

خلإ ؛١٠ – ٩ :٢ يبليف ؛١٨ :١٦ لسرلا لامعأ ؛١٧ :١٦ سقرم ؛٨ :١٠ ىتم :ليجنلإا ١٣١

٣٩ – ٣٨ :٨ ةيمور :ليجنلإا ١٣٢

١٨ – ١٦ :٤ انحوي ١ :ليجنلإا ١٣٣

١٠ :١٠ انحوي :ليجنلإا رظنا ١٣٤

٣ – ١ :١ بويأ ١٣٥

،٢٣ :١٠ نيوكتلا يف ةروكذملا ءامسلأا أضيأ نراق ؛٢٠ :٢٥ ءايمرإو ٢١ :٤ ةينثتلا رظنا ١٣٦
١٧ :١ لولأا مايلأا رابخأو ٢٨ :٣٦و ٢١ :٢٢

١٢ – ٦ :١ بويأ ١٣٧

١٩ – ١٨ :١ بويأ ١٣٨

١٧ – ١٣ :١ بويأ رظنأ ١٣٩

٢٥ – ٢٢ :٨ اقول :ليجنلإا ١٤٠

٢٢ – ٢٠ :١ بويأ ١٤١

١٠ – ١ :٢ بويأ ١٤٢

٧ – ١ :٩ انحوي :ليجنلإا ١٤٣

٣٦ – ٣٥ :٩ ىتم :ليجنلإا ١٤٤

٣ :٤٢ بويأ ١٤٥

٧ :٤٢ بويأ ١٤٦

٢٧ – ٢٥ :١٩ بويأ ١٤٧

١٤ – ١١ :٢ سطيت :ليجنلإا ١٤٨

٤٥ :١٠ سقرم :ليجنلإا ١٤٩

١٤ – ١٣ :٧ لايناد ١٥٠

٣٦ :١٨ انحوي :ليجنلإا ١٥١

(٧١ – ٦٧ :٢٢ اقول أضيأ رظنا) ٦٦ – ٦٣ :٢٦ ىتم :ليجنلإا ١٥٢

١٤ – ١١ :١٧ لولأا مايلأا رابخأ ١٥٣

٤٩ :١ انحوي :ليجنلإا ١٥٤

تومدنع ةلزلز ثودح ركذتي تلا ٥٤ :٢٧ ىتم أضيأ نراق .٣٩ :١٥ سقرم :ليجنلإا ١٥٥
.ةصاخلا حيسملا ىسيع ةعيبط نع هللا نم ىرخأ ةملاع تناكي تلاو ،حيسملا ىسيع

٩ :١٤ انحوي :ليجنلإا ١٥٦

٢٣ – ٢١ :٢ سرطب ١ :ليجنلإا ١٥٧

٢٤ :٢ سرطب ١ :ليجنلإا ١٥٨

نإاكم يف يدودحلا ربعملا دجوي رضاحلا تقولا يفو .ميدقلا يدودحلا ربعملا اذه ناك ١٥٩
.فلتخم

٢٨ :١ نيوكتلا :ةاروتلا ١٦٠

كَرَتَ امَ اثَلُثُ نَّهُلَفَ نِيْتَنَثْا قَوْفَ ءَاسَنِ نَّكُ نْإِفَ نِيْيَثَنْلأُا ظِّحَ لُثْمِ رِكَذَّللِ مْكُدِلَاوْأَ يفِ هُلَّلا مُكُيصِويُ» ١٦١
نْكُيَ مْلَ نْإِفَ دٌلَوَ هُلَ نَاكَ نْإِ كَرَتَ امَّمِ سُدُسُّلا امَهُنْمِ دٍحِاوَ لِّكُلِ هِيْوَبَلِأَوَ فُصْنِّلا اهَلَفَ ةَّدَحِاوَ تْنَاكَ نْإِوَ
نِيْدَ وْأَ اهَبِ يصِويُ ةٍيَّصِوَ دِعْبَ نْمِ سُدُسُّلا هِمِّلِأُفَ ةٌوَخْإِ هُلَ نَاكَ نْإِفَ ثُلُثُّلا هِمِّلِأُفَ هُاوَبَأَ هُثَرِوَوَ دٌلَوَ هُلَ
فُصْنِ مْكُلَوَ .امَيكِحَ امَيلِعَ نَاكَ هَلَّلا نَّإِ هِلَّلا نَمِ ةَّضَيرِفَ اعَفْنَ مْكُلَ بُرَقْأَ مْهُيُّأَ نَورُدْتَ لَا مْكُؤُانَبْأَوَ مْكُؤُابَأَ
نَيصِويُ ةٍيَّصِوَ دِعْبَ نْمِ نَكْرَتَ امَّمِ عُبُرُّلا مُكُلَفَ دٌلَوَ نَّهُلَ نَاكَ نْإِفَ دٌلَوَ نَّهُلَ نْكُيَ مْلَ نْإِ مْكُجُاوَزْأَ كَرَتَ امَ
دِعْبَ نْمِ مْتُكْرَتَ امَّمِ نُمُثُّلا نَّهُلَفَ دٌلَوَ مْكُلَ نَاكَ نْإِفَ دٌلَوَ مْكُلَ نْكُيَ مْلَ نْإِ مْتُكْرَتَ امَّمِ عُبُرُّلا نَّهُلَوَ نِيْدَ وْأَ اهَبِ
امَهُنْمِ دٍحِاوَ لِّكُلِفَ تٌخْأُ وْأَ خٌأَ هُلَوَ ةٌأَرَمْا وِأَ ةَّلَلَاكَ ثُرَويُ لٌجُرَ نَاكَ نْإِوَ نِيْدَ وْأَ اهَبِ نَوصُوتُ ةٍيَّصِوَ
رٍّاضَمُ رَيْغَ نِيْدَ وْأَ اهَبِ ىصَويُ ةٍيَّصِوَ دِعْبَ نْمِ ثِلُثُّلا يفِ ءُاكَرَشُ مْهُفَ كَلِذَ نْمِ رَثَكْأَ اونُاكَ نْإِفَ سُدُسُّلا
.«مٌيلِحَ مٌيلِعَ هُلَّلاوَ هِلَّلا نَمِ ةَّيَّصِوَ

.(٣١ :١٧) «ارَيبِكَ انَطْخِ نَاكَ مْهُلَتْقَ نَّإِ مْكُايَّإِوَ مْهُقُزُرْنَ نُحْنَ قٍلَامْإِ ةَيَشْخَ مْكُدَلَاوْأَ اولُتُقْتَ لَاو» ١٦٢
مْهِيْلَعَ اوسُبِلْيَلِوَ مْهُودُرْيُلِ مْهُؤُاكَرَشُ مْهِدِلاوْأَ لَتْقَ نَيكِرِشْمُلْا نَمِ رٍيثِكَلِ نَيَّزَ كَلِذَكَوَ» :أضيأ نراق
(١٣٧ :٦) «.نَورُتَفْيَ امَوَ مْهُرْذَفَ هُولُعَفَ امَ هُلَّلا ءَاشَ وْلَوَ مْهُنَيدِ

«.لًامَأَ رٌيْخَوَ ابًاوَثَ كَبِّرَ دَنْعِ رٌيْخَ تُاحَلِاصَّلا تُايَقِابَلْاوَ ۖايَنْدُّلا ةِايَحَلْا ةُنَيزِ نَونُبَلْاوَ لُامَلْا» ١٦٣
.(١٨: ٤٦)

٥ – ٣ :١٢٧ ريمازملا ١٦٤

١٣ :١٠٣ ريمازملا ١٦٥

٣٨ :٣ اقولـ :ليجنلإا ١٦٦

٧ :٢ نيوكتلا :ةاروتلا ١٦٧

١٠ :٢ يخلام ١٦٨

٢ :١ ءايعشإ ١٦٩

١٢ – ١١ :٣ لاثملأا ١٧٠

١١ – ٥ :١٢ نييناربعلا :ليجنلإا ١٧١

٢٨ :٤ سسفأ :ليجنلإا ؛١٥ :٢٠ جورخلا :ةاروتلا ١٧٢

١٥ – ١٤ :٢ ةيمور :ليجنلإا ١٧٣

٥ – ٣ :٥ ةيمور :ليجنلإا ١٧٤

١٥ :٨ ةيمور :ليجنلإا ١٧٥

١٧ – ١٤ :٨ ةيمور :ليجنلإا ١٧٦

٢٥ – ١٦ :٥ ةيطلاغ :ليجنلإا ١٧٧

١٥ – ٧ :١٦ انحويـ :ليجنلإا ١٧٨
٣٢ :١٩ نييولالا :ةاروتلا ١٧٩

٢٩ :١٤ لاثملأا ١٨٠

١١ :١٩ لاثملأا ١٨١

١٥ :٢٥ لاثملأا ١٨٢

٥ – ٤ :١٠ لئاثملأا ١٨٣

١١ :١٢ لئاثملأا ١٨٤

١١ – ٦ :٦ لئاثملأا ١٨٥

١٩ :١٢ لئاثملأا ١٨٦

٢٥ :١٤ لئاثملأا ١٨٧

٢٢ :١٢ لئاثملأا ١٨٨

١٣ :١٦ لئاثملأا ١٨٩

٢٦ :١ نيوكتلا :ةاروتلا ١٩٠

٣ – ١ :٥ نيوكتلا :ةاروتلا ١٩١

٣٥ – ٣٠ :٣٥ جورخلا :ةاروتلا ١٩٢

١٥ :٢ سواثوميت ٢ :ليجنلإا ١٩٣

١٧ – ١٥ :١ يسولوك :ليجنلإا ١٩٤

٣ – ١ :١ انحوي :ليجنلإا ١٩٥

١٠ :٢ سسفأ :ليجنلإا ١٩٦

٣٨ :١٠ لسرلا لامعأ :ليجنلإا ١٩٧

٤٩ :(نارمعلآ) ٣ قروس ،نآرقلا رظنا ١٩٨

٢٩ :٦ انحوي :ليجنلإا ١٩٩

٧ :٥٣ ءايعشإ ٢٠٠

٣٤ – ٣٢ :٢٣ اقول :ليجنلإا ٢٠١

١١ :٨ لئاثملأا ٢٠٢

٨ ــ ٥ :١ بـوقعي :لـيجنلإا ٢٠٣

١٠ :٩ لـاثملأا ٢٠٤

٢٢ :١٨ لـاثملأا ٢٠٥

٣٣ ــ ٣١ :٦ ىـتم :لـيجنلإا ٢٠٦

٤ ــ ٣ :٢٤ نـيوكتلا :ةاروتلا ٢٠٧

١٥ ــ ١٢ :٢٤ نـيوكتلا :ةاروتلا ٢٠٨

٢٠ ــ ١٧ :٢٤ نـيوكتلا :ةاروتلا ٢٠٩

١٦ ــ ١٥ :٢٤ نـيوكتلا :ةاروتلا ٢١٠

٥٨ :٢٤ نـيوكتلا :ةاروتلا ٢١١

٥٣ :٢٤ نـيوكتلا :ةاروتلا ٢١٢

١٩ ــ ١٨ :١ سـرطب ١ :لـيجنلإا ٢١٣

١٤ ــ ١٣ :١٥ انـحوي :لـيجنلإا ٢١٤

٦ ــ ٤ :٣ سـطيت :لـيجنلإا ٢١٥

٣٣ ــ ٢٥ :٥ سـسفأ :لـيجنلإا ٢١٦

١٩ ــ ١٦ ،٨ ــ ٧ :٤ انـحوي ١ :لـيجنلإا ٢١٧

١٨ :٢ نـيوكتلا :ةاروتلا ٢١٨

٢٧ ــ ٢٦ :١٤ انـحوي :لـيجنلإا ٢١٩

٤ ــ ١ :٢١ ايـؤرلا :لـيجنلإا ٢٢٠

١٧ :٢٢ ايـؤرلا :لـيجنلإا ٢٢١

١٢ :٢٠ جـورخلا :ةاروتلا ٢٢٢

٦٨ – ٥٨ :٢٨، ٢٠ – ١٩ :٨ ةينثتلا :ةاروتلا ٢٢٣

٨ – ٣ :١٧ نيوكتلا :ةاروتلا ٢٢٤

١٠ – ٧ :٣ ىتم :ليجنلإا ٢٢٥

٤٤ – ٣٤ :٨ انحوي :ليجنلإا ٢٢٦

٣ – ٢ :١ ءايعشإ ٢٢٧

١٦ – ١٥ :٦٣ ءايعشإ ٢٢٨

١٠ :٢ يخلام ٢٢٩

٣٨ – ٢٣ :٣ اقول :ليجنلإا ٢٣٠

١٩ :٨ ءايعشإ ٢٣١

كَيفِ دْجَويُ لاَ» ١٣ – ١٠ :١٨ ةينثتلا رفس يف هسفن ميلعتلا درو .٣١ :١٩ نييولالا :ةاروتلا ٢٣٢
نْمَ لاَوَ ،رٌحِاسَ لاَوَ لٌئِافَتَمُ لاَوَ فٌئِاعَ لاَوَ ،ةًفَارَعِ فُرُعْيَ نْمَ لاَوَ ،رِانَّلا يفِ هُتَنَبْا وِأَ هُنَبْا زُيجِيُ نْمَ
دَنْعِ هٌورُكْمَ كَلِذ لُعَفْيَ نْمَ لَّكُ نَّلأَ .ىتَوْمَلْا رُيشِتَسْيَ نْمَ لاَوَ ،ةًعَبِاتَ وْأَ انَّاجَ لُأَسْيَ نْمَ لاَوَ ،ةًيَقْرُ يقِرْيَ
«.كَمِامَأَ نْمِ مْهُدُرِاطَ كَهُلإِ بُّرَّلا ،سِاجَرْلأَا هِذِه بِبَسَبِوَ .بِّرَّلا

٢٠ – ١٧ :١٠ اقول ،١٧ :١٦ سقرم ،٨ :١٠ ىتم :ليجنلإا ٢٣٣

٢٦ – ٢٤ :١١ اقول :ليجنلإا ٢٣٤

٢٨ :١٩ نييولالا :ةاروتلا ٢٣٥

١٤ – ١٣ :٢٦ ةينثتلا :ةاروتلا ٢٣٦

١٣ – ٩ :٧ سقرم :ليجنلإا ٢٣٧

نع ةريثك ةلثمأ كانه نكلو ،ةيلئاعلا تلاجسلا ةيمهأ ةفرعملا ٦٥ – ٥ :٧ ايمحنلأ ثم رظنا ٢٣٨
لولأا حاحصلأا نم لولأا مايلأا رابخأ رفس لثم سدقملا باتكلا نم ىرخأ عٍضاوم يف باسنلأا
.عساتلا حاحصلأا ىلإ

١٧ – ١٢ :٩ نيوكتلا :ةاروتلا ٢٣٩

٥ – ٣ :١ سرطب ١ :ليجنلإا ٢٤٠

٢٤١ الإنجيل: أفسس ١: ١٣ – ١٤

٢٤٢ الإنجيل: غلاطية ٤: ٦ – ٧

٢٤٣ الإنجيل: العبرانيين ١: ١ – ٢

٢٤٤ الإنجيل: العبرانيين ٩: ١٦ – ١٧

٢٤٥ الإنجيل: يوحنا ١٠: ١٤ – ١٨

٢٤٦ الإنجيل: كولوسي ١: ١٠ – ١٢

٢٤٧ إيزا-بير غوتشينوفا، الكاملك (لندن ونيويورك: روتليدغ)، صفحة ١٨٣.

٢٤٨ مرجع سابق.

٢٤٩ الأمثال ٣٠: ١٨ – ١٩

٢٥٠ الأمثال ٣٠: ٢٤ – ٢٨

٢٥١ إيزا-بير غوتشينوفا، مرجع سابق، صفحة ١٨٣.

٢٥٢ كانت كتاباته باللغة الألمانية، ولهذا السبب لم تكن معروفة جيداً في أجزاء أخرى من العالم. الترجمة الإنجليزية الأكفأ للرسائل الرئيسية مترجمة في كتاب فيلهلم شميت أصل الدين وتطوره: حقائق ونظريات، ترجمة هـ. ج. روز (ميثوين، لندن، ١٩٣١)، وفي كتاب فيلهلم شميت الوحي الأصلي، ترجمة جوزيف أبيرل (سانت لويس: دار نشر ر. هيردر، ١٩٣٩)- والعنوان الأصلي لهذا الكتاب [أصل مفهوم الله] الذي نشر في عام ١٩٣٤.

٢٥٣ رافائيل ييزيريتينوف: الآلهة التركية القديمة [من كتابه التنكيرية: دين الأتراك والمغول، (نابيريجني تشلني، تتارستان، الاتحاد الروسي، ٢٠٠٠)، الفصل الثالث: الآلهة، ص ٧١ – ٩٥، والترجمة الإنجليزية متاحة على الرابط التالي: http://aton.ttu.edu/OLD_TURK_DEITIES.asp. (تم الدخول إلى الموقع في ٢١ نوفمبر ٢٠٠٨).

٢٥٤ http://wapedia.mobi/en/Shangdi، http://www.newworldencyclopedia.org/entry/Shangdi#Meaning_.26_Use_of_Name، http://en.wikipedia.org/wiki/Tian (تم الدخول إلى المواقع في ٢١ نوفمبر ٢٠٠٨) تشان كي ثونغ: إيمان آبائنا: الله في الصين القديمة (شنغهاي، الصين: مركز دراسات الشرق في المجموعة الصينية للنشر، ٢٠٠٦)، صفحة ٧٩ – ١٠٦.

٢٥٥ http://en.wikipedia.org/wiki/Shangdi (تم الدخول إلى موقع في ٢١ ديسمبر) ؛(٢٠٠٨ نايتابريكوز كيرك :نسخة الإنسان أيضاً لوصف http://www.probe.org/site/c.fdKEIMNsEoG/b.4217657/ (تم الدخول إلى موقع في ١٠ ديسمبر ٢٠٠٨).

٢٥٦ ريكي بوارد :من هو الله قبل الإسلام؟ (١) http://www.themicahmandate.org/2009/03/who-was-%E2%80%98allah%E2%80%99-before-islam-1/ (تم الدخول إلى موقع في ١٥ فبراير ٢٠١٠).

٢٥٧ التوراة: الخروج ٣: ١٣ – ١٥

٢٥٨ الآيات ٣: ٤٢ إلى ٣: ٥٥ في مجمرة كاشر كاركاس .هـ .م الطبعة الإنترنتية على الأرقام على http://www.hti.umich.edu/k/Qur'an (تم الدخول إلى موقع في ١٥ يناير ٢٠٠٨).

٢٥٩ التيجان: تيم ٢٨: ١٨

٢٦٠ التيجان: تيم ١٠: ١

٢٦١ التيجان: تيم ١٠: ٨

٢٦٢ ديفيد ايسبتقا، في كتاب العالم، أيها الحور القدس: مبادئ المدخلة القيوقية (لندن: دار نوتوتسو ردوهشن، ١٩٨٥)، صفحة ٢٣٨ – ٢٣٩.

٢٦٣ التيجان: القول ٨: ٤٩ – ٥٥

٢٦٤ ديفيد ايسبتقا، في كتاب العالم، أيها الحور القدس: مبادئ المدخلة القيوقية (لندن: دار نوتوتسو ردوهشن، ١٩٨٥)، صفحة ٢٣٦ – ٢٣٧.

٢٦٥ الأول الكولمل ١٧: ١٧ – ٢٤

٢٦٦ ديفيد ايسبتقا، في كتاب العالم، أيها الحور القدس: مبادئ المدخلة القيوقية (لندن: دار نوتوتسو ردوهشن، ١٩٨٥)، صفحة ٢٣٥.

٢٦٧ التيجان: النحوي ١١: ١ – ٣، ١٧ – ٤٤

٢٦٨ ايسبتقا، في كتاب ديفيد الحاج: الحور القوة المدهشة: كيف تكشف الله الإنسان ويليام موفيشو (دار نشر زوندرفان، ١٩٩٦)، صفحة ٢٠٥ – ٢٠٦ عن كتاب شيهام الفاداشتا الطب بصنعها الجعزات (برينتوود جيرالد، زليو، ارتلجنا، دار نشر كرانوم، ١٩٩١).

٢٦٩ التيجان: النحوي ١٤: ١ – ٣

٤ :١٤ انحويـ :ليجنلإا ٢٧٠

٥ :١٤ انحويـ :ليجنلإا ٢٧١

٦ :١٤ انحويـ :ليجنلإا ٢٧٢

٢٧٣ ٤٦: ٩ يفـ ةمجرتـ .مـ .هـ .ركاشـ ىلعـ نآرقلل ىلعـ تنرتنلإا طبارلا http://www.hti.umich.edu/k/Qur'an (متـ لوخدلا ىلإ ٢٠٠٨ ريانيـ ١٥ يفـ عقوملا).

٢٧٤ ٦: ٣٢ يفـ ةمجرتـ .مـ .هـ .ركاشـ ىلعـ نآرقلل ىلعـ تنرتنلإا طبارلا http://www.hti.umich.edu/k/Qur'an (متـ لوخدلا ىلإ ٢٠٠٦ ربمتبسـ ٤ يفـ عقوملا).

٢٧٥ ٧: ٥١ قباسـ عجرمـ

٢٧٦ ٢٩: ٦٤ قباسـ عجرمـ

٢٧٧ ليجنلإا :١ سواثوميتـ ٤: ٨

٢٧٨ ليجنلإا :١٢ نيينار بعلا :١

٢٧٩ ليجنلإا :١٢ نيينار بعلا :٢ – ٣

٢٨٠ ليجنلإا :٣ انحويـ :١٩ – ٢١

٢٨١ http://www.liza-kliko.com/laurel-wreath/olympic.htm (متـ لوخدلا ىلإ ٢٠٠٦ ربمتبسـ ٤ يفـ عقوملا).

٢٨٢ http://www.liza-kliko.com/laurel-wreath/romanempire.htm (متـ لوخدلا ٢٠٠٦ ربمتبسـ ٤ يفـ عقوملا ىلإ).

٢٨٣ ليجنلإا :١ بـوقعيـ :١٢

٢٨٤ ليجنلإا :٢ سواثوميتـ ٤: ٧ – ٨

٢٨٥ ليجنلإا :٢ ايؤرلا :١٠

٢٨٦ ءايمرإ :٣١ – ٣٣ – ٣٤

٢٨٧ ليجنلإا :١٤ انحويـ :٢٦

٥ – ١ :٦ ءايعشإ ٢٨٨

ةاروتلا نكل (٦١و ٥٩ ةيآ ١٥ ةروس :لاثم) ميهاربإ يخأ نبا ىلع Lut مسا نآرقلا قلطي ٢٨٩ Lot. ميمستةيربعلا

١ :١٩ نيوكتلا يفةاروتلا ددحت .٢٩ – ١ :١٩ نيوكتلا ؛٢٢ – ١٦ :١٨ نيوكتلا :ةاروتلا ٢٩٠ .رشبلا لثم نودبي اوناك مهنأ مغر ةكئلام اوناك طول ذاقنلإ اوبهذ نيذلا نأ

١٤ :١ نيينار بعلا :ليجنلإا ٢٩١

٩ – ٧ :١٢ ايؤرلا :ليجنلإا ٢٩٢

٨ :٣ انحوي ١ :ليجنلإا ٢٩٣

٢٦ :١٥ جورخلا :ةاروتلا ٢٩٤

٣ – ١ :١٧ ىتم :ليجنلإا ٢٩٥

٤ – ٣ :١ نيينار بعلا :ليجنلإا ٢٩٦

٥٣ :٢٦ ىتم :ليجنلإا ٢٩٧

٢٢ – ١٨ :٣ سرطب ١ :ليجنلإا ٢٩٨

١٦ – ١٤ :٢ نيينار بعلا :ليجنلإا ٢٩٩

٩ :٢ نيينار بعلا :ليجنلإا ٣٠٠

٦ – ١ :٢٣ ريمازملا ٣٠١

١٥ – ١١ :١٠ انحوي :ليجنلإا ٣٠٢

١٠ – ٨ :١١ نيينار بعلا :ليجنلإا ٣٠٣

٢ :٣ يسولوك :ليجنلإا ٣٠٤

١٣ – ١٢ :١ ايؤرلا :ليجنلإا ٣٠٥

١٦ – ١٤ :١ ايؤرلا :ليجنلإا ٣٠٦

١٣ – ١٢ :٤ نيينار بعلا :ليجنلإا ٣٠٧

٢٥ :٢ انحوي :ليجنلإا ٣٠٨

٦ :١٤ انحوي :ليجنلإا ٣٠٩

٢٣ :٦ ةيمور :ليجنلإا ٣١٠

٢٣ :٦ ةيمور :ليجنلإا ٣١١

٢ :٢٢ نيوكتلا :ةاروتلا ٣١٢

١ :٣ ياناثلا مايلأا رابخأ ٣١٣

٢٩ :١ انحوي :ليجنلإا ٣١٤

٢٠ :٤ انحوي :ليجنلإا ٣١٥

٢١ :٤ انحوي :ليجنلإا ٣١٦

٢٤ – ٢٣ :٤ انحوي :ليجنلإا ٣١٧

٣١ – ٢٩ :١٢ سقرم :ليجنلإا ٣١٨

٢ :٢١ ايؤرلا :ليجنلإا ٣١٩

٤ :٨ نيوكتلا :ةاروتلا ٣٢٠

٣٧ :١٩ ياناثلا كولملا ٣٢١

٢٧ :٥١ ءايمرإ ٣٢٢

لبق ١٦٠٠ - ١٨٠٠) «ةميدقلا ةيلبابلا ةبقحلا» ىلإ ةمحلملا هذه نم ةميدق ةٌخسن دوعت ٣٢٣ سكافوك يريلاغ نيروم باتك رظنا .وتراروأ ةكلمم نم نينسلا نم تائم ةدع لبق يأ ،(دلايملا ٢٢. ةحفص ةمدقملا ،(١٩٨٩ ،دروفناتس ةعماج ةعبطم) شماجلج ةمحلم

٣٢٤ رظنا ،مسلاا قاقتشا صوصخب ةحاتم ةٍشقانم ىلإ لوصولل http://en.wikipedia.org/wiki/Nakhchivan. (http://www.azerb.com/az-nakhchivan.html). متـ لوخدلا ىلإ ينعيهنإ يٌرذأ ردصم لوقيـ «حونـ ةرمعتسم» (٢٠٠٩ ليربإ ٤ يفـ نيعقوملا ىلإ لوخدلا مت).

٢١ – ٢٠ :٩ نيوكتلا :ةاروتلا ٣٢٥

٣٢٦ http://www.reference.com/enc?q=wine&search=search (لوخدلا مت
.(٢٠٠٩ ريانيا ١٥ يفعقوملا ىلإ

٣٢٧ يفمز نمزلإا ةيروطاربملا ةيرنامورلا ةنهاك ،ةيبرعلا ةقطنملا يفعقيلبجلا اذهنا ةيبرعلا ةكلمملا مسابمويلا فرعيامم يبرغلا يلامشلا ءزجلاو ،ءانيسةريزجهبشلمشينا
(http://en.wikipedia.org/wiki/Arabia_Petraea). (لوخدلا مت ىلإ يفعقوملا ١٥ ريانيا ٢٠٠٩). لجنلإا امأ
رصعلا يفبتكيذلا ليجنلإا ركذيبسلا اذهلو ،«ةيبرعلا» ةطاسببةقطنملا هذهيمسينا كفا
.(٢٥ :٤ ةيطلاغ :ليجنلإا) «ةيبرعلا» ةقطنميفعقينا كءانيسلبجنأ يناموررلا

٣ :٣ انحويلجنلإا ٣٢٨

٤ :٣ انحويلجنلإا ٣٢٩

٦ – ٥ :٣ انحويلجنلإا ٣٣٠

٤٧ – ٤٣ :(نارمعلآ) ٣ ةروسنآرقلا ٣٣١

٣٥ :١ اقولجنلإا ٣٣٢

٢ :١ نيوكتلا :ةاروتلا ٣٣٣

١٣ – ١٢ :١ انحويلجنلإا ٣٣٤